المجتمع المريض

الكتاب الفائز بجائزة وزارة التربية والتعليم

بقلم

دكتور نجيب الكيلاني

مسابقة إدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم
(قسم الاجتماع والفلسفة)

مؤسسة الرسالة

١٤٠١هـ - ١٩٨١م



مؤسسة الرسالة - بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٢٩٥٥٠١ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً · بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن المجتمع الكبير — مجتمع بلادنا — يشتمل على مجتمعات صغيرة مترابطة كل مجتمع منها له سماته ودلالاته الخاصة ، وكل هذه المجتمعات تتفاعل مع بعضها فيؤثر أحدها فى الآخر بطريقة ما ، ولا شك أن إعتلال واحد منها أو انحرافه سيكون له عميق الأثر فيما عداه ، تماماً مثل جسم الإنسان الذى يتكون من أجهزة مختلفة لكل جهاز منها وظيفته المنوطة به ، وإصابته بأى ارتباك سوف ينعكس على باقى الأجهزة بوجه عام ، ويظهر ذلك واضحاً جلياً فى حالة الجسم وسلوكه وحيويته

ومجتمع السجون ما هو إلا وحدة اجتماعية تنضوى تحت لواء المجتمع الكبير ، مشابها فى ذلك أحد أجهزة الجسم ، غير أن مجتمع السجون مجتمع معتل سقيم .

ولقد حاولت قدر الإمكان أن أسجل لهذا المجتمع المريض ظروفه الخاصة ، وقيمه المتعارف عليها ، ومشكلاته العديدة ، معتمداً فى دراساتى على عنصرين أساسيين هما [1] : —

(أ) المشاهدة .

---

(١) حبذنا فى بحثنا هنا « الاتجاه التكاملى » المعروف فى النظريات العقابية وتفسير الجرائم .

(ب) التجربة .

ولقد كان لطول المدة التى قضيتها بين المجرمين ، ومحاولة التغلغل فى أعماق حياتهم وأفكارهم وتصرفاتهم ، مدى بعيد فى محاولة الاستفادة من عنصرى المشاهدة والتجربة أثناء دراساتى فضلا عن أن الثقة التى يكتسبها الدارس بطول المعاشرة ، تكشف الكثير عن غوامض حياة المجرمين واتجاهاتهم . لهذا كان أهم مرجع فى هذه الدراسات هى الخبرة الشخصية ، ومن الأمانة العلمية أن نشير إلى بعض المراجع الهامة التى رجعنا إليها فى بعض النقاط مثل كتاب « علم النفس الجنائى علما وعملا » للأستاذ محمد فتحى ، وكتاب « كفاح الجريمة » للأستاذ محمد شاهين ، وكتاب « عالم السدود والقيود » للأستاذ عباس العقاد ، وقرارات مؤتمر جنيف بشأن الجريمة ، وملحق لتقرير عن البعثة الأولى لمصلحة السجون لدراسة النظم العقابية والإصلاحية بالولايات المتحدة وويلز عام ١٩٥٥ ، والنشرات الدورية والتقارير التى تعدها مصلحة السجون ، وكتاب « علم النفس الإجتماعى » للدكتور فؤاد البهى السيد ، وبعض المقالات المتناثرة فى الصحف والمجلات ، غير أننا نعود ونسجل الحقيقة المشار إليها آنفا ، وهى أن خبرتنا الشخصية ، ودراساتنا الخاصة كان عليها المعول الأكبر .

ولا شك أننا فى فترة هامة من فترات تاريخنا القومى ، ويجدر بنا فى هذه الحقبة أن نحدد معالم شخصيتنا ، وندرس سماتها ومعالمها واعوجاجها وما يعرقل نموها أو يحد من نشاطها وما يدفعها إلى الأمام فى طريق التقدم والإصلاح والسعادة .

وقد يكون فى هذه الدراسات بعض الصور القائمة المخجلة التى تتعلق بحياة هذا المجتمع المريض — مجتمع السجون — وقد يكون بعض هذه الصور مخالفاً لما تذيعه الدعايات ، ولكن لا بأس من ذلك لأننا — وقد تحرينا الدقة والصدق — نعتقد أن فى الكشف عن بعض الأوضاع المؤلمة فائدة كبرى ، ونفعاً عظيما ، لأن ذلك سيكون مدعاة لبذل مجهود أكثر فى مجال الإصلاح والعلاج ، حتى يسلم مجتمعنا من الشذوذ ، وينجو من السلوك المنحرف ، وينتصر على عوامل الفساد والجريمة ويقضى عليها ، ولاشك أن حسن النية وسلامة القصد ، ونبل الغاية ، بشير بالنجاح المرتقب .

* * *

ونحن فى هذا الكتاب لم نكتف بالدراسة الإجتماعية البحته ، وعرض المشاكل الخاصة بهذا المجتمع المريض ، بل عرجنا على العلاج الواجب ، وسردنا بعض الآراء الخاصة بإصلاح ما يعتور هذا المجتمع من نقص فى قيمه ومفاهيمه وسلوكه ، فكنا بذلك كالطبيب الذي يشخص الداء بعـــد الدرس والتمحيص ،

ثم يضع العلاج اللازم وبذلك تكون الفائـــدة أعظم ، والنفع أشمل وأعم ، ونكون بذلك قد سددنا ثغرة هامة من الثغرات التى تعتور مجتمعنا الناهض المكافح .

ومع ذلك فإنى أؤمن بأن هذه الدراسات مازال فيها مجالات أخرى لغيرى قد يجد أكثر مما وجدت ، ويستنتج أكثر مما استنتجت

وإنى لأرجو أن يجد القارىء فى هذه الصفحات ما يشبع نهمه ويروى ظمأه فيما يختص بهذا المجتمع — مجتمع الجريمة — وخاصة وأننا قد حاولنا أن نحيط بأكثر نواحى السجون من مثل ، وفنون ، ونظريات عقابية ، وأثر الدين والعلم فى نفسية المجرم .. و .. و الخ كل ذلك بطريقة تجمع بين الشواهد والقصص والسرد حتى لا تكون دراساتنا جامدة مملة .

والله نسأل أن يهبنا التوفيق والسداد ؟

المؤلف

الفصل الأول

مجتمع له قيمه الخاصة

أول لقاء

حينما قطعت الفناء الواسع — فناء سجن القاهرة — قصدت فوراً عنبر «ج» وفتحت البوابة فدلفت إلى داخل العنبر، لكنى توقفت فجأة، وقد استولت علىّ الدهشة، وتولانى العجب، إذ رأيت إنساناً يقف عارياً — كما ولدته أمه — لا يستر سوءتيه بشيء على الإطلاق، مع أن برد الشتاء كان يجمد أطرافى، فصحت بالسجان المرافق لى:

— «ما هذا ؟ ؟»

فردّ علىّ السجان دون أن يبدو عليه أدنى اكتراث:

— «دا (ع . ا) المجنون».

وسرعان ما أخذت دهشتى تذوب وتتلاشى، لكن وثب إلى ذهنى سؤال:

فقلت للسجان:

— «ولماذا تتركون المساجين المجانين هنا داخل السجن ؟ ؟ أما كان من الأوفق والأرحم بهم أن ترسلوهم إلى مستشفى الأمراض العقلية، فتحققوا من وراء ذلك هدفين: أولهما وضعهم تحت العلاج اللازم، والثانى هو إراحة باقى المسجونين من الضجة والقلق الذى يسببه لهم أمثال هذا المجنون ؟ ؟»

فقهقه السجان ساخراً من كلامى وقال :

— « إن اسمه الحقيقى « ع . ا . ج » ، أما « ع . ا . المجنون » فهو اسم الشهرة لا غير ، وهو ليس مجنوناً كما تتصور .

فعادت إلىّ دهشتى أكثر مما كانت وقلت :

— « إذن فما سر وقوفه عاريا هكذا ؟ ؟ » .

— « ابن ... سوابق ... وكلما تشاجر مع أحد المسجونين ، أو أهانه أحد من السجانين ، أو كان له مطلب لم يتحقق بادر إلى التعرى من ملابسه ليبدأ معركة ، أو يعلن احتجاجاً . . »

— « إذن فهو فى شجار مع إنسان ما الآن . . »

— « بالطبع . . »

وظلت صورة ذلك الإنسان العجيب عالقة بذهنى ، مثل صور كثيرة غيرها لا يمكن أن تنسى ، فقد علمت بعد أن عاشرت المسجونين وآكلتهم وشاربتهم وحادثتهم ، أن مجتمعهم مجتمع خاص له سمات معينة ، وصفات معروفة لديهم ، لا تثير فى نفوس النزلاء كثيراً من النفور أو الاشمئزاز لأنها مألوفة كثيرة التكرار

وتبين لى أن مجتمع السجون له قيمه المتعارف عليها ، وهو كأى مجتمع له عقله الجمعى [1] الذى يضع القواعد والأصول التى يسير

---

(١) انظر كتاب « الأسرة والمجتمع » للدكتور على عبد الواحد وافى

على هديها المجموع ، وهذه القيم أو القواعد ، قد وضعتها نفوس وارتضتها عقول منحرفة ، وأجازتها مقاييس مختلة فيها كثير من الشذوذ ، والخروج على النسق الطبيعى الذى نراه فى المجتمعات العادية ، ولا غرابة فى ذلك ، لأن مجتمع السجون قد تشبع بالجريمة ، ومارس ألوانها المختلفة ، ومن المجرمين من اتخذ الجريمة عادة أو صنعة حتى أصبحت حياته بدونها خواءً وفراغاً مملا . .

وقد يتساءل سائل : إن هناك حقائق وأمورا واضحة للعيان لا يختلف فى بداهتها اثنان ، فكيف يتنكر أرباب الجرائم لمثل هذه الحقائق ، ويقلبونها ويسيرون على النقيض منها ؟؟ ولو علم هذا السائل الظروف التى نشأ فى ظلها هؤلاء المجرمون ، ولو تغلغل إلى أعماق نفوسهم المعقدة ، ونوع التربية والمثل التى درجوا عليها لأيقن أنه لا غرابة فيما نراه من (ع . ا . ج) وعشرات غيره .

وسوف نتعرض لبعض هذه القيم المشار إليها آنفاً فى السطور التالية

(ا) مخالفة اللائحة واجب :

إن أغلب المسجونين ـ وخاصة أرباب السوابق ومعتادى الإجرام والذين لا يحظون بأى قسط من التعليم — ينظرون إلى المشرفين على شئونهم من ضباط وسجانين وغيرهم نظرة عداء وحقد ، فهم لا يريدون أن ينظروا إلى الجهاز الإدارى على أنه الحارس الرسمى لقوانين السجن ، والمنفذ لها باسم الدولة ، والقائم بواجب منوط به لا يستطيع أن يتهاون فيه وإلا تعرض للعقاب أو المآخذة . .

إن المسجونين لا ينظرون أبداً مثل هذه النظرة إلى رؤسائهم ، لأنهم يعتقدون أن الإداريين ماوجدوا بينهم إلا ليذيقوهم الهوان، ويؤرقوا عليهم حياتهم ، ويحرموهم مما يشتهون .

والسبب فى ذلك هو « الممنوعات » .

« والممنوعات » كلمة لا يجهلها أحد من النزلاء ، فالسجن لا يباح فيه كل مايباح خارجه، ولقد اقتضت عقوبة سلب الحرية، وضمان الأمن فى السجن منع كثير من الأشياء عن المسجون ، فارتضت اللائحة زيًّا معيناً، وطعاما فى نطاق معلوم . وترفيها لا يخرج عن حيز خاص ، فلا يباح مثلا إيقاد النار داخل الحجرات ، كما كان لايباح التدخين فى الماضى ، والمراسلات الصادرة والواردة لها نظمها الخاصة ، والاتجار بين المسجونين أنفسهم أمر غير مسموح بـه ، والاحتفاظ بالآلات الحادة التي يخشى من وجودها أمر يعاقب عليه القانون ...

وتداول النقود ممنوع أيضاً . .

هذه الأشياء وما شاكلها هى التى تسمى بالممنوعات ...

ويحلل الأستاذ عباس العقاد مشكلة تهريب الممنوعات بقوله :
« وليس التهريب فى السجون بالشىء الهين ، ولا بالمطلب اليسير ، لأنه هو الدفاع الوحيد الذى ينتقم به المسجونون من الأسوار والقيود والحراس ، وهو فسحة الحرية الباقية لمن فقدوا الحرية ،

فعليه تنصب جميع الجهود والحيل والخبائث ، وله وحده تجارة واسعة النطاق ، تجرى على معاملات خاصة ، ولغة خاصة ومواصلات خاصة ....»

والنزلاء يحاولون بشتى الطرق ، ومختلف الأساليب ، الحصول على ما يريدون فيعرضون أنفسهم للاصطدام باللوائح والقوانين التى تقف لهم بالمرصاد ممثلة فى أشخاص المشرفين عليهم ، والقائمين بأمورهم ، فإذا ما أراد القانون أو من يمثلونه توقيع العقاب على المخالفين ، اتهمهم المسجونون بالظلم والطغيان والتعسف ، ورموهم بكل رذيلة ونقيصة . . ونظروا إليهم نظرة العداء والكراهية .

وقفت بالقرب من بعض نزلاء سجن القناطر الخيرية،فسمعتهم يفاضلون بين سجن وسجن ، ويثنون الثناء العاطر على سجن آخر . . قال أحدهم :

— «كنت فى ليمان أبو زعبل» فى الحبسة الثالثة . . وكان سعادة البيه المأمور يجيب لى الشاى بنفسه ، ويقول لى خد يا عبد الباسط عشان تترزق ، وأنا كان قلت للدكتور يكتب لك على سكر . . . »

فيرد عليه زميل آخر :

— « أهى دى السجون ولاّ بلاش.. »

— « علىّ الطلاق يا رجاله من مراتى دا حصل .. »

يدور هذا الكلام فيما بينهم، وكثيراً ما يكون مثل هذا الحديث من نسج الخيال، ولعلها أحلام يريدونها أن تتحقق، وهم يختلقون هذه المزاعم والأكاذيب ليحشوا بها رءوس زملائهم، ويشحنوها بالحقد والكراهية، وينفثوا بها عما في نفوسهم من كبت وآلام وفوران.

ومعظم أحاديث النزلاء تدور حول الإدارة فى السجن، وحول بعض زملائهم الذين تصدوا لها، فلم يحنوا رءوسهم لوعد أو وعيد ولم يعبأوا بالرتب العالية، أو التهديد بالجلد أو التأديب..

هذه المشكلة — مشكلة مخالفة اللوائح والتصدى للإداريين — مشكلة قديمة كانت على أشدها حينما كانت السجون فى الماضى تعيش كالقمقم حيث الظلام والقسوة والإرهاب، وحيث آلام الغربة والوحدة والجفاف، وحيث الإرهاق الجسدى فى العمل، والإيذاء الروحى والبدنى...

والمعروف — كما فى الإحصائيات — أن غالبية المسجونين من ذوى الثقافات الضئيلة أو المنعدمة، لهذا فإن نظرتهم إلى حقيقة العلاقة القائمة بينهم وبين الإداريين نظرة سطحية، لا تدرك سوى أن السجانين هم الذين يوقعون العقاب، وهم الذين يقفون فى وجه استيراد الممنوعات ظلماً وعدواناً، وهم الذين يقومون بالتفتيش وضبط المخالفات، وما إلى ذلك..

بذلك أصبح الإداريون جبهة ... وأصبح النزلاء جبهة أخرى مضادة لهم ، فقامت عندئذ العداوات ، وتحدثوا عن البطولات المزعومة والصراع الرهيب فى هذه المعركة الوهمية بين النزلاء والإداريين ، وأصبح التصدى للقوانين واللوائح ، والصدام مع الهيئة التنفيذية واجباً تفرضه الرجولة،وتقره الكرامة والشهامة ..

(ب) التمارض واصطناع العاهات فن :

لا أستطيع ما حييت أن أنسى ذلك الشاب الفارع الطول « صلاح » . لأن مأساته قد تركت فى قلبى جراحاً غائرة ، ففى أحد الأيام صعد إلى أحد الأدوار العليا فى العنبر ، ثم قذف بنفسه فوق أحد الضباط ، فأخطأه ثم سقط على الأرض .. لكنه لم يمت ... كل ما حدث أن ساقيه قد فقدتا الحركة إلى الأبد ، ثم أخذتا فى الضمور يوماً بعد يوم ، حتى أصبحت رفيعة جداً ، وأصبح صلاح مقعداً لا ينتقل من مكان إلى مكان إلا على كتفى أحد زملائه ، ولا يستطيع أن يقضى حاجته إلا على وضع مُبْكٍ ..

كذلك لن أنسى « ع . ا » الذى وضع « الكوبيا » فى إحدى عينيه فالتهبت وتورمت ، ثم فقدت النور إلى الأبد ، ولما رأيته وأظهرت له ألمى وإشفاقى من أجل عينه الضائعة ، ضحك وكشف لى عن ذراعيه وساقيه فوجدت فيها آثار جراح قديمة كبيرة ، قد شوهتها تماماً،وإن كان ما زال قادراً على الحركة والمشى،وما زال يستمتع ببنيته القوية فى السجن ..

ثم ذلك المسجون الذى قطع جزءاً حساساً من جسمه « بالموس » حتى يلصق بحر اسه تهمة هم منها براء ..

ثم (ع.ا) المجنون، ذلك السجين المشهور، الذى يقف بكل جسارة واستهتار ليزق جبهته وبشرة بطنه بشفرة الحلاقة التى يحصل عليها خلسة من أى طريق .

وأولئك الذين يحقنون أنفسهم بمختلف السوائل والمحاليل كاللبن والكيروسين وغيرهما كى يحدثوا عاهات أو آثاراً مختلفة فى أبدانهم وهناك صنف آخر من المسجونين يتصنع الجنون، أو يتصنع بعض الأمراض الأخرى ، فمثلا (ع.ا) المجنون — تلك الشخصية العجيبة — استطاع أن يصطنع قرحة مشابهة لقرحة الزهرى والسجين الذي أمكنه أن يحصل على عينة بصاق من أحد زملائه تحتوي على جراثيم السل ، « والسجين ح » استعار من أحد زملائه عينة « بول » فيها دم وصديد وزلال ، وآخر استطاع أن يتصنع الشلل ثلاث سنوات .. و .. و .. الخ .

إن تصنع العاهات وجلب العلل فن دقيق فى السجون ، له قواعده ودروسه، وبالتالى له أساتذته المتفوقون الذين يأتون بما يشبه المعجزات وقد تودى مثل هذه المعجزات بحياة السجين ، وقد تفقده عضواً من أعضائه ، وقد تؤدى الغرض المطلوب منها فى دقة عجيبة .

وهذا الفن معترف به فى مجتمع النزلاء ، لذلك فهو لا يثير بين

غالبيتهم اشمئزازاً، ولا يستدعى نفوراً أو تأففا إلا إذا كانت المبالغة فيه زائدة، والتطرف فوق الحد . .

فلماذا يلجأ النزلاء إلى هذا الأسلوب المذرى فى سجنهم ؟

هناك أسباب مختلفة لهذه الظاهرة الغريبة ، منها :

الفرار من المسئولية والعمل والجنة الموعودة

هناك فئة من المسجونين تعشق التبطل والقعود ، قد اتسمت حياتها بالكسل والتراخى ، فتنفر من أبسط الأعمال ، وتتحايل على الفرار منها. وهناك فئة أخرى يضيقون ذرعاً بالأشغال الشاقة حيث قطع الأحجار أو نقلها فى الجبل ، فلا يستطيعون تحمل ذلك المجهود المضنى الذى يرهق أجسادهم ، وينهك قواهم إنهاكا شديداً ، وخاصة إذا كان المسجون ليس من الفلاحين الذين تعودوا على حياة الصبر والعمل الشاق .

وهناك فئة من المسجونين الذين يقومون بالعمل على الأنوال فى ورش النسيج ويطلب منهم مقطوعية معينة وليس أمامهم إلا أن ينتجوا ما يطلب منهم ، وإلا فالتأديب والجلد فى انتظارهم .

هؤلاء وهؤلاء - أعنى الذين درجوا على التبطل خاصة اللصوص والذين يهربون من مسئوليات الأعمال الشاقة ومقطوعياتها - يلجأون إلى اصطناع تلك العاهات ، التى تجعل لياقتهم الطبية غير كافية لمزاولة

مثل تلك الأعمال ، فإذا ما عرضوا على طبيب السجن أعطاهم درجة طبية - أى عملا أخف من سابقه .

لهذا لا يرعوى الواحد منهم أن يضحى بعضو من أعضائه ، أو يشوه جزء من أجزاء جسمه ، حتى ينال الجنة الموعودة الدرجة الطبية ومثل هؤلاء النفر من المسجونين ينظر إليهم من إخوانهم نظرات الحسد والغيرة على هذا النجاح الذى أحرزوه .

بقيت طائفة أخرى من المسجونين ، وأعنى بهم أولئك الذين يهرعون إلى بعض الأعمال ذات الكسب المادى ، مثال ذلك المسجونون الذين يعاونون « التومرجية » أو السجانين فى توزيع الوجبات الغذائية على النزلاء فيستطيعون أثناء ذلك أن يختلسوا جزءاً مما ليس لهم فيه حق ليتناولوه شخصياً أو يبيعوه لمن يريد أن يشتريه .

روى لى (ع . خ) وهو نوبتجى فى أحد الأدوار التى تستقبل الإيراد — النزلاء الجدد — وله سلطة ونفوذ واسع ، قال لى : إنه قد يكسب فى يوم واحد ما يقرب من جنيهين ، فهو يستطيع بتأثيره على سجان الدور أن يختار للنزيل الجديد مكاناً مناسباً ، وعدداً كافياً من البطاطين ، وبرشاً نظيفاً متيناً ، والأهم من هذا وذلك يضمه وسط مجموعة من النزلاء الموثوق فى رجولتهم وأخلاقهم ، وبعض النزلاء الجدد يقبل أن يضحى بكل ما يستطيع حتى يدفع عن نفسه غائلة البرد ، وعبث المذنبين وقذارتهم وضوضائهم ..

فلا عجب إذن أن يحاول (ع . خ) بشتى الطرق والوسائل — ولو أدى الأمر إلى اصطناع عاهة — كى ينال هذا العمل المربح المريح فى السجن .

الاتصال بالخارج :

بعض النزلاء يهمهم جداً الاتصال بالخارج لأسباب كثيرة ، فيعمدون — كما سبق — إلى رفع درجة حرارتهم رفعاً مصطنعاً ، أو يبتدعون الجروح والأمراض حتى ينقلوا إلى مستشفى الحميات أو الجراحة فيتحقق لهم ما يريدون .

أعرف بعض النزلاء الذين كانوا يخرجون إلى المستشفيات الخارجية ، فإذا ماعادوا تجمع حولهم زملاؤهم يهمسون ويبتسمون ويقبلونهم فى رءوسهم ووجوههم وأيديهم . .

لا تعجب أيها القارىء فقد عادوا يحملون معهم السموم . . أعنى المخدرات من حشيش وأفيون ، وكذلك النقود . .

وأين يحملونها ؟؟

فى أنابيب معدنية صدئة ، أسطوانية الشكل . . .

وكيف يدخلون بهذه الأنابيب إلى السجن ؟ ؟

هناك عملية تهريب مشهورة بين النزلاء اسمها «اللبوس» ، وهى

عبارة عن وضع هذه الأنابيب المعدنية فى فتحة الشرج، ودفعها إلى أعلى حتى تختفى تماما ، وهذا هو السبب فى أن إرغام النزيل ـ فيما مضى ـ على التبرز كان وسيلة من وسائل التفتيش . .

فى دورة المياه بالسجن حدث ذات مرة أن سمع السجان الحوار التالى بين اثنين من النزلاء . . قال الأول فى تذلل واستسلام :

ــ « اعمل معروف يامعلم واديني حتة بشلن . . . راسى راح تطير »

فرد الثانى فى كبرياء وسيطرة :

ــ « خليك لبكرة الصبح . . . »

ــ « أنا فى عرضك يامعلم . . . »

ــ « ياأخى النزيف خلص علىّ . . ألبسها وأنزلها . . وألبسها وأنزلها طول النهار . . . ليه ؟ ؟ هو أنا حيوان ؟ »

ــ « عشان خاطرى يامعلم »

وبعد حوار طويل أراق فيه الأول ماء وجهه ، دخل الثانى دورة المياه وبعد فترة خرج وفى يده قطعة من الأفيون ، فاختطفها الأول منه وكأنه عثر على كنوز الدنيا بأسرها ، لكن سرعان ما ظهر السجان وأخذهما متلبسين .

إن الخروج إلى المستشفيات وسيلة ـ فى بعض الأحيان ـ للحصول على الممنوعات ، وطريقة عجيبة لا يرى المسجون بأسا فى التضحية من أجلها بأى شىء مهما غلا . .

نوع من التهديد ولفت النظر :

وهناك صنف من النزلاء لا تكاد تجد سبباً ظاهريا لاعتدائه على نفسه ، وتمزيقه لجسده ، أو إتلافه لصحته ، وقد سئل أحدهم :

— « لم تفعل ذلك ؟؟ » ، فأجاب :

— « سيبونا بقى . . كفاية . . . إيه الحكاية بتاعتكم ؟ ؟ »

إنه لم يجد سبباً معقولا لعدوانه على نفسه ، ومثل هذا المسجون يحاول دائماً أن يجتذب إليه الأنظار ، ويجعل الضباط والنزلاء يلوكون اسمه — ولو على هذا المنوال الوقح — فينال الشهرة والسمعة التى قد تكمل فيه نقصاً أو تشبع له شهوة غامضة ،أو رغبة جامحة منحرفة . .

وفئة أخرى تريد أن تنتقم من الإدارة ، فتوقع على نفسها أضراراً تنسبها كذباً إلى المسئولين حتى تحقق معهم النيابة ، ويخيل إليهم أنهم بهذه الطريقة يستردون حقا ، أو ينالون مكانة فى السجن .

الاستمتاع بالأهل :

وقليلون أولئك الذين يلجأون إلى فن اصطناع العاهات والتمارض كى يلتقوا فى الخارج بأهليهم وذويهم ، فينعمون معهم بأوقات طيبة لا تتاح لهم داخل السجن يوما ما . .

أسباب أخرى غير ظاهرية :

وهناك بعض الأسباب الأخرى التى يعزى إليها اصطناع العاهات ذكرها علماء النفس ، منها :

١ — غريزة الاعتداء على الغير ، وعندما لا يستطيع السجين أن يعتدى على غيره يعتدى على نفسه .

٢ — ربما كان للكبت الجنسى أثر ملحوظ فى اصطناع العاهات ، لأن هناك صلة وثيقة بين الغريزة الجنسية وشهوة القسوة كما فى « النزعة السادية » .

٣ — عقدة الإحصاء ، وهى وثيقة الصلة بعقدة أوديب (أنظر كتب علم النفس) .

٤ — الشعور بالذنب فيقتص السجين من نفسه .

٥ — اضطراب عقلى .

٦ — توتر نفسى .

٧ — رواسب بيئية واجتماعية منذ الطفولة .

(ح) السجن للرجالة :

من القيم الفاسدة ، والمعتقدات الخاطئة التى تسيطر على أفكار المسجونين وتتغلغل فى صميم عقولهم : أن السجن للرجالة . مع أن

المعروف بداهة أن السجن هو المكان الذى يأوى أولئك المتمردين على نظم المجتمع ، والمتنكرين لتقاليده وقوانينه ، والعابثين بأمنه وسلامته ، وأولئك الذين يهربون من المسئوليات المنوطة بهم ، ويدوسون نداء الضمير وصرخاته . . .

فالمسجونون معتدون أو خارجون على نظام الجماعة ، ولذلك رأت المصلحة العامة أن تضعهم فى السجن كنوع من أنواع العقوبات وطريقة من طرق الردع والزجر ، حتى لا يعودوا لما نهوا عنه ، وحتى لا يتكرر عدوانهم على النظم التى ارتضتها الفطرة السليمة ، والتفكير المتزن السليم . . .

فهل السجن للرجال كما يقولون ... ؟؟؟

وهل هو باب من أبواب الفخر والمباهاة والاعتزاز ؟؟

وهل هو — فى كل الأحوال — منزلة يحسد عليها من يرقى إليها ؟

تعالى معى لنتمعن سويا فيما يزعمه النزلاء . . .

جرى العرف فى السجن أنه إذا ما جاء يوم الإفراج عن أحد المذنبين ، احتفل به بعض زملائه بطريقة لا تكاد تتغير ، ففى ليلة ما قبل الإفراج ، وبعد أن ينتهى تمام السجن بساعة أو اثنين، تسمع صوت أحد أصدقاء المفرج عنه ، ويأخذ هذا الصوت يعدد أدوار العنبر دوراً دوراً ، متبوعاً بكلمة مدح ، إذ يصيح قائلا :

العنبر كله يسمع .

مساء الخير على خفر الليل . .

واحد (١) يا ورد . . .

اثنين يا فل . .

ثلاثة يا ياسمين . .

أربعة يا أجدع ناس معلمين . . .

نعرفكم بأن المعلم «فلان» ـ من أعيان باب اللوق خارج بكره من خمس سنين «جدعنه» وعقبال عندكم يا حبايب . . .

ثم يتلو هذه العبارة تصفيق وضجيج لمدة طويلة . . . فالسجن على حد تعبيرهم «جدعنة» ، وضرب من الرجولة . . . .

وقد يكون هذا المفرج عنه لصاعريقاً ، وقد يكون قاتلا شريراً لا يوقر إنسانية ، ولا يرحم آدمية . . .

وقد يكون «نصابا» محترفا ، يحيا على الكذب والادعاء والرياء . .

وقد يكون محكوماً عليه فى قضية تزوير أو رشوة أو خيانة أو هتك عرض أو تبديد . . .

وقد يكون عدوا لدودا ، وخصما عنيدا يتربص بمجتمعه الدوائر . .

وقد يكون هذا أو ذاك ومع ذلك فهو ينضوى تحت لواء «الجدعنة» والرجولة وحق له أن يفخر بذلك ، ويشمخ بأنفه ، ويرفع هامته فى كبرياء وغرور ! ! !

---

(١) يقصد دور ١

ومع ذلك فمجتمع السجون يجعل منه بطلا ، ويعطيه صورة مشرفة

(ى) اللواط مباح :

وهذه ظاهرة أخرى من الظواهر الشاذة التى قد ينغمس فيها بعض نزلاء السجون ، وعلى الرغم من أنها مأساة قائمة ، وانحراف يثير الاشمئزاز ، وينبو عن الذوق ، إلا أنها قد تحدث فى بعض الأوساط ، وكأنها شىء عادى ... إن اتصال الرجل بالرجل جريمة مروعة . .

لا لأنه أمر يعافه الطبع السليم ، والسليقة البشرية السوية فحسب ؛ بل لمجافاته لخلقنا الدينى ، ووازعنا الخلقى نحن الأمم الشرقية المتدينة .

وكثيراً ما جر الاعتداء الجنسى فى أعقابه أحداثاً رهيبة ، وترك آثاراً عميقة الغور ، ولقد حدث فى العهد الماضى كثير من المؤامرات وجرائم القتل داخل السجون أو الليمانات ، بسبب الدفاع عن عرض مثلوم ، أو الانتقام لسمعة شائنة ، حدث ذلك فى ليمان طره ، وحدث أيضاً فى أبى زعبل ، والأغرب من ذلك أن بعض هذه الكوارث والمشاحنات قد تطرأ بسبب المنافسة الشاذة من أجل الحصول على تلك اللذة المحرمة .

كان هذا الأمر مزعجاً . .

ولم يكن أحد يستطيع الخوض فيه . .

وبعد عام ١٩٥٢ صدرت مجلة السجون لأول مرة ، وزحفت إلى صفحاتها الأقلام الصادقة لتناقش هذه القضية علانية ، ولم يقف الأمر عند الباحثين والمسئولين ، بل شاركهم فى البحث والمناقشة بعض النزلاء القادرين على الكتابة أيضاً . .

الحرمان الجنسى :

دلت الإحصائيات الرسمية على أن غالبية نزلاء السجون المصرية من الشباب ، وذوى الأعمار التى لا يصاب فيها النشاط الجنسى بالخمول أو الضعف . . إن مثل تلك السن تفيض بالطاقة والثورة والحمو ، والهرمونات الجنسية Sexual Hormones تقوم بعملها كالمعتاد ، والغدد المختلفة المخصصة لذلك لا تكف عن نشاطها الطبيعى Endocrine and other glands ، فلا مناص من أن تتحرك هذه الغريزة — غريزة الجنس — بعنف ، ويساعد على عنفها تلك العزلة فى السجن ، وما يلحق بها من أفكار وأحلام وأوهام [١].

ولاشك أن الوقوف أمام طوفان هذه الغريزة أمر صعب التحقيق ، لأن الكبت الجنسى — كما وضح ، فرويد العالم النفسانى المعروف — له آثاره الخطيرة البعيدة المدى على السلوك والأخلاق

(١) « ... ولهذا كان لاضطراب الحياة الجنسية الحاضرة وعدم إرواء الشهوة الجنسية وكبت ما يصاحبها من انفعالات شأن يذكر فى إحداث أعراض القلق الهستيرى .. » من كتاب علم النفس الجنائى علماً وعملا ..

والحالة النفسية بوجه عام ، كما أنه يكون مدعاة لتكوين العقد النفسية المختلفة . .

هذه حقائق علمية ثابتة ، بل إن فرويد قد غالى وقرر أن كل تصرفات الإنسان فى الحياة إذا بحثت وراءها ، ودققت فى بواعثها تبين لك أن الغريزة الجنسية هى التى توجهها وتسيطر عليها سيطرة تامة .

لهذا فإن تجاهل هذه الحقائق : وصرف النظر عنها يجعل منا شبيهاً بالنعامة التى تخفى رأسها فى الرمال ، وهى تتوهم أن الصياد لن يراها مادامت هى لم تره ...

والسجون فى بلادنا قد أهملت هذه الحقائق ، أو بمعنى أصح لم تقدم لها العلاج الناجع واكتفت ببعض الإجراءات البسيطة التى لم تجد شيئاً كما سنرى ...

ويقرر الأطباء أن عدم قيام أى عضو بوظيفته المنوطة به ، مدعاة لضمور هذا العضو وضعفه ، لهذا يحدث للنزلاء الذين لايزاولون نشاطهم الجنسى لمدة طويلة مايسمى بـ Testicular Atrophv (ضمور الخصيتين) ، ولا شك أن الحكم على السجين بإضعاف نشاطه الجنسى ، وتعريضه لشتى الآلام والعقد النفسية أو توجيهه للانحراف والشذوذ الجنسى مسألة جديرة بالاعتبار والنظر والدراسة العميقة . .

فالحرمان الجنسى إذن هو أحد الأسباب الدافعة إلى مشكلة اللواط، تلك المشكلة العويصة الحرجة فى سجوننا المصرية وغيرها.

ولقد حاولت بعض البلدان الأوربية علاج هذه المشكلة الجنسية بطريقة تتفق مع تقاليدها وبيئتها ومفاهيمها الخاصة.

٢ — ضيق ذات اليد :

ومن الأمور التى تلفت نظر الباحث وهو يقوم ببحث مشكلة اللواط فى السجون، أن هناك سبباً خطيراً يدفع بعض النزلاء إلى الإقبال على هذا العمل المحرم، وأعنى بذلك الفقر، وضيق ذات اليد. فهناك بعض الفتيان الذين يأتون إلى السجن، وإذا بحثت عن أماناتهم المحفوظة لحسابهم داخل السجن لم تجد فيها مليما واحداً وهم يريدون أن ينفقوا .. أن يشتروا شيئاً من الطعام والملبس .. أن يدخنوا سيجاراً، وخاصة إذا كانوا من مدمنى التدخين، وحينما تلح عليهم الحاجة، وتلوح أمامهم صور الإغراء المختلفة . . . قد يسلمون فى شرفهم، ويخضعون لتأثير غيرهم من المجرمين، وقد تعجب عندما تسمع أن أحد هؤلاء الفتيان قد يبيع نفسه لمفترسه من أجل نصف سيجارة ... وآخر قد يستسلم كى يحصل على « فانلة » ليتقى بها ألم البرد ... و ... و... إلخ.

هذا هو أثر ضيق ذات اليد إزاء هذه المشكلة، وهناك سبب آخر قريب من هذا السبب الذى ذكرناه آنفاً، وأعنى به أن بعض

النزلاء الذين يهوون التعطل والراحة، ويفرون من الأعمال المضنية مثل قطع الحجر فى الجبل، لا يلجأون إلى اختلاق العاهات والأمراض حتى يتخلصوا من هذا العبء الثقيل، ولم يلجأون إلى تشويه أنفسهم، وتعريضها للخطر إذا كان هناك من يتعهد لهم بإنجاز أعمالهم أو استئجار من يقوم بإنجازها من النزلاء لهم ؟؟ والثمن فى هذه الحالة أيضاً معروف . . . فقد كان بعض نزلاء ليمان أبى زعبل وطره يقضون وطرهم، ويحققون مطامعهم الجنسية عن هذا الطريق العجيب، وكان ضحاياهم لا يستنكفون من ذلك، بل يمشون بين النزلاء فى بجاحة وعدم اكتراث، وقد ارتدوا ملابس السجن النظيفة « المقيفة » على حد تعبيرهم . . .

٣ — إمتلاء السجون وضيقها :

إن السجون المصرية حين انشائها كانت قد خصصت لعدد معين من النزلاء وروعى فى ذلك بعض النواحى الصحية والاجتماعية المختلفة، ولكن زيادة عدد المجرمين المطردة طبقاً لازدياد عدد السكان وما إلى ذلك قد تسبب فى استيعاب السجون لعدد أكبر كثيراً مما كان مقرراً لها فلا تعجب إذا رأيت أن الحجرة الكبيرة، التى لم تكن تتسع لأكثر من عشرة مسجونين قد ضمت حوالى اثنين وعشرين مسجونا، وإذا نظرت إليهم فى نومهم وجدتهم متلاصقين لا يكاد يفصلهم شىء، ولك أن تتصور مدى تأثير هذا الوضع من الناحية الصحية والخلقية . .

وهنا يجب أن نتذكر ماأوصت به السنن الإسلامية من أن الفصل بين الشباب فى المضاجع أمر واجب،ولم يفت هذه الشريعة السمحاء ما يحدث غالباً إذا ما اقتربت النار من المواد القابلة للاشتعال . . .

وقد يقول قائل: إن نظام الأسرة قد كفل لكل نزيل الانفصال التام فى نومه ، ونحب أن نؤكد أن مثل هذا النظام لم يطبق حتى الآن إلا فى سجن القاهرة وسجن آخر ومع هذا فالازدحام مازال موجوداً ، وشراء الأجساد البشرية هو هو . . .

وحيث يوجد الازدحام ، توجد المشاكل المعقدة ، والضيق النفسى ، والعدوى الخلقية ، وتفشى أوبئة الجريمة والانحراف، فى مثل هذه البيئة المظلمة العفنة تنمو بذور الرذيلة ، وتترعرع ، وتأتى بأسوأ الثمار . .

لقد حكمنا على المسجون بالسجن والعزل عن المجتمع حتى يرتدع ويزدجر ، وتصح أفهامه ونظراته للحياة ، ولم نلق به وراء الأسوار كى نضيف إليه شذوذاً فوق شذوذ ،وأمراضاً إلى أمراض، لأن هذا سيكون جريمة فى حق هذا المريض . . .

٤ — الجهل والاستخفاف :

قلت للمسجون ع . المجنون

— «أصحيح أن لك رفيقاً ؟ ؟

فقال :

— « السجن كله بلاوى »

قلت له :

— « أتعرف عقوبة اللواط في الشريعة الاسلامية » ؟

فقال : « طبعاً » .

قلت « ما هى ؟ »

قال : « اللواط حرام »

قلت : « أنا أعلم أنه حرام ، وحرمته ليست هى العقاب »

فقال : « إذن الواحد يدخل النار »

قلت : « أقصد العقوبة الدنيوية . . . هل تعرفها ؟ ؟ »

فسكت ولم يجب . .

فقلت له : « أتعلم أن حد اللواط فى الشريعة الإسلامية هو القتل »

فقال : يا خبر اسود . . . القتل حتة واحدة ؟ ؟

ومع ذلك فقد ضحك « ع ». المجنون وقال : « ربك غفور رحيم . . إمال بس نعمل إيه . . ؟ ؟ »

* * *

إن هذا الحوار الهام الذى دار بينه و بينى ليكشف لنا عن مدى ما يملأ ذهنه من جهل مطبق ، وأوهام كثيرة ، كما يظهر لنا استخفافه بجريمته وعدم اكتراثه لها ، لأن حكم العادة وطول الممارسة قد أعطاها

صورة خاصة، صورة العادة، لدرجة أن بعضهم يرتكب هذا الشذوذ الغريب علانية، أو وسط مجموعة قد تصل إلى خمسة عشر نزيلاً، دون خجل أو تأنيب ضمير.

ذات مساء سمع صوت أحد الفتيان يقول:

– « الحقني ياشاويش . . . ياغفر الليل . . . ياسعادة البيه المأمور . . »

وأخذ يصرخ ويستغيث، بينما من معه في الزنزانة أخذوا يقهقهون ويضحكون ويتبادلون النكات والتعليقات الخارجة والتي تنبو عن الذوق والخلق، وأخيراً وضح الأمر . . . إن هذا الشاب دايراه جديد، وقد أوقعه سوء حظه – بعد أن أمضى أيامه الاولى – وسط مجموعة لاتعترف إلا بقيمها الخاطئة الشائنة، وتأتى المنكر وهي في بساطة وهدوء مثيرين، دون أن تتأثر بصياح أو استغاثة.

إنهم يفرضون على النزيل الجديد ضريبة مخيفة، ومن نوع عجيب . .

٥ – التهديد والتخويف:

رأيت المسجون « ح . . » ذات مرة، وهو يقبض على عنق أحد

الفتيان المسجونين فى غلظة ، ويكيل له الصفعات واللكمات والركلات فى عنف وقسوة وهو يقول :

— « بقى رايح تقول للشاويش يا ابن الـ ... ؟؟ »

— « فى عرضك .. مش هعملها تانى .. خلاص .. »

— « لا بد من قطع رقبتك .. »

واستطاع بعض النزلاء أخيراً أن يستخلصوه من يده بعد توسلات ورجاءات ، ولقد تبين لى أخيراً أن هذا الفتى ضحية من الضحايا الكثيرة التى يجنى عليها السجن ذلك المجتمع المريض .. فلقد جاء هذا الفتى إلى السجن لأول مرة لقضاء شهرين حكم عليه بهما ، فتقرر تعيينه « نوبتجى » لمسح الأرض وتنظيف دورة المياه بين هؤلاء المجرمين ، ولست أدري كيف خولفت لوائح السجن فى التسكين ، فسمح له بالسكن مع هؤلاء رغم فارق السن .. ولم تفت هذه المخالفة القائمقام ياسين الرفاعى فى تقريره الذى كتبه عام ١٩٥٥ — وياسين الرفاعى من كبار الدارسين للجريمة والعقاب وما يتصل بهما — لقد قال [١] : « فالسجون المصرية ليس فيها أى تنويع أو تخصص ، فكل سجن يجمع أنواعاً متناقضة من المسجونين مجرمين عاديين ومجرمين خطرين ، شباناً وبالغين ، قابلين للإصلاح وغير قابلين للإصلاح ، مرتكبى الجريمة للمرة الأولى وذوى السوابق

(١) ص ٢ من التقرير الخاص ببعثة السجون المصرية لأمريكا وويلز

ذوى الأحكام الطويلة ، وذوى الأحكام القصيرة ، محكوما عليهم وتحت التحقيق ، معتادى الهروب ومن لا يفكرون فيه ، أذكياء وبلهاء ، متعلمين وأميين ، ذوى الاضطرابات النفسية والعقلية ، وذوى النفوس والعقول السليمة.. ذوو الأمراض العضوية والعاهات والأصحاء ، والمدمنين على المخدرات والمسكرات .... الخ ،

نعود لذلك الفتى .. لقد خضع لتهديد « ح .. » ، ولم يستطع أن يتحمل ضرباته وإنذاره بالموت إذا هو لم يستجب لنزواته .. وفعلا لم يخرج هذا الفتى من السجن إلا مسلوب الشرف، ناقص الرجولة ، من جراء «ح» وغلظته ، وملامح وجهه التى تزرع الخوف فى قلب من يراه ..

٦ — ضعف الرقابة :

ولا شك أن السجن على صورته الراهنة ، وتضاعف عدد نزلائه رغم ضيق المكان ، وبقاء المسجونين مدة طويلة قد تربو على ١٥ ساعة في اليوم أغلبها أثناء الليل داخل الزنزانة ، كل ذلك يجعل الرقابة الدقيقة على تصرفات سجونين وفعالهم غير ممكنة عملياً ..

وهؤلاء النزلاء قوم غير طبيعيين فى أغلب الأحيان ، ويحتاجون إلى مزيد من المراقبة والدقة ، فإذا ما انعدم كل ذلك أو كان بدرجة أقل ، تركت الفرصة لهم كى يعبثوا ويتمادوا فى عبثهم وخسرانهم لكن والحق يقال يبدو أن الرقابة وحدها لو تحققت لن تجدى كثيراً

في حل هذا الإشكال ، فلا ينقص أمثال هؤلاء النزلاء الحيلة والتدبير كي يصلوا إلى ما يريدون ، ولا بد أن يوجد بجانب الرقابة أشياء أخرى سوف نتحدث عنها فيما بعد ، ونعنى بها إيجاد الوازع الشخصى وإيقاظ الضمائر من غفلتها وجعلها رقيباً آخر أهم وأجدى من رقابة المشرفين على السجن .. وقد يقول قائل أن الرقابة غير ممكنة عملياً ، وخاصة على الصورة التى نراها ونؤمن بها ، لكن يجب أن يعلم الجميع أن الغرض من السجن ليس هو العقاب ، وترك المسجون فريسة للانحلال الخلقى ، والانهيار المعنوى وإلا لما كان هناك داع للاهتمام بصحته وأخلاقه ، وذلك بإيجاد أطباء ووعاظ من أجله.. فالسجن كعقاب يهدف من ورائه إلى الزجر وإلى الإصلاح أيضاً ، فإذا ما اقتصر على العقاب فقط ، ولم يحدث للمسجون أدنى إصلاح أو تقدم ، فالعقاب فاشل ، والمجتمع لن يجنى من وراء ذلك العقاب العديم الجدوى أية فائدة ...

٧ — التشرد :

إن حياة التشرد ، وجمع أعقاب لفائف التبغ ، واتخاذ الأرصفة والخرائب مسكناً ومأوى ، والعيش على الخطف والنشل ، كل ذلك أوجد طائفة من الغلمان يعيشون عيشة الضعة والهوان ، عيشة لا تعرف غير الخلق الشاذ ، والقيم المعوجة ، والمعايير المختلة المضطربة ، وهؤلاء المشردون إذا ما دخلوا السجن — ولا بد أن

يدخلوه يوما ما — كانت عندهم « الكفاءة والاستعداد » اللازمين لكى ينغمسوا فى حياة الإثم والشذوذ الجنسى ، فقد جربوها فى الخارج حيث الخرائب والأماكن المهجورة وهم أطفال ، ثم بعد ذلك وهم غلمان يافعون .

ولا شك أن العادات التى تكتسب فى الصغر ترسخ فى الذهن وتتمكن من النفس أشد التمكن ، لأنها فترة تسودّ فيها الصحيفة البيضاء صحيفة الطفولة البريئة الساذجة الطاهرة .

وستكون حياتهم فى السجن امتدادا واستطراداً لحياتهم فى خارجه من قبل ، وسيزدادون بمرور الأيام إثماً وشذوذا . وما زلت أذكر هؤلاء الغلمان الذين هم فى عمر الزهور ، وهم يتشبثون بقضبان النوافذ الحديدية ، وينظرون إلى المارة فى فناء السجن ويقولون فى ضراعة واستماتة :

— « عود كبريت والنبى يا بيه »

— « عقب سيجارة ربنا يخليك »

— « إدينى نفس دخان ينوبك ثواب »

قد يعطيهم أحد المارة ما يشاءون ، لكن غيره قطعاً سوف يستغل هؤلاء الفتية أبشع استغلال ، ولن يعطيهم عود الكبريت أو نفس الدخان أو لقمة العيش إذا ما جاعوا ، إلا إذا دفعوا الثمن غالياً من كرامتهم ورجولتهم ومستقبلهم الغامض الحالك ..

لحياة التشرد سبب من الأسباب التى تدفع إلى الجرائم الجنسية وغيرها ..

٨ — الشذوذ الفسيولوجى :

وهناك نوع من الشذوذ الجنسى ، ينتج عن اضطراب فى الوظائف العضوية Physiolagical Functions ، وارتباك في عمل الغدد المختصة بإفراز الهرمونات الجنسية ، أو زيادة الحساسية فى مكان معين ، أو الإصابة بنوع معين من الطفيليات (دودة الأكزيورس ، وهو طفيلى فى حجم دودة المش تقريباً ، وصعب العلاج ، وذلك لسرعة العدوى وتشعبها ودقتها[1]) ، وهذه الطفيليات تحدث نوعاً من التهيج فى منطقة الشرج ، وقد يكون هذا التهيج نواة للشذوذ الجنسى ...

هذا النوع من الشذوذ الجنسى لا يقتصر على مجتمع السجون وحده ، بل يمتد إلى ما عداه ، لأنه كما ترى بعيد كل البعد عن أثر السجون وما تتركه من تحول فى الخلق والسلوك ... لكن يجب ألا ننسى أن مرضاً مثل الأكزيورس من السهل انتشار عدواه بين النزلاء ، وهذه نقطة جديرة بالاعتبار ، وخاصة لأولئك المشرفين على نظام الصحة الوقائية داخل السجون .

(١) مذكرات الباراسيتولوجى للدكتور خليل .

ومثل هاتيك الأمراض — التى تتعلق بالغدد والوظائف الفسيولوجية — معترف بها علمياً ، ولها مباحثها المفصلة ، ونظم العلاج الخاصة بها .

٩ — عدم إيجاد حل :

ومن المعروف أنه إذا عرضت لنا مشكلة من المشاكل ، ووقفنا إزاءها حائرين ، وجبنا عن اتخاذ العلاج الحاسم السريع . فإن مثل هذه المشكلة ولاشك ستزداد استعصاءاً . وستتشعب وتصبح كالسرطان — ذلك الورم الخبيث الذى ينطلق بجنون بين خلايا الجسم ، ويدمر هنا ، ويحطم هناك ، ولا يترك الجسم إلا شلواً ممزقاً ، إلى الموت أقرب منه إلى الحياة — هذا ما حدث بالنسبة للمشكلة الجنسية فى السجون عندنا . .

لقد وقفنا إزاءها حائرين لا نعرف أين نتجه ، فبعضهم أوصى بالرياضة البدنية ، وبعضهم أوصى بالقراءة والاطلاع[١] إلى جانب الأعمال المختلفة التى يزاولها المسجون ، وبعضهم أوصى بتقوية الناحية الدينية ، والوازع الخلقى فى نفوس النزلاء . . .

وهكذا لم نجد سياسة ثابتة قوية الدعائم ، نستطيع أن نعتبرها حلا موفقاً لهذه الكارثة . . .

---

(١) يقصد من وراء ذلك التسامى أو التصعيد الغريزى « Sublimation

إن عدم وجود حل موفق لهذه المشكلة ،صار سبباً من أسباب تفاقمها وتطورها في خط غير مرض . . .

وسنتناول فيما بعد الآراء الخاصة بهذه المشكلة بالنقد والتحليل.

* * *

هذا ما استطعنا تسجيله في هذه العجالة الخاطفة بشأن المشكلة الجنسية — مشكلة اللواط — في السجون ، تلك التي ينظر إليها المجرمون نظرتهم لشيء طبيعي لا غرابة فيه ولا خروج على المألوف.

ومن الانصاف أن أسجل أن في مجتمع السجون رغم هذا فئة من الناس تحافظ على كرامتها ، وتستبشع مثل هذه الأفعال، إن أصحاب هذه الفئة يقضون فترة السجن المحكوم عليهم بها في طاعة وندم وتبتل إلى الله ، يستجدونه الغفران ، ويسفحون بين يديه عبرات الندم والتوبة ، ومنهم من ينشيء طرقاً صوفية داخل السجن ، ويجمع حوله اتباعاً ومريدين . . . مثل هذا الصنف من النزلاء لا نستطيع أن نهضمه حقه ، لأن الواقع الحي والامانة العلمية تقتضينا ذلك ، حتى نكون على بينة من حقيقة الأمر ، فيلاقيه الدارسون بالعلاج والحل الموفق

— (٥) « الخبص » رذيلة :

ومن القيم التي يؤمن بها النزلاء ، ويحلونها منزلة عالية في

معتقداتهم هى أن « الخبص » رذيلة ممقوتة تستوجب الاحتقار . .

« والخبص » اصطلاح يشير به النزلاء إلى أولئك النفر منهم الذين ينقلون أسرار إخوانهم إلى الإدارة ، ويكشفون عن نواياهم وتدبيراتهم فى السجن . . . وما أكثر هذه التدبيرات .

وقد درج بعض الإداريين على بث العيون ، واصطناع الجواسيس بين النزلاء ، حتى يوافوهم أولا بأول بأخبار النزلاء ، كى يكونوا على بينة من أمرهم . . ولا يعدم الإداريون أن يجدوا من يقوم لهم بمثل هذا الدور الهام بين النزلاء .

وأغلب الضبطيات الهامة التى تحدث فى السجن تتم عن هذا الطريق ، ففى كل سجن تجار للممنوعات ، وتجار المخدرات خاصة ، وهؤلاء يصطنعون كل وسائل الحيطة والحذر حتى لا تنكشف أمورهم ، وحتى لا يهتك الستر عن تجاراتهم الخطيرة ، ولهذا فهم يدارون هذا وذاك ، ويرشون فلان وعلان ممن يخشى بأسهم من النزلاء المقربين لدى الإدارة . . . ومع ذلك فلا يعدم الأمر أن يتطوع بعض « الخباصين » — كما يسمونهم — ويهمس فى أذن الضابط المسئول ، مفشياً أسرار زميله التاجر ، حتى يكتسب ثقته . ويحظى بعطفه . . وقد يكون الدافع إلى ذلك مجرد الحسد والغيرة ، لأن ذلك التاجر قد يكسب مكاسب خيالية ، وربما يكون الدافع هو الانتقام الشخصى لسوء تفاهم أو شجار حدث بين الطرفين

وقد يكون بمجرد شهوة فى إفشاء أسرار النزلاء دون أن يجنى فائدة تذكر من وراء ذلك ، ومثل هذا النوع الأخير من النزلاء يوصف بينهم بالحطة والنذالة وعدم الرجولة . . وهناك اعتقاد بين النزلاء بأن رذيلة « للخبص » شبه منعدمة أو نادرة الحدوث فى ليمان طره، ويعزون ذلك إلى أن صنف النزلاء هناك من ذوى الأحكام الكبيرة ، وأن الجرائم التى حوكموا من أجلها ليس فيها ما يشين — كما يزعمون — لأنها جرائم ثأر ، أو يتعلق أغلبها بالشرف عن السمعة وكرامة الأسرة ، ولهذا يعتقدون أن السجون المركزية والسجون التى فيها معتادو الإجرام حيث يوجد النشالون ولصوص السطو ، وهتك العرض والرشوة والتزوير وما إلى ذلك . . يعتقدون أن مثل هذه السجون مملوءة « بالخباصين » .

ويعتبر أيضاً من زمرة الخباصين كل من يؤدى شهادة — ولو صادقة — يكون نتيجتها توقيع العقوبة أو الاضرار بنزيل من النزلاء .

ولا شك أن تلك النظرة التى ينظرها النزلاء إلى فريق الخباصين ناشئة عن العقيدة التى ألمحنا عنها من قبل حينما قلنا أن الإداريين والنزلاء يؤلفان جبهتين منفصلتين ، أو معسكرين متضادين ، فلا وجود إذن لشعور الألفة والثقة والتواد بين الاثنين ، لهذا فإن كل من يتطوع بالدس للنزلاء عند رؤسائهم ، أو يكشف عن بعض خططهم وألاعيبهم يعتبر مارقا خارجاً على مبادىء الرجولة

والشهامة ذات الطابع الخاص الذى يرضيهم ، وكثيراً ماتسببه « الخبص » فى الصدام بين النزلاء أنفسهم ، وكثيرا ما أدى إلى جرائم مروّعة راح ضحيتها أفراد مساكين .

ويلاحظ أن الخباصين — كما تبين لى فعلا — لايتحرون الدقة فيما ينقلون من أخبار ، وما يفشون من أسرار ، فبعضهم يعمد إلى المبالغة والتهويل والكذب الصريح ، فتسوء العلاقات بين النزلاء والإدارة لدرجة قد تكون خطيرة ، وقد تؤدى إلى إلصاق بعض التهم بقوم أبرياء فيضطهدون أو يجلدون بلا جريرة ..

ودور الخباصين لا يقف عند مهمة نقل أسرار النزلاء للإدارة ، بل يتعدى ذلك إلى الدس بين النزلاء أنفسهم ، فيعمد ذوو الميول الشاذة ، والنفوس الشريرة إلى الوقيعة بين فئات النزلاء ، فينقسم مجموعهم إلى طوائف متناحرة ، وتشب بينهم الأحقاد والعداوات التى تجد تربة خصبة ، وجوا مناسبا فى هذه النفوس العليلة السريعة التأثر . .

والعجيب أن مثل هؤلاء الخباصين لا يخفون على النزلاء فمعظمهم معروف أمره ، مكشوفة تحركاته لزملائه ، ونظرات السخرية والازدراء والتقريع تلاحقهم أينما ساروا وحيثما حلوا ، وهذا الاحتقار أو الازدراء لا يزيدهم إلا استمساكا بخطتهم وإمعانا فى « خبصهم » ذلك الذى يصبح عادة محببة لديهم ..

روى لى أحد النزلاء أن سجينا ضاق ذرعاً بقسوة ضابط الجبل وإرهاقه لهم ، ولهذا صرح بين زملائه أنه سوف يحطم جمجمة هذا الضابط بأية طريقة فى الوقت المناسب حتى يستريح منه ومن طغيانه ، وفى اليوم التالى كان ذلك الضابط يرمق السجين بنظرات نارية حانقة ، ولم ينته الاسبوع إلا وكان هذا النزيل قد لصقت به تهمة ، وكتب له محضر ، وجلد على « العروسة » — آلة خشبية يربط فيها المسجون عند الجلد — جلدا مبرحا ...

ويؤكد لى راوى هذه القصة أن السجين ربما تهدد الضابط وتوعده فى خفية عنه وبين زملائه ليرضى غرورا فى نفسه أو تفريجاً عن همومه وآلامه ، ولم يكن التهديد إلا مجرد كلام يقال .. لكن الأمر تطور إلى مثل تلك الصورة . . والأغرب من ذلك أن أحد شباب الصعيد حكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات فى ليمان أبى زعبل ، وقد حاول أحد النزلاء القدامى الاعتداء عليه اعتداء جنسيا،ولكنه رفض، وعرف كثير من النزلاء هذه القصة. وتشاء الظروف أن يأتى خال هذا الشاب إلى ليمان أبى زعبل محكوما عليه فى الأيام الأخيرة لسجن ابن اخته ،فسارع إليه ذلك النزيل القديم — الذى حاول العدوان على الشاب من قبل — وأوهم خال الفتى أن ابن أخته سيء السير والسلوك ، وأنه ارتكب كثيراً من الفضائح التى لا يجهلها أحد فى الليمان ... فثار الخال وهاج وماج ...

وحينما خرج الفتى فى الإفراج ، لم يرتح بال خاله إلا بعد أن أوصى أحد أفراد العائلة بقتل ابن أخته ذلك الشاب العاق الفاجر . . وفعلا تمت الجريمة . . . وعندما بلغ أنباؤها أسماع من فى ليمان أبى زعبل أدركوا فى الحال أن الفتى القتيل مظلوم ، وأن الذنب يقع على ذلك « الخباص » الكاذب ، الذى أراد أن ينجى نفسه ، ويلصق التهمة بالفتى البرىء الذى راح ظلماً وعدواناً . . .

وفعلا أبلغوا خال الفتى الحقيقة ، وأفهموه المؤامرة الخبيثة ، ولم ينفض مجلسهم إلا بعد أن قرروا قتل ذلك « الخباص » الذى اختلق القصة اختلاقاً ، وقلب الحقائق قلباً ، ولم تمر غير أيام قلائل إلا وكان ذلك النزيل الخباص فى عداد الموتى ، وحكم فى هذه القضية على الخال حكما إضافياً من داخل الليمان . . .

وحوادث الخباصين فى السجون كثيرة يكاد يخطئها الحصر ، ولقد ضربنا لك بعضها على سبيل المثال .

(هـ) الثأر شهامة عربية :

وهذه القاعدة — أو الشعار المقدس لديهم — تبدو واضحة جلية فى سجون الصعيد المركزية التى قمت بزيارتها ، وفى الليمانات بصورة آكد وأوضح ، ولم تستطع عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة وغير المؤبدة أن تغير من هذه العقيدة . . . وبالرغم من الدماء التى تراق والأموال التى تنفق على القضايا ، والبيوت التى ينعق فيها البوم

بعد أن يذهب ذووها إلى السجن أو القبر ، بالرغم من كل هذا فإن تلك العقيدة مازالت تسيطر على النفوس، وتمسك بتلابيبها . .

لقد روى لى النزيل (ع . م) كيف أن شجاراً عنيفاً حدث بين أسرته وأسرة أخرى فى أحد مراكز مديرية أسيوط من أجل خمسة وعشرين قرشاً ثمناً لمساحة صغيرة من البرسيم ، وراح ضحية هذا الصراع سبعة أفراد قتلى ، وأخبرنى (ع . م) أن أعمامه الثلاثة فى الليمان ، وعمه الرابع معه فى سجن أسيوط ، وروى لى أن أعمامه فى الليمان أرسلوا إليه خطاباً سرياً وقالوا له فيه :

« لابد من قتل فلان » قبل العيد . . . وقد كان . .

إنهم داخل السجون يقاسون الآلام والأهوال والحرمان ، ويقضون أيامهم فى قطع الأحجار ، ومع ذلك فهم يفكرون فى الثأر ، ويرسمون له الخطط ، ويقضون لياليهم الكئيبة يحلمون بالانتقام المروع . . . وإذا ما سألت أحدهم عن جريمته شمخ بأنفه ، وبرم شاربه ، وقال فى عنجهية وكبرياء وفخر :

« جريمتى قتل » .

إن أمثال هؤلاء لا ينظرون إلى جريمة القتل إلا فى ضوء التقاليد البالية العفنة ، وعلى هدى العرف الجارى الذى خلفه لهم الآباء والأجداد وياله من ميراث ثقيل مقيت يتلقونه هم فى تقديس وإكبار وإعزاز .

ولقد يرى الواحد منهم — إذا ما قتل قريبه — أن من العار الذى ما بعده عار أن يبلغ رجال الأمن عن تلك الجريمة ، وتأنف نفسه أن يتهم إنساناً ، فيعمد إلى التدبير فى الظلام حتى يأخذ بثأره بنفسه ، ومثل هذا الإنسان لا يعرف شيئاً اسمه القانون ، ولا شيئاً اسمه الدولة التى تحميه وتسهر على راحته .. إن التقاليد قد وضعت حجاباً كثيفاً على عينيه . فعمى عن رؤية الحقيقة .

وماذا تقول فى ذلك الجامعى ذى التعليم العالى الذى سارع بالثأر من قاتل أبيه ، ولم يستطع الإفلات من ضغط أقربائه ، ونظرات أهل بلده التى تسخر منه ، والتقاليد التى تمسك بخناقه . . ؟

لقد قامت معركة فى نفس هذا الشاب بين العلم والتقاليد فانتصرت الثانية . . .

والدارس لموال « الأدهم » الشرقاوى الذى يبدأ بهذه الفقرة :

« منين أجيب ناس لمناة الكلام يتلوه »

يجد وراء كل عبارة من عباراته التغنى بالثأر وجريمته ، والفخر بها ، والتضحية بالمستقبل والحياة فى سبيل ذلك ، ومعاداة الحكومة من أجل الحفاظ على هذا التقليد . .

وقد تجد فى أولئك القاتلين شيئاً غير قليل من الدماثة والرجولة فعلاً ، وخاصة عندما تتعامل معهم ، فيتبين لـــك

نقاء معدنهم ، وصفاء فطرتهم ، والنزعة الإنسانية التى تكمن فى أعماق روحهم رغم افتخارهم بأنهم قتلة وسفاكون ، لاعتقادهم أن الثأر واجب مفروض ، لا يستطيعون الحياة إلا إذا تخففوا من عبئه ، لهذا فهم يعتبرون ذلك الواجب أثقل من الأغلال والقيود التى تحيط بسيقانهم ، وأقسى من ظلمات السجون ورهبتها...والذى يستمع للفقرات التالية من موال الأدهم الشرقاوى التى يوجهها لغريمه قبل مقتله يؤمن معنا بما تراه ... يقول الأدهم :

« إن كنت عطشان من كوز الزلال أسقيك »

« وإن كنت جوعان من لحم كتافى أغديك »

« وإن كنت عريان من حرير سندسى أكسيك »

إن النخوة والرجولة والكرم لا تفارقه حتى فى الساعات الحرجة التى يغلى رأسه فيها بالحقد ، وتفيض نفسه بالنقمة ، ويملأ قلبه بالرغبة الجامحة ... رغبة الانتقام والأخذ بالثأر ..

ومع ذلك فهناك فئة أخرى يعميها الانتقام عن مراعاة مثل هذه الأخلاق الكريمة ، فتملك عليها شهوة الثأر كل سبيل ، وتشوه فيها كل معنى فاضل كريم ..

لكن هل كل مرتكب لجريمة القتل يفتخر بجريمته ويتغنى بها ؟؟.

إن هذا لا يحدث دائماً ، وإليك الدليل . .

كان النزيل « م . ع » يتغنى بملحمة مشهورة يعدد فيها حوادث « الخط » المجرم المعروف ، ويصف فيها المؤامرة التى دبرت للايقاع به ، وكان ذلك السجين — وهو حسن الصوت — يرفع عقيرته فى الليل داخل الزنزانة وخاصة إذا ماوصل إلى المقاطع التى تشير إلى بطولة « الخط » وإرغامه الأغنياء وذوى الجاه والألقاب على دفع إتاوات يحددها هو . .

وفى إحدى الليالى بينما كان هذا « السجين » يتغنى بذلك الموال، ويرفع عقيرته كالمعتاد صاح فيه النزيل المجاور له .. قائلا.

— يا أخى بطّل بقى . . . بلا « خط » بلا زفت . . . كان ابن .. حرامى وخطّاف . . »

ودارت بينهما مشادة كلامية حادة ، وعندما انتهت سئل ذلك السجين الثائر عن تهمته فقال :

— « ضرب أفضى إلى موت ... خمس سنوات سجن »

— « إذن فأنت نادم على مااقترفت يداك ؟؟ »

— طبعاً . . والله ما كنت عاوزه يموت ... لكن نصيبه كده»

— « ألا تشعر بالفخر عندما تقول أنك قاتل .. »

— « ياعم صل بنا ع النبى ... ربنا يسامحنا . . مفيش أحسن

من الواحد اللى عايش فى حاله ، وواخد باله من عياله . . »

هذه هى آراؤه بالنسبة لإحساسه إزاء جريمته .

ومع ذلك فقد تعجب من ذلك العالم الأزهرى الأسيوطى الموطن ، الذى ذكر مندوب «آخر ساعة» [فى تحقيقه الصحفى عن الثأر] أنه سأله قائلا :

— «ماذا تعمل ياسى الشيخ إذا قتل إنسان ما أخاك ؟ ؟ »

فرد الشيخ على الفور :

— «أشرب من دمه» .

ورغم هذا الاضطراب والتأرجح فى الحكم على جريمة القتل عامة والأخذ بالثأر خاصة فإن غالبية المجرمين القاتلين يعتزون بجريمتهم ويعتبرونها ضرباً من البطولة والشهامة والواجب .

(ز) تعاطى المخدرات «فهلوة» ورجولة :

ومن القيم المختلة التى يعتنقها بعض النزلاء اعتبارهم أن تعاطى المخدرات — وخاصة الحشيش — ضرباً من الرجولة والفهلوة . . ولعل ذلك راجع إلى الاعتقاد الشائع الخاطىء وهو أن الحشيش يقوى الناحية الجنسية ، ولاشك أن القوة الجنسية فى نظر الكثيرين هى معيار الرجولة الحقة ، والحيوية الفائقة ، كما يعتقد البعض أيضاً

أن تعاطى الحشيش يفتح الشهية ، ويقوى البنية ، فتظهر على الإنسان أعراض السمنة والصحة السليمة . .

ويظن المدمنون أن دنيا المخدرات دنيا جميلة مليئة بالأحلام والأوهام والسعادة ، ولذلك فدخولهم إلى هذه الدنيا « الجميلة » يعطيهم ميزة على غيرهم ، لأنهم طرقوا ناحية لم يطرقها سواهم ، وجربوا وسيلة لم يستطع الآخرون أن يقتربوا منها . .

ويزعمون أيضاً أن الحشيش — مثلا — مجلبة للسعادة والمرح ومدعاة لخلو البال والهروب من آلام الحياة وأحزانها ومشاكلها ، ولا يريد المدمنون أن يعترفوا أنهم بهذا — على فرض صحة ما يشيرون إليه — يعمدون إلى الهروب من الواقع ، ويفرون من معركة الحياة ، وما فيها من مسئوليات ومشاكل . .

والمدمنون يدفعون ثمناً غالياً ليشتروا به هذه الرجولة المزعومة ، هذا الثمن يدفعونه من صحتهم ومن حريتهم ، ومن سعادة أسرهم ومستقبل أبنائهم وأوطانهم .. لكنهم لا يريدون أيضاً أن يعترفوا بذلك . . فهم لا يعلمون أن النشاط الجنسى عند مدمنى المخدرات يفقد نهائياً إذا ما تقدم بهم العمر ، ولا تجدى آنذاك العلاجات المختلفة والعقاقير الكثيرة على العكس من أولئك الذين لا يتعاطون المخدرات . .

ولو علموا هذه الحقائق لما صدقوها لان الوهم قد تأصل فى

عقولهم والدعايات الكاذبة التي يروجها تجار المخدرات قد أفسدت تفكيرهم.

والمدمنون أيضا لا يعلمون أن تعاطى المورفين والأفيون ومشتقاته تؤدى فى النهاية إلى نوع معين من الجنون يطلق عليه الأطباء والباحثون : [Morphino - mania] ، لأنهم فى نشوة الإدمان، وفى غمار الاستسلام الكامل لهذه السموم ، ولا يكادون يجدون الوقت المناسب للحكم السليم على موقفهم الدقيق . .

وما أكثر الأقاصيص والأساطير التى تروى عن الملوك والوزراء فى الزمن القديم حينما كانت تتعقد المشاكل، ويقعون فى الورطات التى لا يجدون مخرجاً منها إلا إذا لجأوا إلى حشاش ضليع ، فيلقى إليهم بما يثلج صدورهم من حلول سليمة ... إن مثل هذه الأساطير كثيرة ، ولعلها تزيد على نوادر « جحا » وأبى نواس وندماء هارون الرشيد التى تمددها قصة ألف ليلة وليلة وغيرها . .

بل إن مثل هذه الأساطير كثيراً ما تضع الحشاشين فى منزلة يتغلبون بها على فقه الفقهاء ، وعلم العلماء . حتى لكأن الحشيش مادة سحرية تخلق من الجاهل عبقريا عالما بكل أسرار الحياة ودقائقها ، وفيلسوفا لا تغرب عن ذهنه شاردة ولا واردة .

وما دامت المخدرات لها هذا المفعول الساحر الموهوم بالنسبة للصحة والذهن والجنس والحالة المعنوية ، فهى تستحق إذن أن يتفنن المسجونون فى الحصول عليها ويلتمسون شتى الطرق والوسائل

كى ينالوها ، ويضحوا فى سبيلها بالكثير . . .

حدث في عام (١٩٥٨) أن سجان بوابة سجن القاهرة أثناء تفتيشه « للغذاء الملكى » المرسل لأحد المحجوزين فى السجن تحت التحقيق وجد كمية من المخدرات مدسوسة فى الأرز .

وضبط أيضا أحد السجانين فى ليان طره ، وهو يحمل كمية من الحشيش لتوصيلها إلى بعض النزلاء ..

وكثير من النزلاء العائدين من المحاكم ، أو الراجعين إلى السجن بعد إتمام علاجهم فى المستشفيات الخارجية ، يلجأون إلى طريقة « اللبوس » التى أشرنا إليها آنفاً ..

ومن المألوف أن يتقدم أحد النزلاء — الذين لا يرغبون في مغادرة السجن ويتهربون من الإفراج — إلى الضابط بقطعة من المخدرات ويطلب منه استدعاء النيابة للتحقيق حتى « يحظى » بحكم جديد يطيل أيامه فى السجن مدة أخرى ..

* * *

فباسم الرجولة يتلهف بعض النزلاء على تعاطى المخدرات . . .
وباسم الرجولة أيضا تروج تجارة السموم المخدرة خلف الاسوار . . .

وباسم الرجولة يركب النزلاء — ومن يعاونهم — الأخطار

الجسيمة كى يحصلوا على هذه البضاعة و يستمتعوا بها . .

وباسم الرجولة تنتقل عدوى المخدرات من نزيل إلى نزيل فيأتى إلى السجن بجريمة واحدة ، ويخرج منه وهو على استعداد لأن يعود بجريمتين جديدتين إذا لم يفلت عن رقابة القانون . . .

لهذا لا تعجب إذا سمعت أحد النزلاء بسجن القناطر الخيرية وهو يترنم بأغنية طويلة من الحشاشين يقول فيها :

« الحشاشين . . . مالهم »
« دول طيبين . . . مالهم »
« الحظ كله . . . فى مجالهم » . . . الخ

ولا تعجب أيضا إذا قلت لك أن مدمنى الخمر أيضا يلجأون إلى طرق غريبة لإطفاء ظمأهم إليها ، فينقعون الخبز فى الماء لمدة طويلة ، ويجرون عليه بعض العمليات الخاصة التى تؤدى إلى تخمره ، وقد يضيفون إليه بعض المواد الأخرى . . . وقد يستعملون العسل الأسود أيضا . . . المهم . . أنهم يحصلون على مايشاءون من مواد مسكرة بطريقة أو بأخرى ، والحاجة تفتق الحيلة . . .

وقد تجد النزيل منهم لا يكترث بملبسه أو مأكله ، ولا يهتم بصحته أو مرضه ، لكنه يحشد كل إمكانياته وحيله للحصول على مايريد من « الكيف » الذى يستعبده .

(ح) العصبيات واجب مفروض :

إن السجن — على أى صورة كانت — لا يشعر الإنسان فيه بالطمأنينة التامة ، لذلك يحس النزيل أنه غريب . . منعزل . . وأنه فى حاجة إلى من يقف بجواره ، ويأخذ بيده ، ويواسيه إذا ألمت به كارثة ، أو حلت به مصيبة، لهذا لم أعجب عندما أخبرنى « ع . ح » وهو محكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة — أنه فى إحدى زياراته علم أن أخاه مات ، فقال لهم بكل بساطة ودون أن تدمع عيناه :

« الله يرحمه »

ثم حول مجرى الحديث إلى جهة أخرى ، وعندما عتبت عليه لعدم التأثر وعدم البكاء من أجل أخيه قال : « إن زملائى فى السجن هم فى مقام أهلى وزوجتى وأولادى .. إذا مرضت فلن يحنو على أحد غيرهم ، وإذا أردت أن أشرب فهم الذين سيسقوننى » .

مثل هذا الشعور الذى عبر عنه ذلك الرجل هو الذى يجعل المسجونين يندفعون دفعا إلى الارتباط رغم ما قد يشوب هذا الارتباط من عوج وأخطاء فى كثير من الأحيان ، وهذا الارتباط يتخذ صوراً متعددة حسب الظروف والملابسات والمكان . .

فمثلا فى الليمان . وهو يشمل نزلاء من شتى أنحاء البلاد — وكذلك فى إصلاحية الرجال من قبل ، كان هذا الارتباط يتخذ صورة العصبية العنيفة ، فهنا رابطة أبناء وجه قبلى « الصعايدة » ،

وهناك رابطة أبناء وجه بحرى « البحاروة » . . .

وقد يكون نطاق الارتباط أضيق من ذلك ، فيكون أبناء كل مديرية وحدة واحدة لاتنفصم عراها ، فهؤلاء « الأسايطة » ثم « السوهاجية » ، وأولئك « أبناء المنوفية » أو « الشراقوة » أو « أبناء الغربية » . وفى السجون « المركزية » قد ينكمش حيز هذا الارتباط فيصير فى حدود « المركز » فقط » ، وقد يكبر قليلا — كما فى سجن أسيوط ، الذى يشمل بعض السوهاجيين ، لكن الغالبية من « الأسايطة » . .

نقول إن كل مسجون يتعصب تعصباً أعمى الرابطة التى ينتمى إليها ، ويطلقون على كل من فى رابطتهم « بلديات » أو « أبو البلديات » . ولاشك أن حالة الغربة والشعور بالنقص والضعف والإشفاق من المصير المجهول الذى ينطمر فى طيات المستقبل ، كل ذلك يدفعهم إلى الاستمساك بهذه العصبية — سواء فى حدودها الضيقة أو الواسعة — فيهبون لنجدة بعضهم البعض ، ويعتبرون التوانى أو التراخى عن تقديم المعونة خنوعاً وقصوراً وتخنثاً لا يليق بالرجال . وتظهر هذه الصورة فى أقوى وأكمل تعبير فى أبناء الصعيد خاصة ..ويستطيع المعمرون فى الليمان وفى إصلاحية الرجال القديمة أن يرووا لك عن اشتباك الصعايدة مع البحاروة فى عام كذا من أجل كذا ويعددون لك الضحايا وألوان البطولات التى ظهرت فى تلك المعركة ، ثم معركة السوهاجية مع الاسايطة فى سجن أسيوط بورشة النسيج وتغلب السوهاجية رغم قلة عددهم لبراعتهم فى

استعمال « العصا » ، فهم خير من يجيد اللعب بها . .

ونصرة النزيل لبلدياته غير مشروطة بشرط ، فليس من الضرورى أن يكون صاحبه ذا حق ، وليس من الضرورى أن يكون مظلوماً فينصفه ، لكنه يعاونه فى كلتا الحالتين ظالماً أو مظلوماً ، تماما كما كان يفعل العرب فى جاهليتهم . .

والارتباط فى أضيق مجالاته — أعنى الصداقات الشخصية الفردية — له هو الآخر عصبيته العنيفة التى لا يكاد يخلو منها سجن واحد . .

وهناك عصبية من لون خاص في السجون .. إنها عصبية المبدأ السياسي بالنسبة للمحكوم عليهم في جرائم ضد أمن الدولة، فهؤلاء — إذا ما وجدوا معاً — يعيشون في تكتل متميز لا دخل له « بالبلديات » أو الصداقات الخاصة ، بل يعتمد ويرتكز على العقيدة السياسة التي يؤمنون بها ..

هذا ويلاحظ أن لائحة السجون لا تبيح أى لون من ألوان التجمع أو الارتباط أو المطالب الجماعية ، لأن فى ذلك تهديدا خطيراً لإدارة السجن ونظامه وأمنه الداخلى ، لهذا فالعقوبة على حركات التمرد الجماعية عقوبة شديدة قاسية ، قد حددتها اللائحة ووضعت لها الاعتبارات والقيود الملائمة . . .

ومع ذلك فتلك الألوان المختلفة من التعصب مازال لها أثرها

القوى ، والإداريون لايتوجسون شرا من مثل هذه العصبيات مادامت بريئة ولا تتعرض لنظام السجن وإدارته ، وإن كان وجودها — مهما كان — داعيا للقلق والخوف . .

ولقد لوحظ أن السجانين قد تأثروا أيضاً بهذه العصبية ، وتصرفوا فى كثير من الأحيان على ضوئها ، وحابوا بلدياتهم من المسجونين . .

ولاشك أن النزلاء خاصة ؛ فى مسيس الحاجة لمن يوضح لهم حقيقة العلاقات الإنسانية فى صورها المثالية الرفيعة ، ويوضح لهم الأسس التى يجب أن تقوم عليها صلات الارتباط والتآخى ، تلك التى يجب أن تتسامى على رابطة المكان المحدود . .

(ط) الداخل مفقود والخارج مولود :

ومن الأمور المتفق عليها أن الداخل إلى السجن مفقود والخارج منه مولود. ولعل هذا الاعتقاد راجع إلى الرهبة والخوف اللذين كانا يملآن النفوس عندما تذكر كلمة السجن ،وخاصة أن السجون كانت منذ عشرات السنين بالمقابر أشبه ، وكانت مليئة بشتى ألوان القهر والقسوة والحرمان ، فإباحة التدخين لم تحدث إلا بعد عام ١٩٥٢ ، وكذلك السماح ببعض المأكولات والفواكه لم يصرح بها إلا بعد إنشاء المقاصف « الكناتين » فى السجون منذ عهد قريب. ولقد كانت نظم السجون آنذاك منصبة على الانتقام من النزيل وتحطيم روحه

وجسده تحطيما شديداً جزاء ما اقترفت يداه من إثم ضد المجتمع ، كما أن السجون كانت شبه مقفلة لا يعلم أحد ماذا يجرى فى داخلها من اضطهاد ، وما يجد بين نزلائها من مآسى ، ومذكرات الأستاذ « عريان سعد » فى مجلة « السجون » تصف الكثير من أهوال تلك الأيام الماضية فى السجون المصرية ، ولقد أجاد القصاص الروسى « دستوفسكى » وصف السجون الروسية فى كتابه « بيت الموتى » ، وكذلك فعل كثيرون غيره من الكتاب العالميين . .

كل هذه الملابسات والحقائق جعلت السجن شبيها بالمستشفى التى يقصدها المريض الميئوس من شفائه لإجراء العمليات الجراحية الخطيرة ، والمريض فى هذه الحالة إذا دخل المستشفى فهو فى حكم المفقود ، وإذا خرج منها فسيكون فى حكم المولود ، لأن ذلك لن يتأتى إلا بمعجزة تعيد إليه صحته وحياته .

لهذا إذا ما دخل الإنسان السجن ، ووجد نفسه محاطا بجو من الغربة والخوف ، وقد تخلى عنه أهله وذووه ، وودع حريته على باب السجن ، شعر لأول وهلة بالضياع والفقدان . .

وبمرور الزمن يتحول هذا الشعور إلى نوع من الاستسلام وعدم الاكتراث ، وقبول ماتأتى به الأقدار فى صمت وسكون ، ثم يجد أن حياة الفراغ واليأس تدفع إلى الترحيب بالموت ، لهذا يحاول السجين أن يجرى وراء الأحلام ، ويتعلق بأهداب الأمل ،

الأمل الذى يحيا عليه السجين ، فيخيل إليه أن الفرج قريب، وأن الحكومة لا بد وأنها ستطلق سراحه بعد أيام قلائل ، ويظل يدأب فى البحث عن الشائعات والأخبار ، فينتهز كل مناسبة ، ويجرى وراء كل حادثة أو تغيير سياسى ، أو مجىء أى عيد من الأعياد ، ويصور له وهمه أن ذلك سيكون مدعاة للإفراج ، أو سيكون مناسبة لائقة لإخراجه إلى عالم الحرية ، أو بمعنى أصح مولده من جديد . . . فإذا لم يتحقق ما يحلم به السجين ، فإنه لا ييأس ، بل ينتظر مناسبة أخرى قد تحمل فى طياتها ما يهفو إليه من أمل . . . وهكذا . .

ومع هذا الأمل الواسع العريض فإن المسجون يشعر فى قرارة نفسه بالقلق والخوف ، ويستبعد خروجه لأهله مرة أخرى، وإن كان يحاول أن يخفى هذا الشعور ، ويهرب منه دائماً . . .

أعرف أحد الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة فى جريمة قتل ، ولم يكد يمر على دخوله السجن أكثر من عام ، ومع ذلك كان يقسم إيماناً مغلظة على أنه لا بد سوف يخرج من سجنه فى بحر ثمانين يوماً . . .

وقد لاحظت أثناء دراستى لهذه الظاهرة أن أغانى[1] النزلاء ومواويلهم تتعرض لهذين المعنيين : معنى اليأس والحزن والخوف

(١) أنظر الفصل الخاص بأدب النزلاء وفنونهم .

والبكاء على الخلان والأحباب ، ومعنى الأمل فى الإفراج ، فها هو ذا النزيل « أ . ج . » يجلس فى زنزانته فى المساء ، ويتذكر أولئك الذين زاروه ، ثم رحلوا إلى أقاصى الصعيد . . إلى ديارهم ، وتركوه هو وراء القضبان باكياً حزيناً ، يترنم قائلا :

سهران أناجى النجوم من خلف قضبانى
وأطوف بفكرى الحزين حوالين خلانى
الراحلين من هنـــا لصعيد جوانى
لا بد بعد الفراق من جمعنا تانى

ولدينا كثير من الأقاصيص والنماذج الفنية التى تؤيد ما نقول . .

(ى) ياما فى السجن مظاليم :

يقول أحد الشعراء :

لا يدخل السجن إنسان فتسأله   ما بال سجنك إلا قال مظلوم

وهذه حقيقة عجيبة ،واعتقاد راسخ ومتغلغل فى أعماق النزلاء ، فكل صاحب جريمة — مهما كانت — يعتبر نفسه مظلوماً ، ولا يقرك أبداً على أن ما يناله من سجن هو عقاب عادل ، وجزاء طبيعى لمـا اقترفت يداه ، وهو فى إصراره بأنه مظلوم يأتى لك

بالحجج الغريبة ، والأدلة التى لا جدوى من ورائها ، ولا طائل تحتها ...

فإذا سألت القاتل : « لم قتلت ؟؟ »

لأجابك على الفور : « أنا أخذت بثأرى .. هذا حق ... أنا مظلوم » .

وإذا سألت السارق : « لمَ سرقت ؟؟ » .

لأجاب بسرعة : « إمال آكل منين ... ؟؟ هو فيه شغل وأنا ما اشتغلتش ؟ » مع أنك لو أخذت تحاوره وتقول له : « هل إذا وجدت عملا ، أفتعود إلى السرقة ؟؟ » لأجابك بصراحة : « أنا لا أستطيع أن أترك السرقة بعد ذلك .. إننى أقف فى الترام أو الأتوبيس وأجد أصابعى تتحرك تلقائيا ، وتعبث فى جيوب الناس دون إرادة منى ..... » .

وإذا سألت المرتشى : « لم قبلت الرشوة ؟؟ » لقال :

— « لم يكن هناك رشوة . وإنما هى مؤامرة دبرها بعض الحاقدين ضدى فأوقعونى فى حبائلها ظلماً وعدواناً » .

وقد تجد غيره فيجيبك فى صفاقة وتبجح قائلا : « وماله لمـا آخذ رشوة ... كل الشغل ماشى كده ... الموظفين كلهم حرامية ... » .

وإذا سألت هاتك العرض «لم فعلت ذلك ؟؟»

قال : «أوه .. بيوت الدعارة فى كل مكان .. ثم أن الملعونة هى التى جرتنى إلى ما حدث برغبتها ، وبعد ذلك تجنت علىّ ..»

وإذا سألت من اشتركوا فى جرائم ضد أمن الدولة عن سبب تمردهم لأجابوك بأنهم على حق،وأنهم كانوا ينشدون الخير والحرية والنصر لأمتهم،وأنهم مظلومون، مفترى عليهم .. و ... و ... الخ

وقس على ذلك المتهمين فى جرائم الاختلاس والتزوير والمخدرات وغيرهم ، فستجد الإجابات واحدة فى جوهرها،وستجد أن كل واحد لا يعترف إلا بشيء واحد يضحك به على نفسه ، هذا الشيء هو «أنه مظلوم» .

فإذا ما تحدثت لهم عن القوانين التى حوكموا على أساسها ، وأن هذه القوانين لا تعرف إلا إحقاق الحق ، وإقرار العقاب العادل ، وأن هذه القوانين من صنع المجتمع الذى ارتضاها مقياساً تقاس به أعمال الناس وتصرفاتهم حتى لا يظلم أحد أحداً ، ولا يطغى إنسان على إنسان ، إذا قلت لهم مثل هذا الكلام ، هزوا رءوسهم فى إنكار واشمئزاز ورموك بالتجنى والمغالاة ، وقد يكون الواحد منهم فى قرارة نفسه يحس بما أتى من وزر ، وما اقترف من إثم لكنه لا يريد التصريح بذلك ، وقليلون أولئك الذين يعترفون بأن

العقاب الذى نالوه عقاب حق رادع ، لهذا يقول الأستاذ أحمد حسن الباقورى[١] :

« ... إن أكثر الذين يقترفون الإثم ، ويواقعون الشر لاتواتيهم الشجاعة أمام أنفسهم ، فلا يقفون منها موقف اللائم المحاسب . بل إن كثيراً مايذهب بهم الضعف إلى حد التماس المعاذير لأنفسهم وتهوين الخطأ عليها ، والقاء التبعة على غيرها .. »

لاغرابة فى ذلك . فإن الحق والباطل كثير مايخضعان للاعتبار الشخصى ، والهوى الخاص ، فما تراه حقاً قد يراه غيرك على النقيض ، غير أن هناك بديهيات لاجدال فيها ولامراء ، ومع ذلك فإن مجتمع السجون يأبى إلا أن ينكرها ويحاول التخلص منها أو قلبها قلبا صريحاً ..

وليس معنى ذلك أن السجن ليس فيه « مظاليم » ، فإن من المسلم به أن كثيرين قد يوقعهم سوء الطالع ، أو نكد الحظ فى خطأ لادخل لهم ولاجريرة فيه ، وقد يؤدى التدبير الشرير ، أو شهادة الزور إلى الإضرار بأحد الأبرياء ، فتوقع عليه عقوبة ليس له فيها أدنى ذنب ، ففى بعض جرائم القتل يعمد أهل القتيل إلى إتهام عميد العائلة رغم أنه برىء مما الصق به ، وهم بذلك يضربون عصفورين بحجر : ينتقمون للجريمة التى وقعت عليهم أولا فى شخصية كبيرة

(١) مجلة السجون أغسطس سنة ١٩٥٦

ذات تأثير ، ثم يضمنون الحصول على الأموال التي يحكم بها القانون كتعويض من الجاني ثانيا .

إن في السجن بعض المظالم ، لكن ليس كله من المظالم كما يتوهم الكثيرون ومن الملاحظ أن أولئك المسجونين الذين يصرون على القول بأنهم مظلومون ، يصبح هذا القول عندهم في منزلة العقيدة التي لا تتزعزع . ولا شك أن شعور الظلم يدفع الإنسان إلى السخط والتمرد والكراهية فيتلفت السجين فلا يجد أمامه إلا الدولة والقانون الذي ترعاه ، فيوجه إلى تلك السلطة — سلطة الدولة والقانون — قذائف سخطه وغضبه ، كما يوجه عددا من هذه القذائف أيضاً إلى الزمان والأقدار والدنيا الخائنة وهذا واضح غاية الوضوح في أغاني (١)النزلاء ومواويلهم — وهي ذات دلالات هامة - فهذا نزيل يقول في أحد مواويله: « والله إن عشت لكم ياحكومة للبسكم بدل الحرير الفل » ، وكانت هذه الظاهرة أبرز ما تكون في الفترة الماضية (ما قبل عام ١٩٥٢) ، حينما كان السجين محروماً من التدخين وأكل « الكانتين » ، وكان عرضة الكثير من القسوة والاضطهاد والزراية.. أما بالنسبة لسخط النزيل على الأيام والليالي التي وضعته هذا الموضع فهو نوع أيضاً من الهروب من نفسه ، وإلقاء التبعة على أي كائن آخر سواه حتى لا يتعرض

(١) في الأيام الأخيرة دأب المشرفون على بعض السجون تحفيظ النزلاء « أناشيد وطنية يرددونها في الطوابير والحفلات الوطنية . .

للذعات الندم ، وسياط الضمير القاسية . . .

استمع إلى أحد النزلاء وهو يقول :

ليه يازمانى بتدى النـاس وتنسانى
خليت لى إيه يازمان همى وأحزانى
اسمع نصيحتي واوعى الدهر ليغرك
إياك تآمن لوعد الدهر من تانى

إن الأيام خائنة فى نظره ، وهو ضحية عسفها وظلمها ، لأنها أوقعته فى هذا المصير المحزن حسبما يظن، فليعلن ثورته عليها، وليحذر الناس من الركون إلى وعودها ، والاغترار بأمنياتها . . ومثل هذا الشعور يورث الحسرة والألم ، ويدفع إلى التأوه والنحيب ، فينطق البعض بالحكمة ، أو يحببهم فيها على الأقل فيترنمون بها :

أيام بنشرب عسل وأيام بنشرب خل
وأيام بتيجى على أولاد الكرام تنذل

إن عبارة: «ياما فى السجن مظاليم » لها بواعثها ودوافعها ، فهى ترسم صورة صادقة للفلسفة النفسية للنزلاء ، وتكشف الكثير عن حقيقة معتقداتهم واتجاهاتهم ، فالإنسان المظلوم ، دائماً يترقب اليوم الذى ترد فيه ظلامته، وينال فيه حقه ، فيحيا على ذلك الأمل الحلو ، فلا عجب إذن أن يحاول المسجون أن يجعل من نفسه مظلوماً

إذا لم يكن مظلوماً بالفعل — وفيم العجب وكثير من علماء الاجتماع والجريمة يؤكدون أن الجريمة ماهى إلا نتاج المجتمع ، وثمرة من ثمرات تفاعله واصطراعه ، وما المجرم فى نظرهم إلا ضحية من ضحايا المجتمع ، أو شهيد من شهدائه ، فهل نعجب إذا التقت نظرة علماء الاجتماع مع انفعالات السجين النفسية فى صعيد واحد ؟ ؟

(ك) عقوبة الجلد بطولة :

وليس معنى ذلك أن السجناء يسعون وراءها ، وينشدون الحصول عليها حتى يكتسبوا تلك البطولة ، أو يحظوا بهذا الفخر ، لكن تلك العقوبة كما قلنا آنفا ، لها ارتباط وثيق بمخالفة اللوائح ، وعصيان الرؤساء ، فقد قلنا أن عداء الاداريين فى السجون ، والتوجس خيفة منهم ، والافتخار بالصدام معهم ، تقليد متفق عليه ، وعرف جار ، لهذا فإن عقوبة الجلد المترتبة على ذلك تحمل فى طياتها نوعاً من التضحية والبطولة كما يعتقدون ، ومهما كان سبب الجلد ، فإن السجين ـ كما أسلفنا ـ لا يريد أن يقر إلا بأنه مظلوم .. مظلوم .. وهذا قد يدعو إلى رفع روحه المعنوية واستشعار التضحية المشار إليها ..

لهذا فإن السجين الذى يقاد إلى « العروسة » كى يجلد ، يجب أن يضع أمام ذهنه ماسيقوله عنه زملاؤه من النزلاء إذا ماتأوه أو بكى أو استغاث . . . إن ذلك الانهيار معناه القضاء على سمعته ،

ووصمه بوصمة العار والضعف ، وسيسير بين النزلاء خافض الرأس كسير النظرات ، أشبه مايكون بالعذراء التى فقدت شرفها .

أما الرجل الحقيقى « اللى راضع من بز أمه » — كما يقول النزلاء فهو الذى يتحمل الجلد [1] بقوة ورباطة جأش ،وعدم أكتراث مهما كان الجلد قاسيا ومهما كان عدد الجلدات كثيراً .

وإنك لتسمع كثيراً من النوادر الخاصة بعقوبة الجلد من أفواه النزلاء ، وفى هذه النوادر مايحمل معنى الإعجاب والثناء على بعض السجناء، ومنها مايحمل معنى السخرية والاستخفاف بسجناء آخرين..

فهناك نزيل فى الليمان يطلقون عليه اسم « حميدة » مع أن اسمه الحقيقى « حامد » ، والسبب فى ذلك أنهم قد وجدوا معه أثناء التفتيش شفرة حلاقة — قبل وجود الصالونات فى السجون — فقررت له عقوبة جلد ، وعند توقيع العقوبة صرخ حامد قائلا : « أنا فى عرض البيه المأمور . . . فى عرضك ياسعادة البيه . . . » ولم يسلم حامد بعد ذلك من تعليقات زملائه اللاذعة ، وتعنيفهم له .

وعقوبة الجلد عقوبة « محترمة » فى نظر السجين « الأصيل » ، لأن الصفعات والضرب على القفا والركل ، كل هذه الأشياء مدعاة للحطة والمذلة والاحتقار ، لهذا يحاول « الأصلاء » أن يتجنبوها . .

---

(١) لقد ضيقت لائحة السجون (عام ١٩٥٦) مجال عقوبة الجلد وجعلته قاصراً على التمرد الجماعى أو الاعتداء على أحد موظفى السجن من المدنيين أو العسكريين .

وليس كل النزلاء على هذه الوتيرة ، فكثيرون من أمثال حامد — وخاصة اللصوص منهم — لا يقيمون وزنا لنوع العقوبة البدنية التى يتلقونها سواء أكانت صفعا أو ركلا أو ضرباً على القفا أو جلداً ، ولا بأس من أن يصرخوا ويستغيثوا ويتخذوا أى وسيلة للإفلات من العقوبة أو تخفيفها

ويلاحظ دائماً أن فئات المسجونين ليسوا من طبيعة واحدة ، ولهذا فإن مسألة التصنيف والفصل التى سنشير إليها فيما بعد من الأهمية بمكان . .

(ل) المساواة فى الظلم عدل :

إن مجتمع السجون - ذلك المجتمع المريض - فيه كثير من التناقض وهذا أمر طبيعى فى نظرى ، وماذا ننتظر من ذلك الوسط الموبوء بالجريمة ، والذى لم يلتفت إليه المصلحون ، ويولوه الرعاية والدراسة والتوجيه إلا منذ زمن قصير ؟؟ أقول إن هناك كثيراً من التناقض ، فبينما ترى عشرة من النزلاء يجلسون فى حلقة واحدة ، ويتبادلون نصف سيجارة كل واحد منهم يجذب منها « نفساً » قصيراً ويعطيها كل واحد منهم لأخيه فى مودة وتعاون وتقدير ، بينما ترى هذه الصورة المتكررة ذات الدافع النبيل ، ترى صورة أخرى كلها حسد ونقمة وأنانية . . . .

إن أحد النزلاء إذا حظى بالحجز فى مستشفى السجن فسيكون

ذلك مدعاة لحقد زملائه عليه ، وتغيظهم منه ، لأنه - كما يعتقدون - قد تميز عليهم بهذه الطريقة ، وسينعم بالراحة والنوم على سرير ، وسينجو من شر العمل فى الجبل أو الورش ، أما هم فسيظلون يقاسون البلاء والتعب ، وسيكون غيظهم وحقدهم أشد وأقسى إذا كان زميلهم المحجوز فى المستشفى ليس مريضاً لدرجة خطيرة يتطلب معها حجزه هناك ، أو إذا كان أحدهم — كما يبدو — أشد مرضاً منه . .

وفى مثل هذه الحالة يبادر بعض النزلاء بكتابة الشكاوى إلى الديوان ضد الطبيب ، وضد النزيل المريض نفسه ، وقد تكون ضد إدارة السجن أيضا ، تلك التى قد تتهم بالمحاباة وتطبيق الاستثناءات على بعض المحظوظين . .

والحسد لا يتناول المحجوزين فى المستشفى فقط ، بل يتعداهم إلى أولئك الذين قد وضعوا فى عمل مريح مثل المكتبة أو المكاتب أو الكانتين ، ويتناول أيضاً أولئك الذين يحظون ببعض العطف من رؤسائهم . . .

إن أمثال هؤلاء النزلاء يرون أن المساواة فى الظلم عدل ، ويحسون بشىء من الراحة والرضا إذا كان الجميع سواء بسواء تحت ظروف واحدة ، والنفس البشرية بطبيعتها يخالطها شعور معين تجاه من هم فوقها أو يتميزون عليها ، وخاصة فى هذا المجتمع المريض . .

إن كلمة « إشمعنى » ذات أثر فعال وخطير فى مجتمع السجون ، وقد تسبب كثيراً من المتاعب والاضطرابات المختلفة هناك . . .

(م) الإشاعات ضرورة اجتماعية فى السجون :

هناك بعض الشخصيات المعمرة فى الليمانات والسجون ، وتلك الشخصيات قد يكون لها بين النزلاء منزلة خاصة لما يتميزون به من علم أو كياسة أو ذكاء فلا يعدم الأمر أن يكون منهم من كان طالب علم فى الأزهر أو المدارس ثم فسد ، وقد يكون منهم من يحفظ القرآن ، أو يفهم شيئاً فى الأمور السياسية ، أو له دراية ببعض المسائل القانونية . هذا الصنف المعين من النزلاء يعتبر « مصادر موثوق بها » ، فإذا ما وردت إلى السجن شائعة من الشائعات تتعلق بالوضع السياسى أو الاقتصادى فى الدولة بادروا — أعنى هذه المصادر الموثوق بها — بالتعليق عليها ، ووضع الاستنتاجات التى يرونها ، وغالباً ما تكون استنتاجاتهم فى خط واحد معروف يتعلق بمصير السجناء ، وبموضوع الإفراج عنهم أو عدمه ، وفى أكثر الأحايين تكون هذه الاستنتاجات مقصودة قصداً ، لا يراعى فيها الدقة أو تحرى الحقائق ، لأن المهم عندهم هو التحليل والاستطراد اللذان يؤديان إلى نتيجة واحدة وهى أن فرصة الإفراج أصبحت قريبة جداً . . .

فالسجين يتوهم دائماً أن مجتمع السجن هو كل شىء ، وأن الناس

فى الخارج لا يفكرون إلا فيهم ، وأن الحكام لا يغيرون وضعاً ولا يتخذون سياسة إلا ووراءها هدف معين ، وهو مصلحة السجين..

إن السجين يعطى نفسه أهمية فوق الحقيقة بمراحل عدة ، وهذا الوهم أو الاعتقاد يترجم عنه تلك « المصادر الموثوق بها » والتى تتلقى الشائعات ، فتصوغها صياغة جديدة ، وتضيف عليها ما تشاء ، وتحذف منها ما تشاء ، وقد تصحح فيها بعض الوقائع حتى تأتى بالغرض المطلوب منها . .

أما كيف تأتى هذه الشائعات ، فهناك طرق عدة لها . . !؟

فمثلا قابل مأمور السجن أحد أقربائه من النزلاء ، وأراد أن يجامله فقال له « شد حيلك . . . تهون . . . بكره ربنا يفرجها . . » وتصادف فى هذا الأثناء أن عيد الأضحى كان قد قرب ، وسرعان ما سرت شائعة فى الليمان تؤكد أن مأمور السجن قال : إن هناك عفواً شاملا فى العيد الكبير . . .

إن كلمة عابرة من ضابط . .

أو خبراً تافهاً من سجان . .

أو عبارة عارضة من أفواه أحد النزلاء الجدد . .

أو نبأ عاديا فى زيارة من الزيارات . . .

أو كلاماً بسيطاً يدلى به أحد موظفى السجن . .

إن واحدة من هذه كفيلة أن تصنع منها «المصادر الموثوق بها» فى السجن شائعة ضخمة رنانة، تطرق باب كل زنزانة، وتصل إلى سمع كل سجين، وقد تتعدى أسوار السجن إلى من فى الخارج...

وهناك شائعات أخرى تقال للتسلى أو التشفى، كتلك الشائعات التى تتعلق بنقل ضابط أو سجان، وشجار ضابط مع آخر من أجل مصلحة المسجون، أو تتعلق بسلوك بعض الإداريين الشخصى، وقد يصل بهم الحال إلى التكهن بالأسرار العائلية والمنزلية، وغالباً ما تكون هذه الشائعات مختلقة إختلاقا..

ومع ذلك فالشائعات — رغم ثبوت كذبها عشرات المرات — ضرورة اجتماعية فى السجون، إذ لا بد لهم أن يعيشوا على الأمل، يخلقونه خلقا، ويبتدعونه ابتداعاً، ويحيطونه بما يجعله سائغاً مقبولا، ولا بد أن يشارك النزلاء فى أحداث الحياة، ومشاكل السياسة وأمور المجتمع، وهذه المشاركة تكون بالطريقة التى تتناسب مع وضعهم وأحلامهم وبواعثهم النفسية، لهذا فهم يختلقون الإشاعات ويتلذذون بها، بل إن من يصنعونها قد يتلذذون بها أيضاً، ويخدعون أنفسهم كما يخدعون غيرهم، تماماً مثلما فعل «أشعب» [أمير الطفيليين] حينما أراد أن يتخلص من مطاردة بعض الأطفال له، فزعم لهم أن هناك فى بيت «فلان» مأدبة كبيرة لمن شاء أن يأكل، وفعلا تركه الأطفال وأسرعوا ليلحقوا

بالمأدبة ... فوقف أشعب متفكراً لحظة،ثم أسرع خلف الأطفال لعله هو الآخر يحظى بالمأدبة التى ابتكرها خياله الخصيب .. !!!

إن الشائعات لدى المسجونين نوع من أحلام اليقظة ، وزاد روحى يملأ فراغ نفوسهم وقلوبهم ، ويرفه عن آمالهم الكليلة ، وحاضرهم المرير الجريح الحزين ...

* * *

هذه هى بعض القيم والمعتقدات الغالبة على مجتمع السجون ، وفى اعتقادنا أن مجتمع السجن كالجسد المريض ، وما هذه القيم المختلة،إلا أعراض المرض وشواهده وإن بسطها على هذه الصورة وعرضها هذا العرض،مع ضرب الأمثال والتحليل الدقيق لمما يساعد على التماس العلاج الناجح ، والشفاء المرتقب .. لكن هناك كلمة حق يجب أن تقال ..

إن نزلاء السجون ليسوا على وتيرة واحدة،وليسوا على درجة واحدة من التشابه فى القيم والسلوك والجرائم ، فهناك بعض المحكوم عليهم فى جرائم معينة ليس من طبيعتهم الإجرام وليس فى خلقهم شذوذ أو انحراف بالمعنى الصحيح ، وهؤلاء قد أقدموا على فعل ما اقترفوه من جراء غضبة عارضة ، أو ثورة انفعالية طارئة لا تكاد تتجاوز لحظات محدودة ..

ومثل هؤلاء يحسون بجسامة ما اقترفوا ، ويؤرق عليهم الندم

حياتهم وسعادتهم ، ولا ينكرون أبداً أنهم وقعوا فى خطأ يستوجب العقاب ..

وكثير من هؤلاء لا تتزلزل القيم الكبرى فى نفوسهم، ولا تهتز المثل العليا القويمة التى آمنوا بها من قبل ، واطمأنت إليها ضمائرهم ، وينعكس كل ذلك على تصرفاتهم داخل السجن ، فترى الواحد منهم يواظب على الفرائض الدينية من صلاة وصوم وتسامح ، وقد يعمد إلى نصيحة غيره من النزلاء ... وتراه يتجمل بالصبر ، فلا يدفعه طول المدة إلى الشذوذ والانحراف ، ولا يحمله الحرمان والقسوة فى سجنه على التمرد على اللوائح ، والتصدى للمشرفين على إدارة السجن ... :

وتراه يتعجل أيام السجن فى قلق، كى يعود للاندماج فى المجتمع بنفس صافية رادعة لا مكان فيها للحقد والزيغ والإصرار على الجريمة ...

ولنا أن نقرر أنه قد يحدث عكس ذلك تماماً .. لكن بقى سؤال .. !! هل نترك تلك القيم الفاسدة ، والعقائد الشاذة ، تنخر كالسوس فى عظام هيكل مجتمع السجون حتى تورده الفناء والضياع التام ، وحتى يصبح ذلك المجتمع المريض ميئوساً منه ، ومصدراً من مصادر التهديد والتدمير والتعويق فى مجتمع بلادنا ؟ !

طبعاً لا ..

فما هى الطريقة إذن لتصحيح هذه القيم ، وتنقيتها مما علق بها من شوائب وأوهام وسموم ؟؟

إننا سنجيب على هذا السؤال الهام فى موضع آخر إن شاء الله . . .

* * *

ولا يفوتنا فى هذا الفصل أن نشير إلى بعض المصطلحات « السجنية » التى يرددها النزلاء حتى لا ينكشف أمرهم ، لأنها تتعلق ببعض الممنوعات التى تعتبر حيازتها أمراً مخالفاً للقانون ، من ذلك :

شفرة الحلاقة	ويطلقون	عليها	بشلة
العملة ذات القرشين	»	»	زرار
الساعة	»	»	ترمسه
لفافة التبغ	»	»	تفتافة (قبل أن يباح التدخين)
النار أو الثقاب	»	»	عين
العملة ذات العشرة قروش	»	»	عنترة
» » الخمسة »	»	»	بشلك
الأفيون	»	عليه	زيتون أسود
الحشيش	»	»	زيتون أخضر
البصل	»	»	فرخة (وكان ممنوعاً من قبل)

الرغيف	ويطلقون عليه	بابا (لأن الاتجار فيه كان ممنوعا)
اللحم (طبيخ السجن)	» »	ماما (» » » » » »)
السكر	» »	الرز . . . . . الخ

وهناك مصطلحات أخرى كثيرة غير هذه الممنوعات ، فمثلا إذا شعر أحد النزلاء بالسجان على وشك أن يفتشهم أو يفتشهم صاح قائلا « العربية » أما إذا كان الضابط هو القادم صاح قائلا « تاكس . . . » وهكذا . .

* * *

١ — الجريمة

◆ هل الجريمة كما يقول البعض ثمرة لظروف اجتماعية معينة ، وتفاعلات مختلفة فى البيئة تشترك فيها عناصر الاقتصاد والسياسة والمعتقدات والمناخ والتقاليد والثقافة و .. و ... الخ ؟؟

◆ هل الجريمة فعل انعكاسى لما يعتمل فى النفس ، وما يثور فى أجهزتنا العضوية من اضطرابات بيولوجية وفسيولوجية فى وجود أنواع معينة من المرض ؟؟

◆ وهل الجريمة غريزة فى النفوس؟. أم أنها ظاهرة مرضية لا تبدو إلا عند بعض الأشخاص .. ؟؟

هذه أسئلة ثلاثة وقف عندها الباحثون الاجتماعيون ، ورجال القانون المهتمون بشئون الجريمة والعقاب ، فعلى أساس الإجابة على هذه الأسئلة الهامة ، سنوضح السياسة الملائمة وما تستلزمه من لوائح وقوانين وتنفيذ ..

الشيطان والجريمة :

إن من أبرز الأسباب التى تعزى إليها الجريمة هو الشيطان ، وقد يسمونه إبليس ، وما زال الشيطان وما يوسوس به لابن آدم من ضلال وإثم وإغراء أمراً معترفاً به فى جميع الأديان .. ولقد أدرك الأقدمون من رجال الدين قبل الإسلام ما للشيطان من أثر

فى السلوك الإنسانى ، فلفت الكهان والعرفاء نظر الناس إلى مصدر الشر والخطيئة ، وأعطوهم صفات وأساليب عدوهم اللدود ، كما شرحوا لهم نواياه الخبيثة ، وأكدوا لهم أن رسالة الشيطان فى الحياة — وهى رسالة ليس له غيرها — هى الاغواء والتضليل ، ودفع الإنسان لاقتراف شتى ألوان الجرائم ، الانغماس فى الشر والرذيلة ، ومخالفة أوامر الله التى تأمر بالبعد عن المعاصى ، والعمل فى حقل الطاعات ..

لقد صور رجال الدين الأمر بصورة معينة . . هى أن الحياة معركة حامية الوطيس بين الإنسان والشيطان ..

والمهم فى هذه المعركة أن رجال الدين أكدوا (١) للإنسان أن له النصر على الشيطان مائة فى المائة إلا إذا فرط أو تراخى أو تهاون فى هذه المعركة المقدسة .. فالهزيمة — فى نظر رجال الدين — هى عدم اعطاء المعركة حقها من الإعداد المادى والمعنوى ، وإن مثل المستسلم لنزواته ولوساوس شيطانه كمثل الهارب من معركة يطأ العدو فيها أرضه ، أو كمثل الوطنى الذى يسلم نفسه أسيراً — بمحض رغبته — إلى يد الأعداء يفعلون به ما يشاءون ..

فليس هناك عذر — كما يرى رجال الدين حينذاك — لإنسان

---

(١) هناك بحوث دينية طويلة لكثير من الفقهاء والفلاسفة للمسلمين وغيرهم عن مشكلة الجبر والاختيار فى الاسلام

يُهزم أمام الشيطان ، لأن الإنسان معه سلاح هام ، متى أجاد استعماله واعتصم به ، نجا وفاز ، وانتصر فى المعركة .. هذا السلاح هو سلاح الإرادة . . . وتعرض رجال الدين للإرادة بالوصف والتحليل ، وأرشدوا الناس إلى طريقة تقوية هذه الإرادة وتنميتها وما إلى ذلك عن طريق الصبر والرياضة والقناعة ، والعفة .. و ..الخ

وهنا يثب سؤال له أهميته القصوى ..

إن الإنسان — لا شك فى ذلك — ذو إرادة ..

لكن هل هذه الإرادة مطلقة ؟؟؟

يجيب الدكتور ملاك جرجس على هذا السؤال قائلا [١] : —

« من المعروف أن بعض العمليات الجراحية فى المخ كاستئصال الفصين الأماميين أو فصلهما عن بقية أجزاء المخ إلى غير ذلك من العمليات التى تجرى للحالات المستعصية فى الأمراض العقلية ، تتسبب فى نقص ذكاء الفرد نقصاً قد يصل إلى ٣٠ ٪ من أصل مقياس ذكائه قبل أن يصاب بالمرض العقلى المستعصى ، كما أنها كثيراً ما تتسبب فى تدهور قدرة المريض على تحمل المسئولية والسلوك سلوكا اجتماعياً يتناسب مع سنه كسلوك طفل لا يعى عما حوله كثيراً ، ويتبول على نفسه . . إلى غير ذلك من صفات الطفولة ، إلا أن هذا التدهور فى الشخصية يمكن استدراكه بمعاودة

(١) مجلة السجون (مارس سنة ١٩٥٧)

تدريب المريض على العادات الاجتماعية التى سرعان ما يسترد معظمها ، كما أنه يسترد كيانه الاجتماعى لدرجة كبيرة، لكنه لا يسترد النسبة التى فقدها من ذكائه . . . . وآرائى تتلخص فى أنه ليس هناك حرية إرادة بالمعنى المطلق الذى يفترضه رجال القانون من قديم الزمن ، بل إن سلوك الفرد إن هو إلا نتيجة طبيعية للعوامل والظروف التى نشأ فيها والتى تعتمل فى كيانه ... »

فإرادة الإنسان ليست إرادة مطلقة تماماً ....

والإنسان — كما فى الحديث النبوى — بين الجبر والاختيار ، أى أنه ليس هناك إرادة مطلقة أو جبر مطلق ، وإنما الإنسان يتماوج بينهما . .

وهذا شيء يوضحه ويؤكده الفحص العلمى والطبى والاجتماعى...

وما زالت فى مجتمعنا ظاهرة إلقاء اللوم على الشيطان ، ورمى الوزر عليه . .

سألت أحد المحكوم عليهم فى « هتك العرض » وقلت له :

— « كيف تقدم على هذه الجريمة ، وأنت الشاب الدمث الخلق . . المتعلم ؟ ؟ »

فقال فى أسف :

— « الليل غدار . . . والشيطان شاطر . . . ربنا يسامحنا . . »

ولما سئل أحد الذين أعدموا فى جريمة قتل سياسية عمن اشتركوا معه فى جريمته ، قال :

— « نحن ثلاثة »

— « من ؟؟ »

— « أنا . . . وشيطانى . . . ومسدسى »

ولم تزل جماهير الشعب تنحى باللائمة على الشيطان . .

وما زالوا يعدونه أس البلاء ، ومنبع كل شقاء . .

وما زال هو العدو الأول لبنى الإنسان وسعادتهم ورفاهيتهم .

والبعض الآخر يرى أن الشيطان ماهو إلا رمز للجانب الشرير فى طبيعة الإنسان .

البيئة والجريمة:[1]

يرى الكثيرون من علماء الاجتماع والجريمة — كجزء من النظرية الواقعية — إن للبيئة الأثر الأكبر ، والدافع الأول لارتكاب الجرائم ، لهذا فإن نظرتهم قد تغيرت كثيراً بالنسبة للمجرم عن ذى قبل .

---

(١) إن علماء الجريمة قد ذكروا العوامل التى تؤدى إلى الانحراف وانقسموا إلى مذاهب مختلفة ، لكن هذه العوامل تنحصر فى : ١ — عامل بيولوجى ٢ — عامل نفسى ٣ — عامل عضوى ٤ — عامل اجتماعى .

والواقع أن لكل بيئة فاعليتها وتوجيهها لعقول البشر وغرائزهم الفطرية ، إذ أن كل مجتمع له قيمه الخاصة ، ولكل بيئة معاييرها التي تقيس بها الأمور ومبادئها التي تؤمن بها . .

فالعرب في جاهليتهم كانوا يستبيحون السلب والنهب ، فتمضى القبيلة من القبائل تذرع الصحراء شرقاً وغرباً حتى تجد العشب والماء فتحل هناك ، وقد تنازعها قبيلة أخرى فتجلوها عن هذا المرعى الخصيب فيصير الكلأ والماء للأقوى منهما ،وكان هذا عرفاً جاريا ، وتقليداً متبعاً . . .

وفي الصعيد ينشأ المرء في بيئة خاصة تؤمن بالثأر وتجعل منه قيمة ومثلا أعلى ، له تقديسه واحترامه ، والذي يتحلل منه ، يصير موضع الهزء والسخرية والعار الشنيع . .

وفي السجون قيم متعارف عليها ، تعتبر في حكم الأمر المقرر المفروغ منه، وفي بعض البيئات كانت تغلب نزعة الشجاعةوالفتوة فتنتشر « فضيلة » الفروسية ، وتلتصق بشرف الأسرة وسمعتها . . .

وفي بعض البيئات يغلب على الطبع حب المال حباً جماً ، ويلجأون إلى شتى وسائل المكر والاستغلال والخديعة للحصول عليه . . . وفي بعض البيئات مثل قوم لوط كان اللواط أمراً مستساغاً يُسعى من أجله ويتمسك به تمسكا شديداً . .

وهناك بعض البيئات التي تتسم معاملاتها للمرأة بالكبت والتحفظ

الشديد ، وتعتبر أدنى قسط من الحرية لها ضرباً من العهر والفجور ، وأدنى شك فى الزوجة قد يؤدى إلى قتلها ، وهاك اعترافاً دامياً من النزيل (ا.ف)[1] :

« كنت زوجاً سعيداً أنعم ببيتى وزوجتى ، ولم أكن أرى الحياة إلا باسمة مزدهرة ، وأنا بطبيعتى أقنع بالقليل ، وأؤمن بأن الرغيف الذى أحصل عليه ، هو كنز مقدر على أن أشكر الله عليه . . . كنت سعيداً بحق . . . ومرت بى الأيام ناعمة هادئة . . . ثم جاء اليوم الذى تعكر فيه صفو أحلامى التى كنت أحيا فيها . . وذلك حين تناهى إلى سمعى شائعة خيانة زوجتى . . وأنا ياسيدى من أسيوط .. ونحن هناك نرى الشرف أرفع بكثير من أن يمس . . .

ثارت ثائرتى وخرجت من عملى فى غير ميعاد الخروج ، وتوجهت مسرعاً إلى البيت ، وهناك رأيت زوجتى ومعها رجل ، كانا جالسين فى صورة لاتثير ريبة أوشك فى أن خيانة ما قد وقعت ..

ولكنى لم أكن أعرف الرجل ، بل إنى لم أره من قبل ، وكنت حين دخولى أعانى ثورة نفسية عاتية ، وفى اضطراب شديد . .

سألت الرجل من يكون ؟ فارتبك وتلعثم ولم يحر جواباً ، ونظرت إلى امرأتى فرأيت فى عينيها خوفاً مريعاً فجن جنونى ... وشعرت بدمائى الساخنة تنطلق إلى رأسى ، وتركت فى نفسى

---

(١) السجون (يناير سنة ١٩٥٥) .

مشاعر عديدة من الشعور بالخيانة والرغبة فى الانتقام من هذه المرأة التى أدخلتها قلبى ، وأطلعتها على سرى . . فقد كان بيننا عهود . .

أحسست بكل هذه المشاعر تموج بين جوانحى فى لحظات سراع . . . ثم راحت تتلاشى رويداً رويداً . . . إلا شعور واحد كئيب سيطر على خيالى فى إصرار ... كان هذا شعور بأنى مغفل .. نعم مغفل . .

ورأيت ذلك « السكين » على المائدة ، وكانت زوجتى فى أقصى حالات الرعب .. وكنت أنا ثائراً أصرخ وأهدر ، واقتربت منها ، ولففت ذراعى حول ظهرها ، ثم ذبحتها ذبح الخراف من غير أن تنبس ببنت شفة ، ولكنى سمعت عشيقها يرجونى بصوت متحشرج ألا أقتلها ثم غمغم بكلمات كثيرة لم أفهم منها شيئاً ، ولكنى أجهزت عليها تماماً .. واتجهت إليه ، ولم يكن مصيره إلا مصير زوجتى . .

كان هذا الرجل الذى وجدته مع امرأتى يقطن فى قرية مجاورة ، ويدعونه « الشيخ محمود » ، وكان الناس يتبركون به ، ويلجأون إليه فى الملمات ، ودعته زوجتى إلى البيت مرات عديدة ، لأنها كانت لا تخرج مطلقاً ، دعته ليبرئها من العقم ، ويدعو لها أسياد السماوات والأرض لينقذوها من هذه الأزمة . . ولم يكن الذنب

ذنبها ياسيدى . . بل ذنبى أنا . . . أنا كنت ألومها، لأنها لم تنجب لى ابناً يرث قوتى ووجودى . . .

ثم عرفت إنها بريئة من كل خيانة . . .

وإن الشيخ محمود كان من الأتقياء الصالحين . .

سيدى .. أنا معذب . فليرحمنى الله . . »

إن هذه القصة التى كتبها ذلك المذنب فيها الكثير . .

أجل فيها الكثير عن البيئة التى تحمل المرأة فوق ما تطيق ، وترغمها على أن تنجب . . . وفيها الكثير عن البيئة التى يحكم فيها على المرأة بالقتل لمجرد الشبهة . . . وفيها الكثير عن البيئة التى يندفع فيها الإنسان برعونة وطيش . . . ويعيش فى قيود التقاليد القاسية ، وظلمات العادات التى لا ترحم . .[1]

* * *

وهناك بعض البلدان التى تميل إلى الكسل والتراخى والخمول كما فى المناطق الحارة مثلا ، والبعض الآخر يتميز بالنشاط والإنتاج... وفى النواحى التى تكثر فيها البطالة والضيق الاقتصادى تكثر الجرائم والأعمال الشاذة . .

---

(١) إن « وليم بنجر » الهولندى يعزو الإجرام دائماً إلى الأحوال الاجتماعية العامة .

وعقب الحروب تهتز القيم ، ويقل الاكتراث بالحياة ، نظراً لأن الحرب مليئة بالفظائع والأهوال ، والقتل فيها صنعة أساسية يجب أن يتقنها ويعترف بها الجميع ، وإلا فستقتل قبل أن تقتل . . .

وبعض المجتمعات تغلب عليها نزعة التمرد الزائد ، والتحلل من قيود الدين والفن والأخلاق ، والبعض الآخر تصطبغ حياته بالمحافظة الشديدة على الشعائر الدينية والخلقية . .

ومن هنا يرى علماء النظرية العقابية الوضعية (الواقعية)(١) أن المجرم الحقيقي هو المجتمع ، وأن الإنسان الجاني ما هو إلا « تعبير » أو « انعكاس » لمشاعر المجتمع ، ونتيجة من نتائج قيمه ومعتقداته ومثله العليا ، فاللوم يقع على المجتمع ككل ذلك الذي أوجد المسببات وأتاح الفرصة للجريمة ، وأوجد لها الجو المناسب والتربة الخصبة . فالمجتمع في نظرهم هو الذي يصنع المجرمين .

والعلاج يجب أن ينصب على صانع الجريمة أو المجرم الحقيقي وبالتبعية ، سيصبح الفرد — الأداة التي يستخدمها المجتمع — سليما معافى ، وبالطبع سيكون نصيب هذا الفرد جزءاً كبيراً من العلاج .

فالمشكلة في نظرهم ذات شطرين . . . شطر يتعلق بالمجتمع وهو الأهم ، والشطر الآخر يتعلق بالفرد الذي أخطأ ، وهذا يجب

---

(١) يعتبر « لمبروزو » مؤسس المدرسة الوضعية في علم الإجرام .

أن تتاح له كل الفرص حتى يشفى . ويقول : « سوذر لاند » ، إن السلوك الإجرامى ينتج عن مخالطة الفرد لأصدقاء أو أقران مجرمين مخالطة أطول مدة وأكثر استدامة من مخالطته لغير المجرمين ، ويكون للجماعة المنحرفة فى نفسه الغلبة على الجماعة السوية(١) .

الغرائز والجريمة :

ما السر فى أن أخوين ينشآن فى بيئة واحدة ، ويخضعان لنفس الظروف المادية والمعنوية ، ومع ذلك تختلف طبيعتهما ، ويتغير مجرى حياتهما ؟؟

يؤكد علماء النفس أن هناك كثيراً من الأحداث التى تبدو تافهة عابرة ، والتى تمر بحياتنا مرورا سريعاً ، ومع ذلك فهى تترك أعمق الأثر فى النفوس لأن فترة الطفولة فترة حرجة دقيقة فى حياة الإنسان ، وما يلاقيه الطفل من أحداث وصدمات فردية ، قد تشكل مستقبل حياته تشكيلا خاصا ، وقد تدفعه إلى طريق لم يخطر على بال ذويه بأى حال من الأحوال . .

ويروى الأستاذ محمد فتحى أستاذ علم النفس الجنائى ، أن بعض المجرمين الذين يحبون السجن ولا يريدون مغادرته هم صنف من الناس قد تمكنت فى نفوسهم ظاهرة « الطفولة النفسية » أو

(١) نظرية المخالطة المتفاوتة differential association.

« نزعة الاعتماد على الأم » فمثل هؤلاء الأشخاص لم ينشأوا على الاعتماد على النفس ، ولم يقذف بهم فى غمار الحياة حتى يفشلوا وينجحوا ، وييسروا ويساءوا . . . بل اعتمدوا كلية على أمهم منذ أن تعلموا كيف يتغذوا بلبانها ، ثم درجوا على أن تقدم لهم طعامهم وشرابهم وملبسهم، فاستطابوا هذه الحياة الخالية من الكدح والتفكير فى الحصول على مايريدون ، وما أن كبروا وأصبحوا رجالا وأرغمتهم الظروف على العمل وملاقاة الحياة بألوانها المختلفة حتى جبنوا وفروا إلى السجن ، هاربين من تحمل المسئوليات ، ونتائج الفشل أو النجاح . .

إن كل إنسان له غرائزه الفطرية . .

وهذه الغرائز تتأثر بما يحيط بالإنسان من مظاهر البيئة المختلفة ، وهذه الغرائز أيضاً تتأثر بالصحة البدنية ، فمثلا مرضى الغدة الدرقية Thyroid gland فى بعض الحالات المعينة يتسمون بحدة فى المزاج ، وسرعة فى الغضب . .

والمرضى بأمراض خاصة ناتجة عن اختلال فى هرمونات الجنس Saxual hormones تصاب غرائزهم بشىء من التحوير والتحويل ، وتتخذ خطاً غير طبيعى ، فقد تكون الغريزة الجنسية حادة عنيفة ، وقد تكون خامدة كسولة ...

وباختصار يجب أن ندرك تمام الإدراك أن الغرائز الفطرية

شديدة التأثر ، وشديدة الحساسية لما تموج به الحياة من حوادثه وما يفرز فى أجسامنا من هرمونات وإفرازات مختلفة ، وما يصيبنا من أمراض عضوية كثيرة . . .

وهذه الغرائز فى حاجة دائمة إلى فهم دقيق ، ودراسة علمية مستفيضة ، وعلى هذا الأساس يقوم تهذيبها وتوجيهها إلى السير فى طريق سوى ، ولن يتأتى ذلك إلا إذا وضعنا نصب أعيننا الحالة الجسمانية وما تحتاجه من رعاية طبية والذى نريد أن نؤكده هنا أيضاً ، هو أن الغريزة الفطرية إذا ما أصابها شىء من الخلل لسببه من الأسباب التى تتعلق بالبيئة أو المرض الجسمانى ، فإنها قد تدفع إلى الجريمة . . .

والتبعة هنا على من تقع ؟؟ إنها تقع على من يجهلون أو يتجاهلون هذه الغرائز وتحركاتها وما تتأثر به . .

* * *

والآن . . . هل آن لنا أن نجيب على الأسئلة الثلاثة التى بدأنا بها هذا الفصل ؟ ؟

إن الإجابة ممكنة حسبما أعتقد . . .

فنحن لا نستطيع أن ننكر أثر البيئة فى تكوين نفسية المجرم ، ولا نستطيع أن ننكر أثر الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعقيدية فى تكوين شخصية المجرم . .

ولانستطيع أن نتجاهل أيضا أثر الأمراض المختلفة التى تصيب الجسم وتدفع المجرم إلى تفكير خاص ، وإلى تصرفات بعينها ..

كما أنه لا يمكننا أن نضرب صفحاً عن غرائز الإنسان الفطرية واتجاهاتها ومطالبها ومطامعها الخاصة .

فهذا طفل نشأ على الأرصفة فى الشوارع بين المجرمين والسفاكين واللصوص والشواذ والمشردين ، وهذا طفل آخر درج على الاعتماد على غيره ، ثم وجد نفسه فجأة أمام الحياة يصارعها وتصارعه ، وهذا طفل ثالث نشأ فى بيئة مليئة بالكبت والضغط ، فلم يجد مناصا من أن ينفث عن غرائزه وميوله فى اتجاه غير سليم ، وفى طريق غير طبيعى ، وهذا إنسان آمن بقيم خاصة ، وعقائد ذات طابع معين ، فكان من الصعب عليه أن يهدم له إنسان آخر هذه القيم ويسفهها له ، ويتصادم معه من جرائها ، كل هذه أمور يجب أن توضع موضع الاعتبار والاهتمام .

السياسة والجريمة :

السياسة يقصد بها هنا نظام الحكم ، وتصرفات الأداة الحاكمة تجاه المواطنين ، والفلسفة التى تقوم عليها معاملة الرعايا .

ففي ظل الحكومات الدكتاتورية الجائرة مثلاً ، والتي يتميز حكمها بالضغط والارهاب والاستبداد ، والتي تحمي الاقطاع ووسائل الاستغلال ، ويظهر الفرق شاسعاً بين الطبقات، في مثل هــذه الحكومات تصاب الأخلاق والمعايير القيمية

بأمراض فتاكة، ونواحي نقص تؤدي في النهاية إلى تمهيد السبيل للجريمة، وكثرة عدد المجرمين .

وفي ظل الطغيان يلجأ المجتمع إلى الاحتماء بالجبن والخوف ، فتظهر صور متعددة للرياء والكذب طمعاً فى النجاة ، وخوفاً من سطوة الحاكم وبطشه ، وفى مثل هذا الجو تنتشر البطالة ، ولا تتكافأ الفرص ، فيتعلم الشعب الحقد والنقمة ، وهذان يدفعانه إلى التفكير فى التدمير والهدم ، ولا شك أن الاستبداد كما يرى الكواكبى(١) خلق تصطبغ به الأمة ، وينتشر من أعلى إلى أسفل، فالحاكم المستبد يسقى من يليه كأس الاستبداد ، وهم بدورهم يسوغونها لمن تحتهم حتى تصل إلى الفراش فى المدرسة، والكناس فى الشارع ، والخفير فى دوار العمدة ، والعسكرى فى محل عمله

هذا الجو السياسى المرتبك يهيء التربة الخصبة للجريمة ويغذيها بمفاسده وأقذاره ، ويرعاها نبتة صغيرة حتى تكمل ويشتد عودها، فينشأ جيل حائر المفاهيم ، ملتبس السبل ، قد أغشت عينيه المظالم والمفاسد والرذائل الخبيثة . . .

وستكون السجون هى الأخرى صورة للسطو والإرهاب والقسوة وإهدار الآدمية ، فلا يزال النزلاء يذكرون أيام ان كان الانجليز يسيطرون على السجون المصرية سيطرة تامة ، وينفذون

---

(١) كتاب طبائع الاستبداد

فيها سياستهم الإجرامية ، ويتلذذون بمناظر الجلد ، ولقد بلغ الاستبداد بمدير السجون « وتنجهام باشا » أنه كان يحضر جلد مئات المسجونين — هو وخليلته وغيرهما — ويمتع الحاضرون أنفسهم بمنظر الدماء المراقة ، ولا يتركون النزيل حتى يستحلف(١) وتنجهام بخليلته ويقول : « فى عرض الست » أو « فى عرض كلب الست » وفى مثل هذه الظروف قلما تزدهر فضيلة ، أو ينمو خلق عالٍ كريم ....

(ب) العقاب :

إذا تساوت الإساءة والإحسان ، ولم يختلف جزاء الخيرين عن الأشرار ، وإذا أطلق للناس الحبل على الغارب فتصرفوا بمحض رغباتهم الشخصية وعلى ضوء هواهم وميولهم ، إذا حدث ذلك ، فستنقلب الدنيا رأساً على عقب ، وستصبح غابة يسكنها فئة من الوحوش والحيوانات المفترسة لا جماعات من البشر ..

إن من الأمور البديهية هو الثناء والتشجيع ومكافأة المحسن حتى يمضى فى طريقه قدما إلى الأمام ، ويضع بعض اللبنات فى بناء السعادة الانسانية لنفسه وللناس ، وكذلك من المسلم به أن المسىء يجب أن يوقف عند حده ، وأن يستنكر بطريقة ما ، وأن

---

(١) مجلة السجون (مارس سنة ١٦٥٨)

يوضح له مدى ما اقترف من إثم ، وما جلب من أضرار للمجتمع الذى يعيش فيه . . .

فالجزاء — أعنى جزاء المحسن والمسيء — كل حسب عمله — فطرة فطر الناس عليها منذ الأزل ، وطبيعة إنسانية أقرتها المجتمعات المختلفة على حقب التاريخ ، فوضعت للمجرمين العقوبات المختلفة التى تطورت وتغيرت بتغير الأيام والأحداث التاريخية ، هذه حقيقة أيدتها الأديان ، وأقرتها الفلسفات المتباينة ، واعتبرت هذه الحقيقة عنصراً من عناصر الحياة ، وأداة من أدوات الوئام والسلام والعدالة الاجتماعية .(١)

ولقد كانت البشرية فى فجر حياتها تتبع فى نظم عقابها طرقا أقرب إلى الوحشية والسذاجة منها إلى أى شىء آخر ، كان القتل هو السمة البارزة فى العقوبة ، لأنه كان حاسماً سريعاً ، فكان قدماء المصريين يحكمون على الكاذب فى قسمه بالقتل ...

ثم أخذت البشرية تحبو فى طريق الحياة بتؤدة وهدوء ، فلم يكفها الموت وحده ، بل عمدت إلى لون من التعذيب والتمثيل حتى تجعل من الموت شيئاً صعباً أليما فى حد ذاته ، فهذا يموت حرقا ، وهذا يقذف به من حالق ، وآخر تقطع أجزاؤه قطعة قطعة حتى يتهاوى ، أجل . . لقد تعقدت عقوبة الموت بتعقد الحياة . . . . ثم سارت الأيام فى طريقها ... ورأى الناس أن الموت لسبب قوى

(١) توجد عقوبات عجيبة فى قانون البراهمة فى الهند ، وفى «الياسق» الذى دونه جنكيزخان فيما بعد .

أو ضعيف نوع من الظلم والمغالاة تنفر منه النفوس السليمة ، والضمائر الحية ... فأنشئت السجون ليحجز فيها الخطرون بدلا من قتلهم ، ولم يخطر ببال البشرية حينذاك أن ترك المجرم فى هذه السجون وحيدا فى عزلة تامة عن المجتمع سوف يعطى الحاكم فرصة أخرى كى يتشفى ويطغى بطريقة تجعل الموت فى حد ذاته أمراً مرغوبا فيه ...

فى أثناء زيارتى لقبرص عام ١٩٥٤ نزلت فى ميناء « ليما سول » وعند زيارتنا لمعالمها ومتاحفها دخلنا إلى قلعة قديمة يرجع تاريخها إلى عهد بعيد ، وكان بهذه القلعة سجن رهيب ذو قبو موحش ، وساحة مظلمة رطبة محفورة فى الأرض على عمق بعيد الغور ، وحينما دلفنا إلى هذه المغارة الكئيبة الرطبة ، وجدنا آثاراً لهياكل بشرية بالية ، ولقد علمنا أن هذه الساحة العميقة كانت فى الماضى سجنا . . . أما طريقة إدخال السجين إلى هذا المكان الموحش فكانت غاية فى الفظاظة والقسوة ، إذ يقذف به من كوة فى أعلى البناء ، وقد يموت ، وقد تتحطم عظامه ، فإذا لم يمت بقى فى هذه الساحة لفترة قد تطول — حسب تحمله — وقد يقذف إليه ببعض اللقيمات الجافة . . المهم أن هذا السجن الغريب لم يكن ليفرج عن أحد من نزلائه .

وظلت البشرية على هذا النمط من التخبط والعنف والإرهاق

حتى جاءت الأديان وردت إلى المجرمين كثيراً من الاعتبار والرحمة والمعاملة المعقولة ، وقيدت العقوبات بقيود دقيقة وخاصة الشريعة الإسلامية — ومن قبلها الشرائع الرومانية ، وكان أهم العقوبات من النوع الجسدى الإيلامى .

* * *

ثم فلسفوا العقوبة أخيراً وجعلوا لها أغراضاً معينة .

أولا : اعتبارها جزاءً عادلا للمجرم كأمر طبيعى .

ثانياً : اعتبارها أداة من أدوات الزجر والردع .

فالمجرم الذى يقترف الإثم ويعاقب عليه بأية عقوبة كانت ثم يحس أنه إذا كرر الإثم فسيتكرر العقاب ، وقد يتكرر بصورة أشد ، لعل العقاب عندئذ يكون مدعاة لعدم مقارفته للجريمة مرة أخرى .

ثالثاً : اعتبار العقوبة وسيلة من وسائل الإصلاح . .

أما بالنسبة للغرض الأول — كجزاء عادل — فإنه أمر طبيعى إذا ما روعى فيه اعتبارات عدة ، وتحرى المشرع والمنفذ الدقة والإنصاف والفهم السليم . وأما من ناحية الزجر والردع . فقد ثبت أن الأساليب التى اتخذت فى القرن الماضى وأوائل القرن الحالى (وحتى فى أيامنا هذه فى بعض البلدان) لم تؤد إلا إلى

عكس المطلوب منها ، لأنها لم تقم وزناً للاعتبارات الاجتماعية ، والحالة النفسية والصحية بالنسبة للمسجونين ، وبالتالى أصبح الغرض الثالث من العقاب — وهو الإصلاح — غير ذى موضوع..

فكيف كان ذلك ؟ ؟ ؟

فلننظر مثلا إلى العقوبات فى السجون — باستثناء عقوبة الإعدام — ولنبحث وراء هذه العقوبات ونرى أثرها فيما نحن بصدده ، ولكى نتأكد هل أدت إلى ما تنشده من غايات فى مصر أم لا ؟

* * *

(١) عقوبة الأشغال الشاقة :

كان المقصود من هذه العقوبة — مؤقتة كانت أو مؤبدة — هو تكليف النزيل بعمل شاق جداً كنوع من أنواع الإيلام ، ووسيلة من وسائل صرفه عن التفكير فى الجريمة مرة أخرى ، لأن الأعمال الشاقة وما تتطلبه من جهد وإرهاق شديدين ، كفيلة — كما يظنون — بعمل انقلاب عظيم فى شخصية السجين ، وكان المفروض أن هذا الانقلاب الخطير سيكون وسيلة من وسائل القضاء على الجريمة والتفكير فى عدم مقارفتها مرة أخرى . .

وكانت ومازالت — عقوبة الأشغال الشاقة تتمثل فى ليمان طره وأبى زعبل ، فلنلاحظ نزلاء هذين الليمانين . ولندرس

حالتهم فى تمعن وروية حتى نرى ما أنتجته هذه العقوبة من آثار بالنسبة للنزيل نفسه ، وبالنسبة لإحصائية الجرائم ، وبالنسبة للإنتاج الذى يقابل المجهود الضخم الذى يبذله النزلاء .

فبالنسبة للنزيل ؛ كانت هذه العقوبة كما قلنا معولا يهدم فى صحته بلا هوادة ، إذ أن المطلوب منه هو مقطوعية معينة يلزم بأدائها ، ومن لم يؤد هذه المقطوعية عوقب أشد العقاب ، إذ يرسل إلى « التأديب » — أو « الحمراء » كما يسمونه — ويشتغل فى الفرقة المخصوصة لأيام معينة يحكم عليه بها ، والفرقة المخصوصة هذه فرقة المقصرين فى المقطوعية ، ويطلب منها عمل مضاعف . .

وما أكثر الذين يجلدون من جراء هذه المقطوعية . .

وما أكثر أولئك الذين اصطنعوا العاهات المختلفة حتى يريحوا أنفسهم من شرها وويلاتها .

إن هذه العقوبة تهدر إنسانية النزيل ، وتغرس فى نفسه ألواناً من المقت والحسرة والرذائل التى لا حصر لها ، إنها تنهكه جسمياً وروحياً . وتجعل حياته ضائعة تافهة ، وتجعله يكفر بذلك المجتمع الذى يذيقه الويل والهوان ، فضلا عن تعرض النزيل للخطر فى هذا العمل عند اشتعال الفتيل ، وعند تساقط الصخور دون سابق إنذار ، مع ملاحظة أن نظام التعويض المالى لا يطبق على العمل فى السجن .

أما أثر هذه العقوبة بالنسبة لإحصائية الجرائم ، فهو واضح لدى الجميع — حسب تقريرات علماء الجريمة والعقاب وعلماء النفس أيضاً — فالجرائم فى ازدياد ، والمذنب لا يرتدع ، ونفسيته تزداد تعقيداً على تعقيد ، وانحرافاً على انحراف .

ومع أن المسجون يبذل فى الأشغال الشاقة[1] عصارة حياته ، ويريق على سفح الجبل ماء شبابه وآماله إلا أن النتيجة المادية التى تجنيها الدولة من وراء عمله الشاق هذا فى منتهى التفاهة..إنها عقوبة سيئة الأثر بالنسبة للنزيل نفسه ..

وهى عقوبة لم تغير من نظرة النزيل للمجتمع بل ازدادت هذه النظرة حقداً وبغضاً ..

وهى من الزاوية الإنتاجية البحتة شىء لا يؤبه له ..

ثم هناك أمر هام ..

هل الأشغال الشاقة حيث قطع الأحجار ونقلها مما يؤهل النزيل تأهيلا مهنياً ؟؟ هل هذا عمل يستفيد منه النزيل إذا ما ودع عالم السجن إلى عالم الحرية ؟؟ أتراه سوف يفتتح محجراً يرتزق منه؟؟؟

إن عقوبة الأشغال الشاقة هى أولى المشاكل الجديرة بالاهتمام والرعاية ، وتحتاج إلى حل سريع حاسم حفظاً لإنسانية النزيل ،

---

(١) يؤدى المسجون فترة معينة (ثلاث سنوات) فى الجبل ، وليس مدة الحبس كلها ..

وضمانا لسلامة المجتمع ، وحرصاً على زيادة الإنتاج المادى النافع وسننصح بما نراه فى مكان آخر من هذا الكتاب .

٢ — ورشة النسيج :

إن من زاروا السجون أو قضوا فيها وقتاً كافياً ، وشاهدوا ورش النسيج والنظم المتبعة فيها ، والعمل الذى يقوم به « ريس » النول ، إن هؤلاء يدركون مدى ما يقاسيه « الريس » من آلام ومتاعب وهو يشتغل على هذه الآلة العتيقة — أو بمعنى أصح — الأثرية . .[1]

لقد كان كثير من النزلاء يحتالون بشتى الوسائل على الفرار من هذه العقوبة ، وقد يدفعهم ذلك إلى التفكير فى أن يرشوا طبيب السجن كى يمنحهم « درجة طبية » تعفيهم من هذا العمل الشاق ، وقد يلجأون إلى طرق أخرى أشرنا إليها من قبل . .

« فريس » النول مطلوب منه هو الآخر « مقطوعية » مثل المحكوم عليه بالأشغال الشاقة فى الجبل تماماً ، يجب أن يقوم بإنتاج عدد معين من الأمتار . وإلا فهناك التأديب حيث نقص الغذاء والغطاء والحبس الانفرادى ، وأشياء أخرى كثيراً ما تحدث [مثل : الصفعات والركلات والضرب على القفا ، والضرب على الأقدام بالخيرران . . . الخ] .

---

(١) أدخلت آلات نسيج حديثة في سجن القناطر كتجربة في عام ١٩٥٧ .

كنت أرى بعض النزلاء وهم يلهثون على النول محاولين قدر الإمكان الانتهاء من المقطوعية المطلوبة منهم ، والعرق يتقاطر على وجوههم النحيلة المكدودة ، وعيونهم قد كلت من كثرة التدقيق ، ثم إن أغلبهم لم يكن يجد الوقت الكافى لينتقل بعيداً عن النول حتى يتناول غذاءه ، بل يكتفى بأن يلتهمه التهاماً وبسرعة عجيبة ، وهو جالس فى مكانه على كرسى النول حتى لا يضيع الوقت ، وحتى يواصل عمله خوفاً من التأديب وآلامه .. بل إن كثيرين منهم كانوا يتكاسلون عن أداء فريضة الظهر ....

ولن أنسى أحد الذين أصيبوا بالجنون فى « سجن ما » ، وكان يقف وسط تهريج النزلاء وضجيجهم وضحكهم وهو يرقص برجليه وذراعيه رقصة تشبه إلى حد كبير الحركات التى يقوم بها « ريس » النول أثناء العمل ، وكان النزلاء يطلقون على هذه الرقصة « رقصة النول » ..

كما وأن تصميم الورش من وجهة النظر الصحية يدعو إلى الرثاء، ففى الشتاء باردة الجو ، وفى الصيف خانقة شديدة القيظ ، وبصاق النزلاء يتناثر هنا وهناك على الأرض التى ترتطم بها أقدامهم الحافية المتشققة فى أغلب الأحيان ، مما يجعل الإنسان فى مثل هذه الحالات يفضل الجبل وما فيه من آلام ومشاق على حالة الورش وهي في صورتها الراهنة المزرية ..

وفى مثل هذه الحالات ترى الحقد ينمو ويزداد ضد المجتمع، وترى الحالات المعنوية والجسدية تسوء، تماما مثلما يحدث بالنسبة للمشتغلين فى الجبل ..

وقد يقال إن تعلم السجين يؤدى إلى امتهان عمل شريف يرتزق منه المسجون بعد الإفراج عنه ، وهذا لا يكون مبررا لما يلاقيه النزيل فى ورشة النسيج من آلام وآثار بعيدة المدى ، شديدة الخطورة ، فضلا عن أن اختيار المسجونين فى ورشة النسيج لا ينبنى على أساس سليم من الاختيار ومراعاة ميول النزيل . . فهذا نزيل من قرية نائية ومن أسرة فقيرة نشأ وعاش فلاحا ، ومع ذلك فلا بأس من تصنيفه فى ورشة النسيج .. وهذا طالب أزهرى أخذ بثأر أبيه .. وهذا طالب من كلية العلوم هتك عرضا .. وهذا موظف مرتش كل هؤلاء لا بأس من تصنيفهم فى ورش النسيج .. أما ميولهم أما استعداداتهم العملية .. أما مستقبلهم المهنى فهو لا شىء البتة ..

أما ورشة « الترزية » فقد يظن القارىء عند سماع إسمها أنها ورشة معدة ومجهزة تجهيزا جباراً بحيث تنتج انتاجاً ذا قيمة وبحيث تؤهل النزيل لكى يكون « ترزيا » إذا ما قضى مدته وخرج إلى الحياة ، والحقيقة التى رأيتها بنفسى (سجن أسيوط مثلا) أن النزلاء لا يخيطون إلا ملابس السجن ، وهذه لا تحتاج لشىء من البراعة أو الدقة ، كما أنها لا تستعمل فى الخارج ، والحياكة ليست على

ماكينات حديثة أو غير حديثة، بل حياكة يدوية بالابرة [١] ...
صحيح أن العمل قد يكون فيها مربحا ، لكن ما جدواه ؟ وما الفائدة الحقيقية التي يجنيها النزيل من ورائه ؟؟ [٢]

لا مراء في أن هذه الوسيلة من العمل سواء في ورشة النسيج أو ورشة التربية عبث في عبث ، وضياع الوقت والمجهود ، دون فائدة تذكر ، واحتقار لآدمية النزيل ومستقبله ووقته مهما كانت جريمته .. إذ أننا لا يصح أن نجرم نحن أيضا في حقه ..

لهذا لم يهمل مؤتمر « جنيف » هذه الناحية الهامة حيث قرر في البند الأول من توصياته قائلا : « يجب ألا يعتبر العمل في السجون كعقوبة إضافية ، بل يجب النظر إليه باعتباره وسيلة لتيسير اندماج المسجونين في الهيئة الاجتماعية ، وإعدادهم لمزاولة مهنة ، وتلقينهم حب العمل ، وعاداته المحمودة ، ولمكافحة البطالة والفوضى بينهم »

* * *

إن العمل في السجون مازال يفتقد التنظيم الدقيق ، والإعداد الكافي ، والأجور يجب أن تبحث هي الأخرى بحثاً جدياً ، والعمل يجب أن ينوع وينظم بحيث يستوعب أكبر عدد من الحرف حتى يستطيع أن يفي بمطالب النزلاء وميولهم المختلفة ،

---

(١) في حالات نادرة تستعمل ماكينات الحياكة

(٢) يلاحظ أن « المكوجية » في السجون تعتبر عملا ناجحاً فعلا

أو يكون — بمعنى أصح — مدرسة فنية لتزويد النزيل بالقواعد والتدريبات العملية الكافية التي تجعل منه في المستقبل صاحب مهنة شريفة يحبها ويقبل عليها في المجتمع ...

فالتأهيل المهني حتى الآن — ورغم نوايا رجال السجون الصادقة وتصريحاتهم الآملة — مازال في أضيق نطاق ، وإن عدد النزلاء الذين يشتركون في الجامعة الشعبية وفروعها قليل جداً ، والذين يؤهلون تأهيلا مهنياً حتى الآن عدد لا يعول عليه ، ولا يحل المشكلة من أساسها ..

وأصدق دليل هو الواقع ، والوضع الحالي في السجون يؤكد ما نرمي إليه ، وزيارة واحدة بعيدة عن الرسميات وعن أضواء الصحافة والدعاية كفيلة بتمييز الزيف من الحق ..

ونحن بذلك لا نبخس رجال السجون حقهم ، ولا ننكر الخطوات المباركة التي غيرت كثيراً من وضع السجون ، وأدخلت فيها كثيراً من الإصلاح ، ولكننا ننشد الوضع الذي يجب أن يكون ، ونهدف إلى الغاية الإنسانية النبيلة وهي علاج المجرم وإعادة إدماجه في المجتمع كمواطن صالح له عمل يعصمه من الزلل والضلال مرة أخرى .

فلا يصح أبداً أن يقف الإيراد الجدد في طابور طويل قد يربو على الخمسين سجيناً ، أمام مأمور السجن أو وكيله من أجل

تصنيفهم فى دقائق معدودة ، إذ يقف المسجون برهة أمام المأمور — أو من ينوب عنه — فيسأله عن اسمه ، وينظر إلى شكله ويقول له :

— إمش . . . إنت فى النسيج . .

— وانت . . . ترزية . .

— وانت . . . مكوجية . . . و . . . إلخ

هذا يحدث فى سجوننا فى الوقت الذى تقوم فيه بعض الدول الأخرى بتأليف لجنة ذات ثقافة واسعة ، واختصاص دقيق لفحص المسجون جسمانياً ونفسياً ، وتبين ميوله وأهوائه ، ووضعه تحت الاختبار مدة لا تقل عن ثلاثين يوماً يحظى أثناءها بمقابلة كل أخصائى على حدة ، ثم تكتب عنه التقريرات المفصلة ...

وما يحدث لسجيننا عند المأمور أو من ينوب عنه ، يحدث أيضاً عند الطبيب الذى يفحصه فحصاً عابراً لا يكفى أبداً لوضع تقرير دقيق عن حالته الصحية التى تتناسب مع العمل الذى سوف يعمل فيه .

٣ — عقوبة الجلد :

الجلد هو إحدى العقوبات البدنية التى يتلقاها النزيل داخل السجن إذا ما أتى بمخالفات معينة نصت عليها اللائحة ، وعقوبة الجلد لها شروطها واعتباراتها الخاصة ، لكن الذى كنت أعرفه

عن العهود السابقة أن هذه العقوبة كانت وسيلة للتشفى والانتقام ، وشعاراً للإرهاب والقسوة ، فقد كان المذنب يجلد أحيانا أكثر من العدد القانونى المحكوم عليه به ، وأحيانا أخرى كانت طريقة الجلد نفسها تؤدى بصورة قاسية مخالفة للائحة ، وقد يحدث الاثنان معاً : زيادة فى « الكم » ، وشدة فى « الكيف » . . وربما أضيف إلى ذلك بعض اللكمات وما شابهها . .

هذا ما كان يحدث فعلا ، وكان على السجين أن يتقبل ذلك صاغراً فإذا تظلم فلن يسمع اظلامته أحد ، وإذا استشهد بأحد جبن من هناك على أداء الشهادة ضد الرؤساء ، لأن « الجلدة » مازالت موجودة ، والأيام بيننا » كما يقول المثل ، وكل سجين يخاف أن تحمل له الأيام المقبلة شرا فى ثناياها ، لهذا يحاول أن ينأى بنفسه عن مواطن الخطر ، ولا داعى لأداء الشهادة . .

ومثل هذه الظروف والتصرفات لها أثرها البعيد فى أخلاق النزلاء فتطبعهم بطابع الجبن والكذب والرياء ، وتقلل من كرامتهم وإنسانيتهم ، وهم مساكين لأنهم مرغمون على ذلك إرغاماً .

وعلى أية حال فإن القسوة المشار إليها فى الغالب لا تحدث إلا فى المرات التى يكون بها صدام شخصى بين النزيل وبعض رؤسائه ، لكن أصول العدل ، ومراعاة الضمائر ، والتقديس لحق القانون ، كل ذلك يقتضى منا أن نكون منصفين . « يا أيها الذين آمنوا كونوا

قوامين لله، شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . إعدلوا هو أقرب للتقوى . . . » « صدق الله العظيم »

وللنزلاء أغانى يرددونها عن أهوال العروسة، فيقول أحدهم عن نفسه :

وإن قالوا ساب العروسة وعندها الشربات
قولوا له فى السجن ياما تتنصب عروسات(٢)
ليها إيدين من خشب وكان لها فتحات
عاهرة ما ترحم ولا تشفق على الجراحات
وإن قالوا ماأذنكو مين ، قولوا أبو شنبات(٣)

ولقد رأى البعض إلغاء عقوبة الجلد نهائياً . .

غير أن هذا النوع من الإيلام الجسدى إذا ما قورن بآلام الجبل ومشاقه أصبح أمره هينا ، وخاصة إذا ماروعى فى الجلد الرفق والتوصيات الطبية القانونية ، وأداء المنفذ بروح الإنصاف والعدل

وقد أحسنت اللائحة الأخيرة (٤) صنعاً إذ ضيقت نطاق عقوبة

---

(١) سورة المائدة (الآية ٨) .
(٢) الآلة الخشبية المعدة للجلد .
(٣) أبو شنبات سجان مشهور بالقسوة
(٤) لائحة السجون عام ١٩٥٦ .

الجلد وجعلتهاقاصرة على التمرد الجماعى والعدوان على موظفى السجن..

والعقوبات البدنية المعقولة مقررة من الوجهة الدينية والقانونية ، ولا يمانع فيها كثيرون من رجال التربية ، كما أنها نوع من القصاص الذى أراه مناسباً للجرم ، فهذا المسجون الذى يعتدى على سجان بالضرب ، من الأوفق أن يضرب هو الآخر ، وخاصة أن الجلد إذا ماروعى فيه الدقة والإنصاف والقانون كما قلنا ، فلن يكون فيه كثير من التحقير لشخصية السجين أو إهدار آدميته ، بل سيتقدم فى وقار إلى « العروسة » ، ثم يخلع ملابسه فى هدوء دون زجر أو ضرب ، ثم يربط ويجلد العدد المقرر ، ثم يفك من العروسة ، ويترك لحال سبيله دون شماتة فيه أو سخرية منه . .

قد تكون هذه الصورة مرضية نوعاً ما ، وقد يكون تأثيرها السيء أقل بكثير من التأثير الذى كانت تتركه أيام « وتنجهام » باشا الذى كان يتسلى بالجلد لأوهى الاسباب وكذلك الايام التالية لو تنجهام أيضاً . .

٤ — عقوبة الحبس الانفرادى :

كان الحبس الانفرادى فيما مضى لعنة تحل بالسجين ، وتحطم آدميته ، وتدمر كيانه تدميراً ، وقد كان يحدث فى بعض الأحيان أن يقضى السجين فى الحبس الانفرادى سنوات ، وحيث الظلام الدامس بالليل ، وحيث الوحدة القاتلة ، والملل الفظيع ليل نهار ،

ولمثل هذه الوحدة القاسية أكبر الأثر على القوى العقلية والنفسية والبدنية كما سنرى . .

ولقد تناول الباحثون هذه المشكلة ـ مشكلة الحبس الانفرادى ـ بالبحث والتمحيص الدقيقين ، وقرروا تضييق نطاقها لدرجة كبيرة ، غير أنى لاحظت أن السجين الذى يكون (تحت محضر) يترك ما يقرب من شهر فى الحبس الانفرادى فى انتظار الجزاء الذى سيرد من المصلحة وقد يكون هذا الجزاء يومين أو خمسة أيام ـ مع أن النزيل يكون قد قضى شهراً بأكمله فى التأديب (الحبس الانفرادى) .

وعلى العموم فالحبس الانفرادى قد يكون فيه شىء غير قليل من الفائدة بالنسبة لذوى الثقافات والذين يميلون للإطلاع والدراسة والإنتاج الفكرى ، ولقد أفاد منه نهرو وغاندى وغيرهما إفادة كبيرة ، كما أفاد منه فى الماضى البعيد الإمام أحمد تقى الدين ابن تيمية العالم الكبير والمصلح العظيم . . . لكن ليس معنى ذلك أن يقضوا كل وقتهم أو أغلبه فى هذا الصمت المطبق ، والوحدة التى تبعث على السأم والضيق . .

والمعروف أن الحبس الانفرادى لما يكتنفه من هدوء وصمت عميق يدفع السجين إلى أفكار شتى ، فيفكر فى بنيه . . فى زوجه . . فى أسرته على وجه العموم . . ويفكر فى مستقبله الضائع ومستقبلهم ويفكر فى فرص الحياة التى طارت من يده ، ويفكر فى أصدقائه

ومعارفه الذين لم يكتب عليهم السجن ، ومضوا فى موكب الحياة سعداء آمنين ناجحين . . ثم يفكر فى الآلام التى يلاقيها فى السجن، والمحن التى تمر به واحدة إثر أخرى . . ثم ينظر إلى ثيابه ذى الطابع المعين . . وينظر إلى جردل البول فى ناحية ، وجردل ماء الشرب فى ناحية أخرى ، ويمعن النظر فى البرش الذى يرتمى عليه . . وفى الأكل المصروف . . وفى حرمانه من حريته . . من نشاطه الجنسى . . من . . . من . . . من . . الخ ، فتدور رأسه ، ويشعر بالكبت الشديد ، ويحس بالمقت والكراهية نحو الناس والحياة . .

لهذا يصاب كثير ممن يعيشون لمدد طويلة فى الحبس الإنفرادى بنوبات عصبية ، وعقد نفسية شديدة يكون لها الأثر البالغ فى حياة المسجون مستقبلا ، ولقد صور أحد النزلاء زاوية من هذه المشكلة بقوله :

أنا ليلى كله ضلام ومفهش حتى شعاع
ونومى على البرش خلى جتتى أوجاع
« ويمك » كما الغاب لكن فى السجون نعناع[1]
والنمل يزحف علينا م الحروم أليات
اسأل عليه « الجبيصى » واسأل أبو شجاع

وعلى العموم فإدخال النور إلى حجرات النزلاء قد خفف لدرجة

(١) اليمك = طبيخ السجن .

ما آثار هذه المشكلة ، لكن الوسيلة الوحيدة للتغلب على الوحدة والتفكير الشاذ فى الحبس الانفرادى هى القراءة ، لكن لو علمنا أن أغلب النزلاء ممن لا يلمون بالقراءة والكتابة ، أو ممن لا يعرفون غير القراءات الطفيفة الخفيفة ، ولو علمنا أيضا أن الحبس الانفرادى قد تصحبه عقوبة الحرمان من بعض الميزات مثل الكانتين .. وقراءة الصحف .. والرياضة لأدركنا أنه مازال مشكلة، وخاصة للذين هم (تحت محضر) حيث يقضون حوالى الشهر فى تلك الوحدة القاسية دون أن يقرءوا أو يعملوا شيئاً ..

وهناك بعض النزلاء الذين يفضلون أن يعيشوا فى زنزانة انفرادي Individual cell بمحض رغبتهم للإطـلاع أو الفرار من مشاكل المجموع أو لحب العزلة ..

٥ — عقوبات غير معترف بها :

أجل هناك عقوبات قد تكون أقسى من الجلد نفسه، وقد يكون تأثيرها فى النفس أبعد مدى من شغل الجبل وشغل ورشة النسيج اليدوى ، وهذه العقوبات لم تبحها اللائحة ، وإنما هى شبه عرف أو أمر مقرر للحط من إنسانية النزيل ، والنيل منها ، فمثلا هناك عقوبة الصفع والضرب على القفا والركل والضرب بالقايش والخيزران . . . و . . . و . . . الخ

إن أمثال هذه العقوبات تحدث ببساطة وفى معظم الأوقات مع أنها ليس لها مايبررها من الوجهة القانونية، وكثيراً مايثور النزيل ويحتج على هذه المعاملة ، وخاصة إذا كان ممن هم على علم باللوائح والنظم ، لكن احتجاجه يذهب أدراج الرياح ، فلن يجد فى الغالب من ينصفه مما يجعل النزيل فى بعض المرات يضرب عن الطعام ، ويطلب النيابة للتحقيق ، وقد يمتد إضرابه إلى عشرة أيام أو أكثر، لكن فى العادة إذا ما جاءت النيابة فإن آثار الصفعات والركلات تكون قد انتهت لهذا يلجأ السجين إلى إحداث جروح أو إصابات فى جسمه أو فى عينيه أو تشريط جبهته وبطنه بشفرة حلاقة حتى يوهم المحققين أن الذى اعتدى عليه من الإداريين قد تعمد الإضرار البالغ به . .

إن عقوبة الضرب — تلك العقوبة العرفية — يجب أن يوضع لها حد ، فهى لا تتفق مع المنطق، ولا تتمشى مع القوانين الإصلاحية ولا تبعث فى نفس السجين الاحترام والثقة بالنسبة لرئيسه، ولكنها تأتى بنتائج عكسية ذات أضرار بالغة . . .

* * *

ومن هذه العقوبات أيضاً — أعنى العقوبات التى لا تقرها اللائحة — السب والشتم بأقذع الألفاظ ، وكثيراً مايقذف السجان بهذه الشتائم فى ثورة ، وغضب وقد تتناول الأب والأم والدين وما إلى ذلك . .

ولا ننكر أن بعض السجانين يربأون بأنفسهم عن هذا السلوك الذى يتنافى مع العفة والخلق الكريم ، والذى يأباه الدين والذوق السليم . فإذا كان السجن مدرسة إصلاح كما يقولون فلا يصح أن يتلقى النزيل فى هذه المدرسة تلك العبارات النابية و « الاصطلاحات » الخارجية ، التى يحاول بدوره أن يطبقها على زملائه ، ومثل النزيل فى هذه الحالة كمثل التلميذ الصغير الذى يقلد أستاذه فيما يصدر منه من تصرفات وحركات وكلمات وطرق فى التعبير والأداء . . . . وليلة واحدة يبيتها الزائر داخل عنبر المسجونين يستطيع أن يسمع « قاموساً » كاملا من هذه الألفاظ النابية مثل :

— « ربنا يهدها ياأولاد . ال . . . . »

— « بطل مواويل ياابن . ال . . . . »

— « عاوزين ننام ياابن . ال . . . . . » و . . . . و . . . إلخ .

والفاظ أخرى كثيرة لايستطيع الإنسان أن يدونها .

وتقليد النزلاء للسجانين لا يقف عند الشتائم ، فلقد كان أحد المسجونين « النوبتجية » مصنعاً فى التأديب فى ليمان أبى زعبل ، وكان هذا النزيل يعاون الجاويش ويحمل عصا غليظة يضرب بها النزلاء الموجودين فى التأديب نيابة عن جاويش التأديب ، بل كان أقسى منه وأغلظ قلباً . . وهناك أمثلة كثيرة على ذلك . .

هذا ، وليس معنى ذلك أن كل نقيصة فى النزيل يكتسبها من السجان ، ولكن أردنا أن نبين أثر السلوك القاسى الشاذ الذى يسلكه السجان فينطبع فى كثير من الأحيان على تصرفات السجين

* * *

ومن أقسى الأشياء على النزيل هو إهدار فرديته ، ومعاملته معاملة تحمل فى طياتها التجاهل والزراية والاحتقار ، مثال ذلك أن السجان كثيراً ماينادى قائلا :

— « تعال هنا يامسجون » .

— امش هنا ياولد . . »

— « البنى آدم اللى هناك ييجى هنا . . الخ هذه العبارات التى تقال حتى لبعض الأفراد الذين يعرف الجاويش السجان أسماءهم ، ولا شك أن مناداة السجين باسمه تكون عذبة على سمعه ، وفيها إشعار بالرابطة والاهتمام والتودد ، ولقد صور تشارلز ديكنز هذه الظاهرة فى كتابه « قصة مدينتين » حيث كان النزيل ينادى عليه بالرقم الذى يحمله فقط ، لهذا نرى سجن « فتزفيل » يضع على باب حجرة السجين بطاقة ليس بها رقم على الاطلاق ، ولا ينادى عليه إلا باسمه فقط .

إن النزلاء هم أحوج الناس إلى لون من التقدير الشخصى والرعاية الذاتية التى تحمل فى طياتها شيئاً من رد الادمية والاعتبار لهم . .

وبعض السجانين يستعملون نداءات أخرى مثل :

— « تعال هنا ياحرامى . .

— « ادخل زنزانتك ياواد ياتسول . . »

— « امش من قدامى يانصاب . . .

« اسمع الكلام يامجرم . . »

هذه النداءات التى تحمل ألفاظها إسم جريمة النزيل تعطى له صورة قاتمة لاتفارقه . . . صورة الجريمة التى لم يغفرها له المجتمع، وينظر إليها نظرة الحقد واللوم والتأنيب ، والدليل على ذلك أن السجان مازال يرددها على سمعه ، ويلقيها إليه فى ثوب السب والإهانة . .

ولهذا السبب يحاول بعض النزلاء أن يهربوا من جريمتهم وينتحلوا بدلا منها جريمة أخرى أقل عاراً وفضيحة . .

قلت للنزيل « س » . . ماهى تهمتك ؟ ؟ »

فقال : سرقت محفظة . . »

وتبين لى فيما بعد بالتحرى أنه قواد وليس لصاً ، ويبدو أنه فضل أن يكون لصاً على أن يكون من تجار الرقيق الأبيض ، لظنه أن ذلك أخف وطأة من الاخرى، ويظهر أن المجتمع المصرى — كمجتمع متدين — ينظر إلى جرائم الزنا والبغاء نظرة اشمئزاز

ونفور ، ولهذا حاول « س » أن ينتحل جريمة أخرى . . .

ومن المناظر المؤذية التى أظنها من صميم العقوبات المقررة هى الاستحمام وتتم عملية الاستحمام كالآتى : يذهب طابور طويل من النزلاء إلى الحمام ، ثم يقف جاويش « المغسل » على باب الحمام ، ويأخذ من كل داخل بدلته ويتركه عاريا كما ولدته أمه - إلا إذا كان المسجون من ذوى اليسار فيشترى لنفسه ملابس داخلية ويوفر على نفسه هذا المنظر البشع — وبعد ذلك يحشر المسجونون حشراً فى الحمام وهم عراة تماما تحت الماء الذى يتدفق فوق رءوسهم . . . فهل وقوف السجين على هذه الصورة شىء مقبول ؟؟

وهل ازدحامهم واغتسالهم بهذا الشكل يتفق مع الانسانية التى ترجوها لهم ، والإصلاح الذى ينشده أولوا الأمر ؟؟

وهل لو صرفت لهم مصلحة السجون سترات صغيرة لا تتكلف سوى مليمات للفرد يسترون بها عوراتهم ، ويتجنبون تلك اللعنة (١) التى تنصب على الناظر والمنظور الى عورته ، هل لو تجنبت ذلك يضيرها شىء ؟؟

إننا نريد للنزيل أن يتسم بشىء من العفة والحياء . .

ونريد له إشعاراً بآدميته وإنسانيته . .

ونريد له ستراً وحفظاً

---

(١) هناك حديث نبوى شريف يقول : لعن الله الناظر والمنظور

فهل يحدث هذا إزاء عملية الاستحمام . .

وأعجب من ذلك أنى رأيت سجانا يصر على أن يخلع أحد النزلاء سترته التى يستحم بها حتى لا يتميز بها عن غيره ، فقال له النزيل :

— « إن الاستحمام على هذه الصورة عيب . »

فرد السجان مفلسفاً الموضوع بطريقة عجيبة :

— « ألست رجلا ؟؟ »

— « طبعاً . . . رجل » .

— « خلاص . . ما يهمكش . . . استحم عريان زيهم . . . »

إن مثل هذا السجان يحتاج إلى كثير من التوجيه والتعليم حتى يفهم الوسيلة الصالحة والسياسة الناجحة التى يجب أن يعامل بها المسجون ، وقد أحسنت مصلحة السجون صنعاً فى بدئها للدراسات الاجتماعية وغير الاجتماعية بالنسبة لكل من له دور فى الإشراف على السجون [١] . . .

وما أكثر الأمور العادية التى تمر مروراً سهلا ، ويخيل للانسان الذى عاش فى السجن لمدة طويلة أنها عادية لا تثير التفاتا ولا انتباها مع أنها تحمل من عناصر الفساد وسوء الأثر الشىء الكثير . .

فطريقة تفتيش النزيل فيها كثير من التحدى واستثارة المشاعر والاضطهاد ، وطريقة استلام الطعام وتناوله لا تتفق مع أبسط

---

(١) معهد التأهيل

قواعد الإنسانية، وقس على الحمام والتفتيش واستلام الطعام غيرها من الأشياء. إن النزيل إذا ما امتهنت كرامته، واحتقرت آدميته، لجأ إلى وسائل شاذة لإثبات وجوده، وتحقيق ذاتيته، لأنه لا يستطيع أن يعيش كما مهملا، وإنسانا محتقراً، فيريد أن يلفت النظر إليه بأية طريقة وبأى ثمن. فالمسجون ع. المجنون الذى ذكرناه آنفاً، يلجأ إلى حلاقة شعر رأسه وحواجبه وشاربه ولحيته بالموسى، فإذا ما نظرت إليه وهو فى هذه الحالة خيل إليك أنك أمام عفريت لا إنسان، وكلما مر المسجون ع. وهو على هذه الصورة أمام مسجون كان مادة للضحك والتعليق والسخرية، حتى أن مدير السجن لما رآه هو الآخر لم يتمالك نفسه من الضحك..

وبهذه الطريقة عرفه الجميع، وكل واحد كان يجاذبه أطراف الحديث، وأرضت هذه الوسيلة نفسيته، وسدت جزءاً من مركب النقص الذى يعتوره، فأخذ يكرر هذه العملية من آن لآخر..

وقد يلجأ بعضهم إلى تصنع الجنون واصطناع النوبات العصبية والعاهات كما سبق ووضحنا ذلك..

(لهذا يقول وزير الحربية والبحرية في إحدى كلماته[1]: «... إن السجون يجب ألا تكون أمكنة لبث الرعب، أو

---

(١) أنظر كتاب «السجون فى عهد الثورة»

لكبت المشاعر الانسانية ، أو لامتهان الكرامة ، بل يجب أن تتحول إلى دور لحل العقد النفسية التي تدفع المنحرف إلى انحرافه ، ومدارس لانارة العقول حتى تسلك في الحياة طريقاً قويماً ، ومصانع للتدريب على مهنة تقيم الأود ، وتساعد النزيل على حياة حرة كريمة بعد انتهاء عقوبته .. » .. لكن هل يطبق هذا الكلام ؟ ؟

ومن هنا جاءت أهمية « العلاج الفردى » ، وخاصة بعد أن ثبت فشل طريقة « العلاج الجماعى » ، لأن الأولى تشعر النزيل بمدى أهميته ، وتقدر ظروفه الخاصة ..

ومن هنا أيضاً اعتبر السجن — فى ظل النظريات الإصلاحية الحديثة — مكانا للعلاج والإصلاح ، بعد أن كان مكانا للانتقام والعقاب ، والإرهاق بشطريه الجسدى والروحى .

أثر السجن فى ذوى الجرائم السياسية :

هناك فئات من المسجونين لهم طابع معين ، وجرائم خاصة ، هؤلاء هم الذين يرتكبون جرائم ضد أمن الدولة ، باعتناقهم آراء معينة ودعوتهم الناس إليها بطريقة أو بأخرى ، والعمل على تطبيقها بشتى الوسائل ، وقد يلجأون إلى وسائل لا يقرها القانون ، وتعتبرها الدولة مما يهدد أمنها ، ويعكر صفوها ، ويؤدى إلى الاضطراب والفوضى واختلال النظام الداخلى ..

وعقوبة السجن يختلف تأثيرها فى نفوس أصحاب هذه الفئة ،

اختلافاً بيناً ، ويؤدى بهم إلى وجهات نظر غير متفقة . .

إن تعرضهم للعقاب ، وحرمانهم من حريتهم ، وضياع كثير من الفرص عليهم ، وعرض موضوعاتهم وقضاياهم للبحث والجدل والتمحيص ، يتيح لهم الفرصة كى ينظروا نظرة أعمق إلى ما يؤمنون به ، ويبدأوا التفكير من جديد فى حقيقته وأهدافه وبواعثه وهم ينقسمون طبقاً لتأثير السجن إلى أنواع ثلاثة :

النوع الأول :

وهم فئة المتحللين من مبادئهم ، والكافرين بها بعد أن ذاقوا ماذاقوا . وتعرضوا لما تعرضوا له من تضحيات جسيمة ، وبعد أن انقلبت المقاييس الفكرية عندهم ، فحسبوا أنهم كانوا على باطل ، وأنهم ظالمون متجنون لم يحسنوا التفكير ، ولم يوفقوا فى اختيار الطريق الأسلم الذى يفيدهم ويفيد مواطنيهم ، وهؤلاء يشعرون بلذعات الندم ، ويحاولون الخروج من هذا المأزق بصورة ما ، فلقد كان السجن بالنسبة لهؤلاء صفعة أيقظتهم من أحلامهم، وردتهم إلى عالم الواقع المرير، وحينما صحوا بدت لهم أمور جديدة وحقائق أخرى غير التى ألفوها من قبل ، وقد يكون ضمن هذا الصنف من الناس بعض الذين ينوءون بالتضحيات ، فيهربون من الميدان ويطلقون المبادىء التى آمنوا بها، لا لفسادها ولكن من أجل ما جرته عليهم من ويلات وآلام ومآسى ، لكنهم يفلسفون خورهم ، ويلتمسون له الأسباب

والمعاذير . وهؤلاء على عكس الذين تبين لهم أنهم كانوا خاطئين فعلا ، وأن ما ساروا فيه من مبادىء كان خداعاً وضلالا ، لكن كلا الاثنين ينضوى تحت عنوان واحد . . . أعنى فئة المتحللين . .

النوع الثانى :

وهم فئة المعتدلين الذين لفتوا النظر إلى مبادئهم فى ضوء ماجد من أحداث ، واختلف عليهم من أمور ، بعد أن ينحوا عواطفهم جانبا ويحكموا العقل والروية والإنصاف ، وهؤلاء يتبين لهم بعد الدرس والفحص أن ما آمنوا به قد شابه بعض الخطأ ، واختلط به نوع من الإفراط والمغالاة ، وهذه الفئة متى ثبت لهم الخطأ الذى ارتكبوه ، وعانوا منه كما عانى غيرهم، ينفرون منه بشدة،ويعترفون به فى شجاعة وصراحة . وهذا الصنف يقيم اعتباراً لوجهات نظر الآخرين والخصوم ، فلا يعميه تعصب ، ولا يلفته هوى عن إقرار الحق ، والاعتراف بالباطل . .

ولا شك أن تقديرهم لوجهات نظر الغير ، واعتصامهم بالحيدة والإنصاف فى تحليلهم لأعمالهم ، واعترافهم بأخطائهم أكسبهم تلك الصفة التى أشرنا إليها من قبل وهى صفة المعتدلين . .

النوع الثالث :

وهم فئة المتعصبين تعصبا أعمى لآرائهم وأعمالهم ، سواء الخاطىء

منهاو الصحيح، وهؤلاء يركبون رءوسهم، ويصرون على معتقداتهم، ويقفون إزاءها جامدين دون أن يتناولوها بالبحث والتمحيص، بل يبحثون عما يؤيد وجهات نظرهم، ويلتمسون البراهين العليلة، والأدلة الشاردة من هنا وهناك، كى يفلسفوا تعصبهم وجمودهم . . . وهم فى مثل هذه الحالة، قد يدفعهم الكبرياء، أو يسوقهم الجهل، أو يعميهم الحقد عن الوصول إلى السبيل القويم . . فينظرون إلى استماتتهم واستمساكهم الشديد بما يؤمنون به على أنه ضرب من البطولة والبسالة ويعتبرون تضحياتهم وإصرارهم نوعاً من الاستشهاد فى سبيل الغاية والمبدأ .

* * *

ولاشك أن وجود هذه الانواع الثلاثة راجع إلى اختلاف طبيعة تكوين كل منهم، وتباين قدر العلم لديهم، واختلاف نوع البيئة ومستوى المعيشة وقدرات التفكير، وراجع إلى مدى تحمل كل منهم لآلام السجن ومافيه من تضحيات وتعقيدات ونظم ... وراجع أيضاً إلى نظرة المجتمع والهيئة الحاكمة إليهم

ولقد لاحظت أثناء دراساتى لهذا الصف من المسجونين أن عدداً منهم يجعل الاعتبار الأول لمبدئه، ويجعله فوق الوطن، وفوق شخصه، وفوق كل اعتبار آخر، ويفضل أن يضحى بوطنه من أجل مبدئه، فإذا ماجادلته وحاورته قال: « إن استمساكى بهذا المبدأ وجعله

مثلى الأعلى هو لإيمانى بجدواه ، واعتقادى اعتقاداً جازماً بأن فيه الخير لوطنى وللناس جميعاً . . »

فإذا قلت له .

— « إن وجهات النظر قد تختلف ، ومسألة الحق والباطل مسألة نسبية ، فما تراه أنت حقاً قد أراه أنا على العكس من ذلك ، وماتراه نافعاً للوطن قد أرى أنا فيه الخطر الجسيم ، والضرر المحدق ... أليس كذلك ؟ ؟ »

— « كلام سليم . لكن لى وجهة نظرى التى أؤمن بها . . . »

— « إذن فلتكن هادئا رفيقاً ، فلعل خطأك يبدو لك يوماً ما . . »

— « المبادىء لاتعرف الموت والسلحفائية . . »

— « لكنها تعرف تقدير الظروف ، ومراعاة شتى الاعتبارات

— « أجل . . »

ثم ينصرف عنك حانقاً . . .

إن معالجة ذوى العقائد والمبادىء الخطرة لهى مشكلة صعبة تحتاج إلى كثير من الدقة والفهم ، فقد تستطيع أن تصرفهم عن آرائهم بالضغط والزجر ، لكن ستمتلىء ، نفوسهم بأشياء أخرى .. أعنى الحقد . والبغض وانتهاز الفرص .. التفكير فى الانتقام والثأر ..

الكراهية للمجتمع والدولة وما إلى ذلك من شتى ألوان الانفعالات الخطيرة ..

أثر العقاب فى معتادى الإجرام :

إن معتادى الإجرام فئة من المجرمين الخطرين الذين اتخذوا من مخالفة القانون عادة ، وجعلوا من الجريمة صنعة لهم ، فهذا يسرق ثم يسجن عشر مرات أو أكثر ، وذلك يمتهن النصب والتحايل والرشوة ويحكم عليه فى قضايا كثيرة ،وهذا يقتل بالأجر فيقضى على إنسان مسكين لقاء دراهم معدودات .

ويعتبر « أرباب السوابق » فرعاً من معتادى الإجرام ، والصلة بين الاثنين وثيقة ، فليس بينهما سوى خيط رفيع ..

من دراسة نفسية المجرمين المعتادى الإجرام والعائدين (١) ، لوحظ أنهم ينظرون إلى القوانين التى تنظم شئون المجتمع نظرة احتقار ولامبالاة ، فمن السهل عليهم أن يسطوا ويسرقوا ويجرموا مراراً وتكراراً متى أتيحت لهم الفرصة ، ولوحظ أيضا أنهم يتميزون بقدر كبير من حب الذات والأثرة أو الأنانية ، ولاشك أن سطوهم على حقوق الغير ، واختلاسهم لماليس لهم ، وارتكابهم جرائم متكررة مما يؤيد هذه الملاحظة ... ولهذا فالمجرم المعتاد الإجرام كسول متراخ لايريد أن يعمل ، ويلجأ إلى اللقمة التى فى

(١) أرباب السوابق

قم غيره فينتزعها فى قسوة وتبجح، ويضن على نفسه بالعمل والعرق والكدح الشريف الذى قد ينقذه مما هو فيه من وضع مُزرٍ محتقر..

والنزعة الدينية عند معتادى الإجرام ضعيفة واهية، فالواحد منهم يحب المتعة الدنيوية، واللذة السريعة الزائلة، ويجرى وراء المتاع والمال ومختلف الشهوات البطنية والحسية، ويعرّض نفسه ومستقبله ومستقبل بنيه للضياع من جراء ذلك.

وتبعاً لذلك ستكون حالته الخلقية فى عمومها أدعى للسوء، وأقرب للانحراف والزلل والتمرد..

فلا نعجب إذن من هؤلاء المجرمين إذا مااعتنقوا القيم الخاطئة، ولم يروا فى سلوكهم مايشين أو يدعو إلى الخزى والعار، بل بلغت الجرأة بأحدهم لأن يقول عن صناعته عند استخراج بطاقته الشخصية أنه «نشال». ولا عجب إذن إذا كان الشذوذ الجنسى وباءاً متمكنا فى نفوسهم لكثرة ماعاشوا فى السجن وخالطوا بعضهم فى ظروف صعبة ليس من السهل النجاة من براثنها وأضرارها..

* * *

وعلماء النفس الذين بحثوا موضوع للمعتادين على الإجرام قد قرروا واثقين فى صحة مايرونه أن الاعتياد على الجريمة مرجعه قوة العادة ونفوذ سلطانها فى سلوك الإنسان.

«... والعادة - كما يرى علماء النفس - طبيعة ثانية، ويقولون

إن الطبيعة الأولى هى الغريزة التى فطر الإنسان عليها ، أو هى سلوكه الذى ورثه عن البشرية . . . هذه هى الفطرة أو الطبيعة الأولى وكل ما يلحق بها فى حياة الإنسان من حسن أو قبيح إن هى إلا عادات ، وللعادات لشدة لزومها والتصاقها بمن اعتادها سميت « بالطبيعة الثانية » . . .

والعادات ميول نفسية قد اكتسبت بالخبرة والمران ، وهى تسوق الإنسان إلى تكرار فعل ما جسمانياً كان أو عقلياً بطريقة معينة كلما تهيأت الظروف التى تتناسب وهذا الفعل . . . وهذه الميول الثابتة هى التى تحدو بالإنسان إلى معاودة كل ما هو مألوف لديه حتى أنه ليفضله على ما سواه من الأعمال الجديدة أو الغريبة عنه عادة . . .

وتكتسب العادات من مبدأ سن الإدراك عند الإنسان ، فإذا شب عليها أصبحت لازمة له بحيث لا يستطيع الإقلاع عنها »[١] ويرى « لمبروزو » أن معتادى الإجرام لا يألفون اقتراف الجريمة فحسب ، بل إن لكل منهم طريقة خاصة ، ونمط معين فى مزاولته لعمله ، وبعضهم لا يزور إلا أماكن معينة ، ولا يستولى إلا على نوع خاص . . فهذا أخصائى فى سرقة البنوك ، وهذا محتال على كبار التجار ، ورجال الأعمال ، وآخر لا يحلو له إلا سرقة الأسلاك

(١) كفاح الجريمة ، تأليف محمد شاهر

أو كرات البلياردو ، أو الجواهر الثمينة أو الحلى الذهبية والساعات وأقلام الحبر . . . و . . . و . . . الخ .

والغريب أن السجن رغم قسوته عليهم ، ورغم جوه الخانق الكئيب ونظمه الرادعة ، لم يترك أثراً يذكر فى نفوسهم : فهم يعودون إليه كما يقول الدكتور « فرفك » البلجيكى : ويدخلون فى المعيشة التأديبية ويستأنفون حياتهم التى عرفوها فى حبسهم السابق بدون أى انفعال ، والسجن بالنسبة لعدد عظيم منهم ماهو إلا دور راحة وهدوء ونظام ، يدل على ظروفه السعيدة ماتثبته حالتهم الصحية ، ولا عجب بعد ذلك إذا رأينا أن التهديد بالسجن يبقى بدون أثر منعى على هؤلاء العائدين ، وإنها لحقيقة يدركها كل من اشتغل بالمسائل التأديبية . . »

أجل ، لقد فشلت القسوة والإرهاب مع هذه المخلوقات الآدمية واعترف بذلك كبار رجال علم النفس والاجتماع والقانون . ولم يجد « جوينسون » الوزير البريطانى بدا من التصريح بذلك وهو فى غاية الأسف والحزن على هؤلاء التعساء ، وعلى المجتمع الذى يصيبه الكثير من تصرفاتهم الشاذة ، وجرائمهم المتكررة .

ومن هنا كانت للمشكلة فى مسيس الحاجة إلى مزيد من البحث والتمحيص والعلاج . . إن هؤلاء مرضى بأمراض مستعصية

تشابه إلى حد كبير الأورام الخبيثة التى تصيب جسد الإنسان ، فهل موقفنا إزاء هذا المرض الاجتماعى يجب أن يتفق مع موقف الأطباء البشريين من السرطان ؟ !

هذا ماسنراه فيما بعد . .

* * *

الفصل الثالث

الفنون في السجن

مقدمة :

من الأمور الهامة التي يعنى بها الدارسون للمجتمعات الإنسانية: الفنون .

والفنون كما هو شائع تعطى فكرة عن روح العصر الذي تظهر فيه ، وترسم صورة صادقة للبيئة والمكان ومختلف الأوضاع السائدة، كما أنها تكشف اللثام عن غموض النفس البشرية وغرائزها ودوافعها والمؤثرات التي تؤثر فيها .

ونظراً لأنها تنطق بلغة المشاعر ، وتترجم عن الوجدان وشتى الانفعالات النفسية والذاتية، فإن لها قيمتها التي لاتتجاهل وفائدتها الكبيرة ، فضلا عن كونها لوناً من ألوان التثقيف وأداة للترفيه ، ونوعاً من أنواع التأثير في النفوس على اختلاف طبائعها . . .

ولقد استشهدنا ببعض الإنتاجات الفنية فيما سبق ، فوجدناها دليلا صادقاً على ما ارتأيناه من قيم تسود مجتمع السجون ، وتؤثر فيه تأثيراً قوياً . .

الأدب في السجون :

ونحن نقرر أنه لم يهتم أحد من الباحثين حتى الآن ، بوضع دراسة علمية دقيقة لفنون السجون . .

والأدب باعتباره فرعاً من شجرة الفن ، وذا دلائل هامة ، له القدح المعلى ، والنصيب الأوفر فيما نحن بصدده ، لهذا فسنتناول بعض السمات التي يتصف بها أدب السجون ، وسوف نتعرض لبعض أغراضه المختلفة التي تنبع من هذا الجو الخاص وتتولد فيه .،

(١) أغانى الحنين والألم :

إن السجين فى هذا المجتمع المغلق الضيق ، يشعر بالحنين الجارف للحرية التى فقدها، ويحس بالشوق الصاخب القوى لأيامه الجميلة ، ويهفو قلبه إلى مراتع صباه ، وأماكن هواه ، ويحن إلى الأهل والأحباب والدنيا الواسعة الرحيبة التى تضج بالحياة والحب والأمل .

فهذا نزيل فى العيد يشعر بالغربة والألم فى السجن ، ويذكر كيف كان يقضى العيد فى الخارج ، ثم يقول :

ياعيد خبرٌ عن صحاب عاقنى	عنهم تربص هذه القضبان
خبرعن الأهل الكرام وعهدهم	وعن الديار الذاكرات حنانى
خبر عن الدار التى همنا بها	يوما ، وشمنا الحب فى الأركان

وفى عيد الأم يجلس أحد النزلاء وحده ، ويتذكر ماضيه الملىء بشتى ألوان الجمال والعواطف، الملىء بحلاوة الطفولة وسذاجتها وانطلاقها ثم يهتف فى حزن وألم [١] :

---

(١) مجلة الرسالة الجديدة (مايو سنة ١٩٥٧) .

ليال كنت يا أماه أهواها وتهـــوانى
وأشطح فى مفاتنها بأفراحى وأحزانى
وعقلى الطفل يا أماه وشاها بألوان
مضت لم يبق لى منها ، سوى الذكرى وسهانى

وهذا نزيل آخر يستيقظ مبكراً ، ويقف خلف النافذة الحديدية ذات القضبان المتشابكة ، ويرمق الفجر وهو يزحف إلى الدنيا فى موكب باه طاهر ، ويرى الطيور وهى تنفض عن عينيها الكرى ، ويرى الزهور وهى تتثاءب ، فتأخذه روعة المنظر ، وقدرة الخالق ، ويتذكر أنه حبيس لا يستطيع أن ينتقل إلى هذا الجمال القريب ليلثمه ويتحسسه وينعم به فيكتفى بالنظر ، ويرسل أنغاما شجية تعبر عن قلبه المشتاق، وروحه الباكية فى قصيدة أسماها: أحاسيس الصباح [1] :

حـــين رف الكون بالروح البهى
وتجـــلى الفجر باللحن الشجى
وأفاق الزهر ذو العطر الزكى
كنت رهن القيد فى ركن قصى
أمتع الروح بأفـــراح الصباح

---

(١) مجلة السجون (ابريل سنة ١٩٥٧) .

يازهور الحسن والروض النضير
أرجى الجو وجودى بالعبير
طيبى بالعطر أنفاس البكور
خففى عنى لظى العيش المرير

واكشفى عنى تباريح الجراح

أيهـــا العصفور غن ثم غن
واملأ الدنيا بأنغـــام وفن
قد ملكت الكون فاصدح واذن منى
إن روحى ظامىء يهفو للحن
علنى أقوى على قيدى وسجنى

انها الألحـان كالسحر المباح

أما النزيل (م . ح) فيصف عواطفه المشوبة ، ويحس بالسأم والململ من أيام السجن التى تمر رتيبة سخيفة ، فينتابه الضيق والضجر، ويتلفت يمنة ويسرة ، فيرى الأهل قد تركوه ، والناس لا يأبهون له . . . إنها للضيعة والمذلة التى تدفع الإنسان دفعاً لكى يلتمس له طريقاً آخر غير طريق الناس ، فيرفع عينيه إلى السماء بعد أن حاقت به الأرض ويهتف فى زجليته :

« يارب يامعبود » ويقول :

الليــــل يفوتنى حزين أصبح أقول يانهار
مين اللى يرحم مين مين اللى يطفى النار

* * *

أبص ألـــق الناس فاتونى حتى الأهل
أزعق وأقول ياناس دى الرحمة فوق العدل

* * *

يارب يا معبــــود ياللى نشيت الكون
إن كنت لىّ وجود يارب كن فى العون

والذكرى ؟؟ مابالها هى الأخرى ؟؟ إن بعض الناس يرى أن من أقسى الأشياء على الإنسان أن يذكر الأيام الجميلة وهو فى ساعات بؤسه ، وبعضهم يرى العكس من ذلك ، إذ أن مثل هذه الذكريات تكون عاملا مخففاً ، أو رحلة قصيرة ترفيهية يذهب الإنسان فيها تاركا أحزانه الحاضرة وآلامه التى لاتريد مفارقته . .

لكن الشىء الذى لايختلف فيه اثنان هو أن الإنسان يشعر فيها بالحسرة من أجل ضياع تلك الفترات الزاهية الجميلة ، فاستمع إلى النزيل (ح . ش) نزيل سجن القاهرة وهو يقول :

فاكر عهودنا اللى مضت فاكر ليالينا الحسان

أيام جميــــلة وانقضت راحت .. وضيعها الزمان

إن الحنين عاطفة نبيلة ، تحمل فى طياتها الإخلاص والوفاء . . الوفاء للأهل والأحباب . . الوفاء للمكان الذى نشأت فى كنفه الذكريات الباسمة ، والألم هو الآخر ينضج المشاعر ، ويربى النفوس ويفجر ينابيع الحكمة ، ويعلم الإنسان الشىء الكثير ، لهذا يقول الشاعر الفرنسى الفريد دى موسيه « لاشىء يسمو بقلب المرء كالألم العظيم وأجمل ماتسمع من أغانى الحياة ، ينبع من هوة اليأس العميق ، تلفظها أنة معولة فى نشيج أبدى أليم ، وليس ثمة ما يبقى على وجه الزمن غير دموع تسكبها العيون بين حين وآخر . . »

فالحنين والألم عاطفتان ظاهرتان فى أدب النزلاء وهما دائماً أو فى أغلب الأحيان متلازمتان .

٢ - شعور القلق :

إن سجوننا المصرية مازالت دور اعتقال وتحفظ ليس إلا . فهى لاتهتم كثيراً بمستقبل النزيل ولا بمصيره بعد الإفراج عنه وإذا كانت هناك بعض المجهودات التى بذلت — وتبذل الآن — للخروج من هذه الورطة كما فى بعض السجون الاجنبية — فهى مجهودات ضئيلة تحتاج إلى كثير من الاهتمام . .

لهذا فالسجين قلق دائماً . .

قلق من أجل مصيره الغامض المبهم . .

وقلق من جراء نظرة المجتمع له..هل سيستقبله المجتمع بالصفح والغفران ويفسح له مكانا فيه ، فيعيش وينال لقمة العيش له ولأسرته ، أم أن المجتمع سوف يتنكر له ، وينفر منه ، ولا يعفو عن خطيئته ؟ ؟

وأسرة السجين وذووه . . ما مصيرهم أيضاً ؟ ؟

إن عائلهم قد أجرم . . . فهل معنى ذلك أن يتناولهم العقاب رغم أنهم برءاء لا جريمة لهم ولا ذنب ؟؟

ونوع آخر من القلق ينتاب السجين داخل السجن . .

إن السجين عرضة للتفتيش والمؤاخذة والعقـاب ، وهذا ما يقلقه دائما .

والسجين عرضة لمرض من الأمراض قد يدهمه فجأة ودون سابق إنذار ، فيودى بحياته وهو فى هذا الموقف الحرج . . . وهذا ما يقلقه . . والسجين يحلم بالإفراج فى كل ساعة ، وخاصة فى الأيام التى تروج فيها الشائعات وتـكثر . . . لهذا فهو قلق دائماً . .

وهذا القلق ينعكس على إنتاجه الفنى . .

فهذا هو النزيل (ن . ك) يقول فى عيد ميلاده :

يا رفاق قد أتى عام جديد ۔ مفعم بالصمت والسر العتيد

ليتنى أدرى خفايا صمته وطوايا سره النائى البعيد
عندها أعلم ماذا خطبه وأنا فيه شقى أم سعيد
كيف بالله — وقد حرنا به تذكرون اليوم فى الأيام عيد
لست أدرى يارفاقى أى عيد؟ . .

أما النزيل (م . ب) بخيت فهو قلق من أجل حريته ... ومن أجل الغائبين :

« أنا والليل والألم الدفين
ودقات قلبى والشوق السجين
وكذا الحنين
للغائبين
وزمجرة فى النفس لها أنين
طال حبسها سنين
أتعود للحرية ؟ !
الحلوة الشهية . . .
واليأس كأشباح تمضى مهرولة
نائحة مولولة . . . »

فى هذا الشعر المنثور، أو النثر الذى فيه روح الشعر، وفى هذا الأسلوب السهل الفطرى يفصح ذلك النزيل عن قلقه الخالد .

وفى اعتقادى أن أهم مشكلة تبعث القلق فى نفس السجين وتثير بلابله وأحزانه هى مشكلة أسرته ، وتظهر هذه المشكلة أوضح ماتكون فى قصيدة « زوجة سجين » للنزيل م . ف [١] (سجن أسيوط) إنك وأنت تقرأ هذه القصيدة بتفعيلاتها الخافقة التى تتسق مع ضربات القلب السريعة المتلاحقة ، تشعر تماما بوقعها ومدى عمقها رغم بساطتها ، إنه يقول عن الزوجة البائسة :

فى الليل والظلام وسهدها الطويل
تراقب النجوم فى الومض والأفول
فزوجها سجين
وقلبهـــا حطيم ودمعها سخين
وتمضى تقول بصوتهاالرجيف
لبعلها الحبيب والده الصغار
وكل حبهـــا
فى همسة ابتهال . . ورجفة اعتذار . . لطيفه العزيز :
« أطفالنا جياع . . ومالهم متاع . . . مالنا الضياع . . فكيف نفتدى ؟ »
وما درت بأن الطيوف لاتجيب
كصخر أصم بواد غريب

(١) مجلة الأدب يناير ١٩٥٨

ثم يستطرد الشاعر النزيل قائلا :

ويبكى عـــلاء ويصحو أسامه
وأخته سنـــاء تقوم فى خفوت
بخطوها الذليل وجفنها الكسير
وصوتها خفيض كرعشةالعصفور
تجهز العشـــاء فقد صحا أسامه
وحبها عـــلاء قد ابتدا فطامه
وتبكى الحزينه بقلب وجيع
وتمضى إليهم تنيم الرضيع
تنادى عـــلاء بحزن الغنـــاء
تريد فطـــامه فأين الغذاء ؟

والقصيدة طويلة وفيها بعض اضطراب الوزن ونحن نكتفي بهذا القدر منها .. إن كلها إشفاق ووجل وخوف من أجل المستقبل والزوجة والأبناء ، فلم لا ننطق أغاني القلق من أفواه النزلاء ؟

ومن لم يستطع أن يتغنى فى قلبه آلام كثيرة قد تذوب فتسيل على وجنتيه دموعاً ، وقد تتحول إلى طاقة من الغضب والانحراف الخلق فتحدث المشاكل والخسائر ، فتتعمق الجراح ، وينكأ ماشفى منها .

٣ — الأدب ومشاكل السجن :

إن السجن فيه أحداثه ومشاكله ، ولا يعقل أن تمر الحوادث هكذا دون أن تثير شاعرية الشعراء. أووجدان الفنانين،وقد تتطور نظم السجون ، وتتغير الأوضاع ، لكن الأثر الفنى يظل كما هو مسجلا حقبة من الحقب ، أو حادثا من الحوادث . . .

ولقد ذكرنا فيما سبق سوء حالة السجين المعيشية ،وما يتعرض له من أضرار صحية ونفسية ، ومايقع عليه من قسوة وعسف مصدره السجانون الغلاظ الأكباد ، وهذه الأشياء كانت تظهر واضحة عندما يُفتش السجين . أو توجدمعه بعض الممنوعات التى تستوجب الجلد ، وقد كان فى الماضى بمجرد العثور على «بصلة » أو « ليمونة »مدعاة للتأديب ،كما أن حيازة السجين لشفرة حلاقة معناها الجلد بلا جدال إلى غير ذلك من المخالفات التى يجد فيها السجانون فرصة للقسوة والانتقام والتشفى . . وسأعرض أمام القارىء جزء من فى زجلية طويلة كتبها النزيل الفنان أ . ج نزيل سجن أسيوط بعنوان « عليوه »:

عليوه قام من النوم بعد الفجر بشويه
علشان عليه الدور فى دلق البول والميه
مسح عليوه الأرض بعد الكنس بالحيشه
عشان مايبجى الشويش ويشوفها بجليه

• • •

دقوا الجرس للعمل وفتحوا الأبواب

وشال عليوه البول وجز ع الأنياب
حكم عليه الزمن بشيل البول فى الجردل
من بعد عزوة قديمة ليه وشد ركاب

* * *

نزل عليوه العمل — ياويله — متأخر
قابله شاويش الغفر وعصابته م العسكر :
« إيش أخرك ياولد ؟ هيه بقت فوضى
ولا أنت نازل فى غيط أبوك تتمخطر ؟ »

* * *

سكت عليوه الجدع من خوفه ماأتكلم
هتعمل إيه حجته والعسكرى مبلم
أحسن علاج ينكتم مايرد ولا كلمة
يمكن كفوف الغفر على خده ماتعلم

* * *

عليوه راجل جدع حظه هو للمنحوس
مسكه شويش الغفر من بخته كان مهووس
فتش ملابسه وبهدل له كل حاجاته
وجد فى باكية لباسه ورقة وفيها موس

* * *

فرح الغشيم وانبسط تقولش هى لقيته
حتخلى حاله نجف والعشرة مرضيه
لبش فى جسم الجدع وقال له ما سيبك
إلا أمام الإدارة وتأدبك هيـــه

* * *

وفى الطريق للمكاتب قفا الجميل حمرّ
وبكل نيـــه خبيثة الكل له شمر
زادت حرارة قفاه تقولش هو مخبز
لوكان عليه الرغيف من حره يتقمر

* * *

وصل عليوه المكاتب ياويله م المكتب
من كتر خوف الجدع دمه بدا يهرب
ادوله علقه تمـــام ولبسوه محضر
عشان يروح الديوان والجلد له يوجب

* * *

إدوله علقه مليحة . . ويااللا ع التأديب
عشان يشوف القرف والذل والتعذيب
واخر المصيبة يجيلك جلد على ضهرك
يجعل جروحك عجب .. ودا فن له ترتيب

* * *

الوقت دا كان صعب والجو فيه شاتى
الأسفلت راخر فظيع والبرد كان عاتى
حتى ملابسه خدوها .. وسيبوه حافى
مسكين وحاله عـــدم مأساته مأساتى

. . . .
. . . . الخ

ويظل النزيل الفنان يشرح حال عليوه ، وانفعالاته النفسية ، وانتظاره للجلد ، وإصابته بآلام روماتزميه حادة ، وكحه شديدة ، ثم سوقه إلى العروسة ، وتنفيذ الجلد ، ثم يغمى عليه فيحملونه إلى زنزانته وهو فى حالة يرثى لها . .

* * *

ومن المشاكل التى كانت ذات أثر بعيد المدى فى نفوس النزلاء ونفوس الإداريين على السواء مشكلة العصبية المقيتة التى ألمحنا إليها آنفاً ، إذ لم يقف بعض النزلاء المدركين لحقيقة المشكلة الفاهمين لخطورتها موقف المتفرج ، بل ساهموا بفنهم فى علاج هذا الداء الوبيل ، وأرسلوا أشعارهم وأزجالهم فى المعركة كى تحول دون تفاقم الأمر ، واستعصاء المرض على الشفاء ، فها هو ذا النزيل ع . ه . يقول فى زجليته « البلديات » :

يا اللى بتضرب أخوك إكمنه جرجاوى
وتلم كل الأسايطة وتقتلوا قناوى
وأهل قبلى يعادوا كل بحــــراوى
حرام عليكم يا عالم دا احنا مصريين
لا حدّ فينا انجليزى أو فرنساوى

* * *

إن كنا رح نختلف حتكون حياتنا جحيم
وإن كنا رح نتحد تبقى عيشتنا نعيم
لازم نصفى النفوس والقلب يبقى سليم
لا فيه ضغينة ولا خصومة ولا حزازات
والدنيـــا دى كلها ما بتساويش مليم .

* * *

ولقد كانت القيود الحديدية ثقلا قاسياً ، وعبئاً يضاف إلى أعباء النزلاء الكثيرة النفسية والجسدية ، وكانت القيود تحمل فى ثناياها معنى غير إنسانى ، وتشعر النزيل دائماً بأن المجتمع يرهقه ويزيد من آلامه ، وإلا فما معنى هذا العنف فى المعاملة ؟؟ وهل حمل هذه الأثقال ، والذهاب بها إلى الجبل ، والنوم وهى موثوقة بالأجسام يحمل للنزيل نوعاً من الإصلاح والعلاج ؟ ؟

وتمر الأيام ، ويثبت أن الحديد سبة فى جبين الآدمية ، فيبادر

أولو الأمر فى ١٩٥٥/٢/١٠ بالغاء هذه القيود فيهتف النزيل (ص . ج) بليمان طره ، وقلبه يفيض بالحمد والثناء ، ونفسه تشعر بالرضا والحب ، ويقول : —

الليلة ديه عيـــد علينا عن صدورنا انزاح كابوس
الحـــديد كان سبّه لينا كان مـــذلة للنفوس

* * *

بند فى اللايحة القديمة اللى سابها الاحتلال
نيته ما هش سليمة والضمير وهم وخيال

* * *

ولقد كان إدخال نظام « الكانتين » فى السجون نعمة كبرى بشّر لها النزلاء وشكروا الله عليها كثيراً ، فقد أصبحت الحلوى والسجاير والفواكه وكثير من المأكولات طوع يمينهم ، بعد أن كانت محرمة عليهم ، وكان بمجرد حيازة « أكل ملكى » مما يفتح الطريق إلى التأديب حيث النكد والعقاب المرير .

لكن هناك فئة كبيرة العدد لا تشعر بهذه النعمة : إذ لم يعد عليها فائدة تذكر من جرائها ، لأنهم فقراء لا يملكون ما يشترون به شيئاً من الكانتين ، ولا ينتظر من أسرتهم الفقيرة أن ترسل لهم ما يحتاجون من المال ، ونظام السجن حتى الآن لم يضع لائحة

فعلية بجدية تنظم العمل ، وتعطى للنزلاء قدراً كافيا من المال لنفقاتهم الشخصية ونفقات أسرهم، ولا شك أن تصور فئتين من الناس إحداهما تنعم بالمأكل وتشترى ما تشاء ، والأخرى محرومة من لذات الحياة ونعيمها ، إن تصور هاتين الفئتين وخاصة فى هذه البيئة الضيقة لمما يبعث على الألم والحسرة . . . أدرك النزيل ف . ا . ط (١) بليمان طره هذه الظاهره ، فأثرت فيه تأثيراً عميقاً فاندفع شاديا بزجليته التى تجمع بين السخرية والتأثير ، وتضع العبرة والعظة فى ثوب مقبول مستساغ ، مستعينا فى تشبيهاته ببيئة المجتمع الذى يعيش فيه — بيئة الليمان ، يقول فى زجليته « نحن والكانتين » :

سلمون وسردين والرنجة   شغل لا رنجـــة
حاجات تجيب مرض الدنجة   للى مفــلس
جيوبى أنضف م الصينى   مــين يدينى
لولا المبادىء تحمينى   كنت أهــلس

* * *

أشوف مناظر واتألم   وابقى مبـــلم
عاوز أدرس وأعلم   مــين يسمعنى
الجوع مطلع أيمانهم   هـــد كيانهم

(١) لص البنك الأهلى الذى اشتهر بجرأته وعبقريته فى عالم الإجرام .

والفقر يسد ودانهم مـــين يتبعني

* * *

في كل يوم ألقى الزيطه واسمع عيطـــه
أروح متبت في الحيطه جنب الـكانتين
عنيه أسرع م « المكوك » محروم مربوك
واشوف فواكه مع شيلوك ومربه وتـــين

* * *

رح يجرى ايه لو نتعاطف مش نساخف
ولا احنا بقى يعنى مقاطف من غير أودان
أخوك فقير ولا عندوش ولا حيلتـــوش
تسيبه ياكله البلبوش ؟ خليـــك إنسان

* * *

بيمشى وطاقة محيره وســـع ودانه
مفتوحة خالص ومبين كل اسنـــانه
ويشم ريحة التقلية فى الـــترزيه
وريقه يجرى ويطلع كل جنـــانه

ومن المشاكل الهامة تلك العقدة النفسية التى تتركها الجريمة ، ويتركها السجن فى حياة النزيل ، فهو يشعر أنه أذنب ، وارتكب

وزراً فى حق المجتمع ، والمجتمع لهذا السبب يشمئز منه ، وينظر إليه فى شىء من الاحتقار ، وعدم الثقة والتقدير فى غالب الأحيان . . مثل هذه الظاهرة تحدث جرحا أعمق فى تفكير النزيل واتجاهاته ، وتجعله يحمل المشاعر العدائية والشك والخوف بالنسبة لهذا المجتمع الذى يأبى المغفرة . . المجتمع الذى لايخلو من رذيلة أو إجرام لكن الظروف والملابسات قد تحجب ذلك عن العيون . .

إن الزجال (ح . ا) [١] ينظر إلى المجتمع القاسى المتشكك ويقول له :

أنا شايف فى عينيك خوف ماتكونش فاكرنى «أبو عوف»
أنا زيك بحس وافكر وبصيرتى بعيدة الشوف

* * *

أنا عارف بأنى جنيت ودفعت تمن ماعصيت
إيه أغلى من الحرية بادفعها وأقول ياريت

* * *

فيه ياما من أمثالنا ماجرالهمش ما جرالنا
الفرق اللى بينا وبينهم إن احنا انكشف حالنا

(١) من أشهر الزجالين الآن .

٤ — أدب الاعتراف :

فى المثال السابق قرأنا عبارة « أنا عارف بأنى جنيت » ، وليس مجرد العلم بثبوت الجريمة هو الاعتراف ، فكما سبق وشرحنا أن كثيرين من النزلاء يغالطون ضمائرهم ، ويأبون الاعتراف بجرائمهم مكابرة منهم وعناداً ، أو جهلا وحمقا ، وقد تكون نظرتهم إلى الجريمة نظرة استخفاف ، زاعمين أن ما أتوه لايستأهل كل هذا العقاب ، وخاصة إذا كان للبيئة والعادات أثر فى عقلية المجرم .

فالآخذ بثأر أبيه مثلا لايعتبر هذا جريمة ، ويعتقد أنه مظلوم إذاماحكم عليه بعقاب ما ، لكن هناك فئة من النزلاء على جانب لابأس به من الوعى والإدراك وتقدير المسئولية ، وهؤلاء قد يعترفون بجرائمهم ، ويسفحون عبرات الندم والتوبة من أجل وقوعهم فى الخطأ ، وارتكابهم للمآثم . .

وبعض النزلاء يعترف بجريمته اعترافاً غير مباشر .

أعرف نزيلا كان يكتب قصصاً قصيرة ، وكان يضمن هذه القصص الشىء الكثير من آرائه ومشاعره الخاصة ، ويسندها إلى أبطاله الخياليين ، وفى مجلة « السجون » كان النزلاء يكتبون اعترافاتهم على نمط اعتراف النزيل « ا . ف » الذى ذكرناه آنفاً ... وكانت كتاباتهم تحت عنوان « من أرشيف النزلاء » أو « ياما فى السجن مظاليم » .
وقد لاحظت أن « أدب الاعتراف » — إن صح هذا الإسم —

يمضى على نمط متشابه ، فكل معترف يعزو جريمته إلى ظروف قاهرة لم يستطع منها فكاكا ، أو يضع نفسه موضع المعتدى عليه أو المظلوم الذى لم يجد من ينصفه، فيثور ويدافع عن كيانه وكرامته وإنسانيته ، وبعضهم يصورون جريمتهم على أنها من صنع التقاليد أو بمحض الصدفة .... إلخ .

فالنزيل « م .م »(١) وقد حكم عليه من داخل السجن بعدة أحكام مجموعها حوالى ٨٦ سنة ، ومر بكثير من السجون ، ودخل ليمان أبى زعبل وطره — هذا النزيل يروى لمندوب مجلة "الاثنين" كيف ارتكب الجريمة الأولى ثم كيف ارتكب الجريمة الثانية، تلك التى سلكته مع معتادى الجريمة حتى أصبح أشهر من نار على علم فى محيط السجون ، وحتى بلغ هذا الرقم من السنوات المحكوم عليه بها . فهو يروى كيف أن أحد ضباط الأقسام قد أهانه واعتدى عليه لمجرد اعتراضه على بعض تصرفات هذا الضابط اعتراضاً هيناً رفيقاً فما كان من الضابط إلا أن أخذه إلى القسم واعتدى عليه اعتداء قاسياً . فتألم ونسى نفسه . . نسى أنه أمام ضابط . . ونسى أنه فى القسم ونسى أن اعتداءه على الضابط جريمة ليست هينة ستودى به حتما إلى السجن . . . نسى كل ذلك وفعل فعلته ... ثم حكم عليه . . وبعد فترة ، كانت الجريمة الثانية .

(١) نشر بعض مذكراته فى جريدة « الشعب » .

دخل عليه السجان بعـــد أن قام بتنظيف حجرته تنظيفاً تاماً، ولمع الأرض بالبطانية التي يغطى بها جسده في المساء، ودخل السجان وقال : الزنزانة وسخه ليه ؟؟ . .

— « دا أنا منضفها ببطانيتي يا افندى . . . »

— « هو أنا أعمى يا ابن الـ . . ؟ ؟ »

— « طيب . . بص كده . . . دا أنت تشوف وشك فيها . . »

وفجأة أهوى السجان بيده الغليظة على وجهه، وأعطاه صفعة قوية جعلته لا يرى ما أمامه . . ومرة ثانية نسى السجين نفسه. نسى أنه أمام سجان عات غليظ .. نسى أنه في السجن، والسجن في تلك الأيام لعنة لا تفوقها لعنة .. ونسى أن اعتداءه على السجان يعرضه للجلد القاسي . . نسى كل ذلك فانقض على السجان، ووضع إصبعه في عينه ففقأها في لمح البصر ، ووقف ينظر إلى السجان المصاب وهو يتلوى ويستغيث . .

إن أدب الاعتراف فيه من الغرابة والإثارة الشيء الكثير . فيه أشياء كثيرة تفيد الباحثين والدارسين الاجتماعيين . ولقد أتيحت لي فرصة الاطلاع على مذكرات بعض المجرمين ذوي القضايا الكثيرة ، وهي تروى الحوادث بأسلوب مهلهل ضعيف من جراء نقص الثقافة لكنهم مع ذلك يقدمون الشيء الكثير من القصص العجيبة ، والتفاصيل المثيرة . .

٥ ــ الوطنية فى أدب النزلاء :

كانت السجون المصرية من قبل منطوية على نفسها تجتر آلام العسف ، وتتقلب على جمر الظلم والأحزان ، وكان الاحتلال يتبع سياسة مقصودة يهدف من ورائها إلى قطع الصلة بين النزيل والمجتمع ، وقتل معنوياته قتلا تاماً . . ، ولم يكن النزيل يعلم شيئاً عن أحداث بلاده أو يلم بمعاركها الكفاحية ضد قوى الاستعمار ، اللهم إلا بعض الشذرات أو الأخبار المتناثرة هنا وهناك ، والتى لم يكن فيها من الحقيقة بقدر مافيها من الخيال ، فلقد علمنا آنفاً ، أن الشائعات كان لها سوق رائجة فى السجون ، وقلنا أيضاً أن السجين كان ينظر إلى هذه الأنباء من زاوية الافراج أو العفو الذى يحلم به .. أما اليوم فقد سهلت لحدما وسائل الاطلاع للنزلاء بإنشاء المكتبات ، كما سمح لهم بشراء الصحف والمجلات ، بل والكتابة فيها أيضا ، ولقد استشهدنا ببعض الإنتاج الأدبى للنزلاء أثناء بحثنا هذا ...... كما أن وجود أجهزة الراديو أيضا لها أثر فعال فى تنوير الأذهان ، هذا بالإضافة إلى بعض الحفلات والمحاضرات التى تقام فى السجون . . لهذا استطاع النزلاء أن يجاروا الأحداث الوطنية الكبرى ، وأن يستجيبوا لها ، ويتأثروا بما يصاحبها من انفعالات .. فتتبعوا الحركة التحررية فى مصر . وعاشوا مع الوثبة الكبرى فى الجزائر . . وخفقت أرواحهم مع خطوات سوريا وهى تشق طريقا جديداً فى وحدتها مع مصر وتضع لبنات خالدة فى بناء القومية

العربية ... وفتحوا أعينهم على عدوان إسرائيل ، وكذلك مأساة فلسطين ..

ظهر هذا واضحاً فى القصص التى كتبها النزلاء فى مسابقة القصة القصيرة التى عقدتها «مجلة السجون» (عام ١٩٥٧) ،وقراءة عنوان كل قصة كان كفيلا بتأييد ما نسجله ، مثل قصص: فتاة من فلسطين — ملاك من السجن ـ أم البطل ـ الرصاصات الأخيرة ـ رفقة إلى الجنة ـ وغابت شمس الامبراطورية ـ نداء الوطن ـ فداء ـ سجين الوطنية و . . . و . . . الخ .

وظهر هذا واضحاً أيضا فى الأشعار والأزجال .

فهذا نزيل يصرخ من خلف القضبان أيام العدوان الثلاثى على مصر ويقول :

لئأت جحافل تزخرْ
كجيش الليل أو أخطر
فأرض الله لا تقهر
ونور الحق لا يدحر

لذا أقسمت أن أثأر

وشعبى الحر قد أقسم
بكل مقدس أعظم
ودوّى أمسه الأبكم

ولن يرتاع أو يحجم
لذا أقسمت أن أثار

* * *

أما النزيل (ا - ز) فهو يحب كل شيء فى بلاده : ثراها الخصيب ، ونيلها الشهى ، وهواها الصافى ، وسناها الضاحى ، إلى أن يقول :

بلادى ويقظتها الباهره
وأنجم آمالها الزاهره
وأعين قادتها الساهره
وأزهارها الغضة الناضره
وعزم جميع القوى الثائره

إلى أن يقول :

بلادى جميعاً تحب السلام
وتمضى تشق طريق السلام
طريق الحياد برغم اللئام
طريق التحرر . . . .
طريق الورود . . . .
طريق الزهور . . . .
طريق المحبة بين الشعوب

طريق الحياة . . طريق الأ باة

وليست تحيد . . .

برغم الجيوش . . ورغم الحديد

وما أ كثر ما قال الشعراء والزجالون فى شتى المناسبات الهامة التى مرت بأمتنا . . قالوا فى الثورة . . . وفى قيام الجمهورية . . فى الجلاء . . فى تأميم القناه . . فى العدوان الثلاثى على مصر . . فى القومية العربية ، والجمهورية العربيـــة المتحدة ... لم يتركوا مناسبة تمر دون أن يسجلوها فى إنتاجهم ، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن النزلاء ، رغم الجفوة التى بينهم وبين المجتمع ، ورغم الضيق والألم الذى يعانونه من جراء وجودهم فى السجن ، ورغم ماهم فيه من مشاكل شخصية وعائلية تأخذ بخناقهم . . . رغم كل ذلك لم يتنكروا لوطنهم ، ولم يصرفهم عنه قطع الصخر فى الجبل ، أو النسيج فى الورش ، بل ظلوا يحملون له أنبل العواطف، وأطهر المشاعر . . .

* * *

وإذا كان لابد من تقييم أدب السجون، ووضعه فى منزلته التى يستحقها بين مختلف المذاهب الأدبية والاتجاهات المختلفة ، فإنى أعتبره — أى أدب السجون — صورة مصغرة متواضعة « لأدب المهجر » ، فلقد التقى أدب السجون وأدب المهجر عند نقاط . . .

فالغربة التى ابتليا بها — أو بمعنى أصح رزق بها الإثنان — كان لها أكبر الأثر، وأغانى الحنين للأهل والموطن الأصلى، وما يصحب ذلك من آلام وأشواق تجدها هنا وهناك ولا سيما مشاعر القلق البارزة لدى المهجريين تجدها أيضا فى أدب السجون، رغم اختلاف الأسباب هنا وهناك.

هذا، ولا يفوتنى أن أقول بأن أدب السجون مازال يحبو، وإن أغلبه — أو أصدقه — ينتمى إلى النوع الشعبى مثل المواويل البلدية التى يترنم بها النزلاء، ويرسلونها على الفطرة، ويسجلون فيها أحداث السجن، ومشاعرهم الخاصة إزاءها.

أما الأدب المهجرى فقد بلغ مرتبة يحسد عليها.

* * *

وقبل أن نترك أدب النزلاء، أحب أن أثنى على الدور العظيم الذى تلعبه مجلة السجون فى هذا المجال، لأنها تفتح صدرها لأدباء السجون وترعاهم، وتنقد إنتاجهم، وتشجعهم تشجيعاً كبيراً. ففى عام ١٩٥٧ أقامت المجلة مسابقة القصة القصيرة ووزعت على الفائزين مكافآت مالية، «ومداليات» ذهبية، ولقد فتحت المسابقة الباب لكثير من الأدباء الناشئين الذين كتبوا فيها لأول مرة فأصابوا مرتبة لا بأس بها من النجاح .. كما أن المجلة قد أعلنت عن مسابقة شعرية فى بداية عام ١٩٥٨، وجعلت موضوعات المسابقة من الموضوعات القومية والوطنية، وقد أقبل النزلاء على هذه المسابقة، كما أقبلوا على مسابقة القصة من قبل ..

ولا نستطيع أن ننكر ما للسيد اللواء محمود صاحب رئيس تحرير المجلة رحمه الله من فضل وتوجيه ورعاية ..

فنون أخرى :

ولم يحظ الأدب وحده بعناية النزلاء واهتمامهم ، بل هناك فروع أخرى من الفن ، أقبلوا عليها ، وأنتجوا فيها انتاجا يدعو إلى الفخر والثناء .

١ — النحت :

فى عام ١٩٣٥ ، لوحظ أن بعض نزلاء ليمان طره ينتهزون أوقات الفراغ القليلة التى تتاح لهم ، ويحاولون نحت بعض التماثيل البدائية ، ولقد كانت رغم بساطتها وعدم قيامها على أسس وأصول علمية دقيقة تحتوى على لمحات من الجمال ، ولا يخفى على الناظر إليها أنها تحمل فى هيكلها العام وطريقة نحتها مواهب وكفاءات لاتحتاج سوى قليل من التوجيه ، فكان من الخطأ أن تضيع هذه المواهب ، ويقضى أصحابها أغلب وقتهم يقطعون كتل الحجر ، أو ينقلونها من مكان إلى آخر ، وهذا عمل فى الإمكان أن تقوم به دابة من الدواب مع قليل من العمال ، ولا يصح أن يقضى فيه فنان ـ ينبىء مستقبله عن الخير ـ وقته ، ويضيع فيه مجهوده ، لهذا عهدت وزارة التربية والتعليم آنذاك (فى عام ١٩٣٥) إلى الفنان الأستاذ

أحمد عثمان (١) بإنشاء قسم للنحت فى ليمان طره ، وإتاحة الفرصة للنزلاء كى يتثقفوا ويتعلموا ما يستطيعون من قواعد فن النحت وأصوله .

والمشاهد لإنتاج النزلاء من التماثيل المختلفة ، يلاحظ أن القطع . التى أخرجتها أيديهم يغلب عليها التقليد أعنى الاسلوب الـكلاسيكى (classic) وهم متأثرون بالفن الفرعونى والفن الرومانى والاغريقى خاصة ، فإذا ما زرت مبنى رئاسة السجون ، وجدت فى الردهات وفى الحديقة بعض هذا الإنتاج ، ووجدت تماثيل «تحتمس» «وأوزوريس» «وحتحور» «وجوليانو» و«بيتهوفن» وقليل من تلك التماثيل يشمل فكرة معينة مثل تمثال صياد السلحفاة ، و . . و . . الخ .

وفى اعتقادى أن توجيه النزلاء النحاتين إلى تسجيل واقع حياتهم فى السجن ، وواقع مجتمعهم المصرى خارج السجن مما يجعل لهم شخصية فنية ، وطابع ذاتى فيما ينتجون ؛ ولعل العذر فى عدم الإقدام على هذه الخطوة هو أن معظم النزلاء ممن لا يلمون بغير قليل من الثقافة العامة ، والتعليم الفنى اللازم لمثل هذه المرحلة

ومن أروع الأعمال التى قام بها النزلاء فى هذا المضمار هو ترميم تمثال رمسيس الثانى المقام فى ميدان المحطة بالقاهرة ، وذلك

(١) عميد كلية الفنون الجميلة بالاسكندرية سابقاً .

بإشراف الأستاذ أحمد عثمان ، فلقد فشل أحد المقاولين الأجانب في القيام بهذا العمل الذي أقدم عليه النزلاء بشجاعة وعزيمة ، فانتهوا منه بسرعة ودقة تدعو إلى التقدير . .

ولقد حظيت براعة النزلاء النحاتين بإعجاب الكثيرين من رجال الفن .

ويروي الأستاذ أحمد عثمان أن الفنان الأسباني « كومندادور » أخصائي تلوين التماثيل في زيارته لمصر أعجب بتمثال نصفي من الصلصال ، وتمنى أن يكون هذا التمثال من الحجر حتى يستطيع تلوينه ، وكان نحت هذا التمثال من الحجر يحتاج إلى ثلاثة شهور على الأقل، كما يعتقد الأستاذ الأسباني، لكن أسفه لم يطل، فعندما عرض الأستاذ أحمد عثمان الفكرة على النزيل الفنان (ع . ا) قال :

— « اتكل على الله يا أستاذ . . . دا أنا ابنك وأنت اللي مربيني » وفعلا كان النزيل عند وعده إذ أتم التمثال فيما يقرب من اثني عشر يوماً ، فلم يملك « كومندادور » نفسه من أن يصيح : « مصر . . . مصر العظيمة في فنها الخالد على مر الأجيال . . . الفن الذي تدرسه جميع الأمم الناهضة . . لطالما حدثت نفسي وطلابي بأسبانيا عن تلك المدينة الرائعة . . . ولكني اليوم ألمس بنفسي حدثاً فنياً صنعه مصري لا يمكن أن يتم إلا على أيدي سلالة الفراعنة الأمجاد » .

وبديهى أن الاشتغال بالفن فى هذه البيئة المريضة مما يساعد على تهذيب النفوس ، والتسامى بالعواطف ، والتنفيث عما يجيش بالصدر من انفعالات تنفيثاً يتجه إلى طريق مجد سليم ، لا يمكن أبداً أن يكون طريق الجريمة والانحراف . .

٢ — الرسم :

إن نهضة الرسم لا تقل فى السجن روعة عن مثيلتها فى الناحية الأدبية ، ولقد تناولت بعض الصحف والمجلات المحلية هذه النهضة الفنية بالدرس والتعليق ، وأثنت عليها ثناء عاطراً ، فهذا طالب أزهرى مسجون يرسم صورة بالألوان لسجين يفكر فى أسرته ومستقبل أولاده ، فيندهش الفنانون لروعتها ويضعها أحدهم فى مصاف أعمال « بيكاسو » الفنان العالمى المعروف ، وهذا نزيل آخر واسمه « ا . ا . ا » ومقيم فى سجن أسيوط ، يعبر فى رسمه « بالباستيل » عن مشكلة الثأر وما تجره من أهوال وآلام تعبيراً قوياً رائعاً ، ويعبر أيضاً عن عاطفة الحب الطاهر بصورة أخرى تدعو إلى الإعجاب . .

« أما النزيل « ف . ش . » وهو على جانب محمود من الثقافة الفنية — فإنه يعتنق السير يالزم Sur ealisme فى لوحاته ، ومن أجمل إنتاجه لوحة « القلق » المعبرة . التى توحى إليك بما يقاسيه النزيل من آلام وأحزان وإشفاق على مصيره ومصير ذويه . ،

وفى مقدمة هؤلاء الفنانين جميعاً النزيل «ع . ع .» بسجن بنى سويف ، فلقد تلافى النقص الذى وقع فيه زملاؤه من النحاتين ، وخلق لنفسه شخصية فنية قوية ، فرسم عشرات اللوحات عن حياة السجن وأحداثه اليومية ، ومشاكله المختلفة ، وما أكثر مافى انتاجه من نقد لاذع ، وتسجيل رائع ، ودعوة شاملة إلى التجديد والإصلاح فى مجتمع السجون .

حدث ذات مرة أن زار مدير عام مصلحة السجون [1] سجن بنى سويف ، ورأى لوحة فنية لهذا الفنان السجين ، تشتمل على نافذة حديدية وقد تعلق بقضبانها طفل صغير ، ومن خلفه وقفت أمه السجينة ، وتحت الصورة مكتوب « وأنا ذنبى إيه . . ؟؟ » فأصدر المدير أوامره لمأمور السجن كى يطلق مزيداً من الحرية والترفيه والاهتمام بالأطفال وأمهاتهم داخل السجن . .

ولدى مصلحة السجون الكثير من هذه اللوحات كما يوجد جزء كبير منها أيضا فى السجون المركزية .. ولقد كان من المنتظر أن يعرض إنتاج هذا الفنان العظيم فى متحف الفن الحديث .. [2]

* * *

ولقد كان للأحداث الوطنية أثر بعيد المدى فى إنتاج النزلاء

---

(١) اللواء أحمد زكى شكرى .

(٢) ثم عرضه فعلا ، وقد أحدث دويا كبيراً فى الصحافة المحلية والخارجية .

— كما فى الأدب — فرسموا اللوحات التى تحمل فى خطوطها وألوانها وتنسيقها المشاعر الوطنية الحية ، والأدوار الكفاحية التى يمر بها شعبنا

* * *

ومن بين النزلاء الذين برزوا فى ميدان الرسم فنان كان يعمل فى خارج السجن « سولق سيارة » وآخر كان عاملا بورشة أحذية ، وأغلب إنتاج النزلاء يميل إلى المدرسة الواقعية . .

أما السمات والطابع الذى نلسه فى فن السجون فهى نفسها التى ذكرناها فى حديثنا عن أدب السجون مع الفارق طبعاً .

٣ — الرقص ولعب العصا :

إن « فولكلور » المسجون يقوم بدور كبير فى الترفيه عن النزلاء ، ولعله كان سلواهم الوحيدة فى الأيام الغابرة فبين جدران السجون تسمع ألوانا شتى من المواويل التى تروى عن الجرائم وكبار الحوادث فى وجه قبلى وبحرى ، وأغلب هذه المواويل وأهمها تتناول نواحى ثلاثة هى :

١ — جرائم الثأر والفتوة (مثل موال الخط الذى أشرنا إليه آنفاً) .

٢ ـ جرائم الشرف والدفاع عن العرض (مثل موال جليلة واخوها الشاويش متولى):

٣ ـ البكاء على الديار والخلان وغدر الزمان (مثل موال سلالم السجن يابن الناس تسعين سلمه وكسور . . . . الخ)

ولقد أشرنا إلى بعض هذه النواحى فى أماكن متفرقة من هذا الكتاب .

• • •

ومن الفنون الشعبية المشهورة بين النزلاء اللعب بالعصا . .

واللعب بالعصا فن جميل برز فيه كثيرون حتى أن أحد مأمورى السجون انتدب أحد مدرسى العصا ليعاون النزلاء ويهذبهم فى هذه اللعبة ، ولكل طريقة فى لعب العصا ، فالصعايده لهم طريقتهم ، والبحاروة لهم طريقتهم ، وحلبة اللعب إذا ما أقيمت التف حولها عدد كبير من النزلاء ، وتتبعوا الصراع الدائر بين المتنافسين فى لهفة وتشوّق ، وقد يصبح لكل واحد من المتنافسين أنصار ومؤيدون يتحمسون له ويشجعونه بحرارة . .

واعبة العصا تحتاج لقدر كبير من دقة الحركة ، وسرعة التصرف والانتباه الزائد ، فعلى اللاعب أن ينثنى ويميل ، ويثب هنا وهناك كى يتجنب إحدى الضربات ، أو يبحث لنفسه عن ثغرة عند منافسه كى يستغلها لمصلحته ، فهى تشبه لحد كبير المبارزة بالسيف.

وأهم منطقة يهتم بها اللاعب ويحاول حمايتها هى الرأس ، والمعروف أن أقل ضربة فى الرأس تفقد المتنافس جزءً كبيراً من السيطرة على حيويته وقوة أعصابه ، فضلا عن أن التمكن من الرأس والضرب عليها يعتبر عيباً كبيراً ، ونقصاً مخجلا فى قدرة اللاعب وكفاءته ، ومعظم اللعب من النوع الاستعراضى البرىء ، غير أنه فى بعض الحالات يساء فهم بعض الحركات ، فتوشك المعركة البريئة أن تنقلب إلى ساحة قتال فعلى يؤدى إلى أوخم العواقب .

ولاعب العصا الناجح — فى العادة — يستطيع أن يؤدى بعض حركات الرقص الشعبى فى مرونة وجمال وهو يطوح بعصاه فى يمينه ، وكثيراً ما تكون هذه الرقصات — كما رأيت فى المواسم والأعياد — على أنغام الموسيقى أو دقات الطبل البلدى والتصفيق .

ولا شك أن تلك المنافسة البريئة فى لعب العصا ترقق كثيراً من حاشية النزلاء ، وتهذب من أخلاقهم ، وترضى فى نفوسهم غريزة حب التفوق والنصر بلا ضرر يذكر ، كما أنها تصريف وتنفيث لغريزة حب الاعتداء والشجار .

٤ — مسرحيات السجون :

تعتبر المسرحيات فى السجون نوعاً من الترفيه والتوجيه ، غير أنها إلى الآن لم تحظ بالإشراف الفعلى ، والإرشاد الفنى الواجب ، فأمر النشاط المسرحى فى العادة متروك للضابط المشرف

وقد يكون غير مختص بالفن المسرحي وليس لديه أية دراسات تفصيلية ، ومتروك أيضاً لبعض النزلاء ذوى الخبرة والكفاءة . .

وفى الواقع أن قيمة المسرح بالنسبة لإصلاح النزيل كبيرة جداً إذا ما وجد الاهتمام الحق ، والرعاية الكافية ، وبهذا يصبح المسرح مدرسة ذات جدوى ، فتعمل عملها فى إصلاح نفسية النزيل وأفكاره .

وقد لاحظت أثناء تجوالى فى السجون ، ومراقبة النشاط المسرحى أنه يتناول أربعة نواحى تدور حولها أغلب الروايات التى تمثل :

أولا : روايات تتعلق ببعض المشاكل والقيم الاجتماعية التى تتصل اتصالا وثيقاً بالجريمة ودوافعها ونتائجها وتطورها ، مثال ذلك المسرحيات التى تكتب عن مشكلة الثأر ، ومشكلة القتل من أجل الميراث ومشكلة المخدرات والاتجار فيها وضررها ، مثل مسرحية « علوان » التي كتبها النزيل المرحوم عبدالله زكي ومثلت على مسرح سجن أسيوط .

ثانياً : روايات دينية . تروى تفاصيل عن ميلاد الرسول ، أو هجرته ، أو بعثته ، أو إحدى غزواته ، كما تتناول بعض الحوادث التاريخية الأخرى التى تروى عن الصالحين ، والحكام العادلين ، ودعاة الخير والإصلاح والتربية .

ثالثاً : روايات وطنية ، وهذه زادت نسبتها فى العهد الأخير وخاصة فى المناسبات الوطنية والقومية ، ومثل هذه الروايات تمثل أطوار الكفاح الشعبي ، والصراع ضد قوى الاستعمار .

رابعاً : روايات كوميدية ، وهذه تلقى كثيراً من الإقبال والرواج بين النزلاء ، ولعل ذلك راجع إلى أن ضيق السجن وآلامه تجعل النزيل يميل إلى الطرب ، ويسعى إلى الترفيه ، ويجرى وراء ما يضحكه لعل ذلك ينسيه ما هو فيه من هموم وأحزان ومشاكل .

* * *

ولعل الفن المسرحى فى السجون يكون له دور أضخم فى المستقبل ، ولا عجب فى ذلك ، فإن المسرحية الناجحة ، ذات الهدف القويم ، والعظة الفعالة لها أثر السحر فى نفوس النزلاء ، بل هى لا تقل أهمية وفائدة عن كثير من المواعظ الجافة ، والخطب المنبرية التقليدية المملة إن لم تفقها . .

٥ — إذاعات السجون المحلية :

قام بهذه التجربة نزلاء ليمان طره(١) ، وكان لهم مطلق الحرية فى تنظيمها واختيار الموضوعات المناسبة فى حدود اللائحة ، وبالطبع

(١) وقلدهم فيها نزلاء سجن المنصورة فيما بعد .

كانت تحت إشراف وتوجيه أحد الضباط ، أما الموضوعات التى كانت تقدم فى برنامج هذه الإذاعة المحلية فهى :

— (ا) أحاديث دينية توجيهية .

— (ب) تمثيليات إذاعية قصيرة . . .

— (ح) أحاديث طبية . . .

— (ى) أزجال من إنتاج النزلاء .

— (ﻫ) أغانى من إنتاج وتلحين وغناء النزلاء .

— (و) أسئلة النزلاء والإجابة عليها وتقديم مقترحات . .

— (ز) أحاديث مسجلة مع الإداريين تتناول آراءهم فى بعض المشاكل ، وتوجيهاتهم للنزلاء . .

— (ع) نشرات إخبارية تتعلق بالسجن خاصة والخارج عامة . .

— (ط) موضوعات ثقافية عامة . .

— (ى) تسجيل الزيارات الرسمية الهامة التى يقوم بها كبار الزوار من المصريين وغير المصريين .

— (ك) قصص قصيرة هادفة . .

وما يحتاجه المسرح من عناية وتوجيه وتنظيم ، ينطبق أيضاً على هذه الإذاعات المحلية ، لأنها فى اعتقادى أداة فعالة من أدوات

الإرشاد والإصلاح ، ونظراً لأن المادة التى تقدم فيها هى من إنتاج النزلاء أنفسهم فهى حقل طيب لتبين نفسياتهم ووجهات نظرهم المختلفة . .

* * *

وهناك أيضاً المجلات المحلية لكل سجن مثل مجلة مزرعة طرة التى تطبع على الآلة الكاتبة ، ومجلات الحائط أيضاً ، ومثل هذه المجلات تشمل نفس الموضوعات التى تشملها الإذاعة المحلية بالإضافة إلى فن الرسم والتصوير خاصة الكاريكاتير . . وتعتبر مجلات الحائط فى سجن القناطر الخيرية وبنى سويف وأسيوط والمنصورة من أحسن المجلات الحائطية اتقاناً وإخراجاً ، لكن فائدة الإذاعات المحلية أعم وأشمل نظراً لأن عدداً كبيراً من النزلاء لا يلمون بالقراءة والكتابة .

* * *

تلك لمحة سريعة عن الفنون المختلفة فى السجون من شعر وقصص ومقالات ونحت وتصوير ورقص ولعب بالعصا وإذاعات محلية ومجلات حائط ، ألممنا بها إلماماً خاطفاً ، هادفين إلى إعطاء صورة شاملة جامعة بقدر الإمكان ، وخاصة بعد أن تعرضنا فى الفصل الأول للقيم المتعارف عليها فى السجون ، والمبادىء الاجتماعية التى تسيطر على تصرفات النزلاء وسلوكهم ، وبعد أن

تعرضنا فى الفصل الثانى للجريمة وبواعثها والعوامل المختلفة التى تحيط بها ، وتعرضنا للنظريات العقابية وفلسفاتها فى أسلوب بعيد عن المصطلحات الفنية المعقدة . وعلى ضوء هذه الفصول الثلاثة فستطيع أن ندلى ببعض الآراء والمقترحات التى قد يكون لها فائدة ما فى معاملتنا لذلك المجتمع المريض . واتخاذ الدواء الناجع لعلاج أمراضه المختلفة ، وقد يساعدنا هذا التسلسل المنطقى على الوصول إلى نتائج تتفق مع مقدماتها . . .

* * *

الفصل الرابع

الدِّين وَعِلاج الجَريمَة

الدين والحياة :

إن الدين وما فيه من قيم ومبادىء وأوامر ونواهى ـ له أثر ضخم فى تكوين الأفراد الفكرى ، كما أنه يلون اتجاهاتهم وسلوكهم فى الحياة ، لهذا يقول الفيلسوف الفرنسى : « لو لم يوجد إله لوجب أن يخترع » ، وبعض علماء الاجتماع يرون أن « الدين ظاهرة اجتماعية » لها آثارها وأهميتها وسلطانها على عقول البشر ، والبعض الآخر يقول : إن الأديان أسمى مصدر للسعادة والهناء والسلام فى دنيا الناس ، وأنها هدية السماء إلى الأرض .

وبالرغم من اختلاف وجهات نظر الفلاسفة الماديين وغير الماديين فى أصل الأديان وتاريخها وتطوراتها فإن الغالبية العظمى تكاد تجمع على مالها من أثر طيب فعال فى سلوك الإنسان وتحركاته فى هذه الحياة، فالدين إذن من الأعمدة القوية ــ إن لم يكن أهمها ــ التى يقوم عليها كيان المجتمع ، ويرتكز عليها بقاؤه واستمرار تطوره .

الدين والفرد :

ولاشك أن تكوين الوازع الدينى لدى الفرد بداية هامة فى مجال الإصلاح والتقويم ، لأن الفرد إذا ما اعتقد أن كل تصرفاته مرصودة ، وكل أعماله محسوبة عليه ، وأن هناك إله لاتخفى عليه

أدق الأسرار ، وأخفى الأعمال ، وأن هذا الإله قوى عادل وسيحاسب كل إنسان على مااقترفت يداه فإما إلى الجحيم وإما إلى النعيم ، فإذا ما اعتقد الإنسان هذا الاعتقاد ، وآمن به إيمانا عميقاً ، انتفت عن نفسه صفة عدم الاكتراث واللامبالاة ، وشعر بالألم والحزن والحرج إذا ما حاد عن الحق ، وترك العمل الصالح . وإذا ما أقدم على فعل الخير أحس بالسعادة تغمره وشعر بأن للحياة طعما جميلا ، ولوجوده هدفاً ساميا ، ورسالة نبيلة ، إن ذلك الإنسان الذى يتحرج من الإقدام على الشر ، ويبش لفعل الخير ، ويقيم فى نفسه معركة وصراعاً بين النزعتين ، هذا الإنسان قد تربى عنده مانسميه بالضمير الحى أو الوازع الدينى ، ولاضرر أبدا من هذا الصراع المفيد فى نفس الإنسان ، لأننا لانحصل على شىء نتمناه فى هذه الحياة إلا إذا بذلنا العرق والمجهودات المتواصلة ، ووجود هذا الصراع الخالد يعطى فكرة عن أن نوازع الخير والشر أصيلة فى تكوين الإنسان ، ولاشك أن تهذيب النوازع الشريرة والتسامى بها بطريقة بعيدة عن الكبت والإرهاق ، لاشك أن ذلك سيكون مدعاة للسعادة والاستقامة « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها . . » (١)

ومن المعروف أن المجتمع الذى يتكون من أفراد ذوى وازع

---

(١) سورة الشمس الآيات ٧ — ١٠



عبد . . ا . . . (المجنون) !!

دينى يكون عقله الجمعى هو الآخر متأثراً بالدين،راغبا فى الفضيلة ، نافراً من الرذيلة (١) وتكوين الوازع الدينى لدى الفرد ليس معناه انقطاع الجريمة انقطاعاً كليا ، فهذا غير معقول عمليا ، فستحدث الجرائم بلا جدال ، لكن مقترف الجريمة سيشعر بلذعات الندم . وسياط الضمير القاسية سوف تورق عليه حياته ، وتعكر عليه صفوه،وشتان بين انسان يقترف الإثم ثم يبكى ندما وأسفا،ويخاف من الجزاء الذى يرصده الله له ؛ وبين انسان يأتى الجريمة دون خوف أو ندم ، ودون أن يقيم اعتباراً لعقاب أو جزاء ، ودون أن يكترث بجنة أو بنار . .

* * *

والاسلام مثلا يضع للمجتمع حدوداً وقيما تنظم صلاة الناس بعضهم ببعض ، وتنشر بينهم نزعات إنسانية عامة،فيشعر الانسان فى ظل هذه النزعات برباط الأخوة والحب والعدالة والمساواة .

الدين والمجتمع :

إن الدين يؤكد فضيلة التسامح والتوادو التعاطف بين أفرادالمجموعة ووجود هذه الصفات ـ إذا ما اتخذت صورة فعلية حقيقية ـ سيخفف كثيراً من حدة الصراع الطبقى الذى لا نجنى من ورائه غير عواطف الحقد والكراهية والعدوان والاستبداد ، فنى ظل هذه الرذائل تكثر الجرائم وتجد الجو المناسب لها ، والبيئة التى تغذيها وتنميها . .

(١) « الاسلام والسلام العالمى » تأليف سيد قطب

والمجتمع الذى تسود فيه عواطف التسامح والتواد والتعاطف لاشك سيكون مجتمعاً فاضلا ، يعطى الفرصة لأفراده كى يعملوا وينتجوا ويعيشوا عيشة شريفة هادئة ، وسيكون تكافؤ الفرص عنصراً رئيسياً فى نظامه العادل .

إن الدين مقدس:

وكل ما يتعلق به من نصائح وأوامر ونواهى مقدس أيضاً .

والقيم التى يرتضيها المجتمع والتى يستمدها من الدين ستكون مقدسة هى الأخرى ، وسيتردد المجرم مرات عدة قبل أن يعتدى عليها .

هذه القداسة التى تتعلق بالدين وتعاليمه لها سلطانها الكبير على النفوس .

الدين والقانون :

واضح إذن أن الدين يلجأ إلى الضمير ويهذبه ويمنيه بالثواب الجزيل، والجزاء الأوفى إذا ماسار فى طريق الحق والفضيلة ،ويتوعده بالعذاب وسوء المصير إذا ماسلك سبيل الغواية والضلال والجريمة.

فالدين قد أقنع الناس بأن وراء هذه الحياة الدنيوية حياة ثانية بعد الموت، وستكون هذه الحياة المقبلة موطن السعادة الحقة، والهناء الأبدى لمن رضى الله عنه ، وستكون مهداً للآلام لأرباب الخطايا وعشاق الرذائل . أما القوانين الوضعية فقد عمدت إلى العقاب

السريع ، والجزاء الدنيوى العادل ، لأن المجتمع البشرى بطبيعته يدرك أن هناك فئة من الناس قد ضعف سلطان الدين عليها ، ونظرت إلى الجريمة نظرة خاطئة ، فأقدمت عليها بلا اكتراث ، فأرقت أمن الناس وسلامتهم ، فكان لزاماً على القضاء أن يأخذهم بالعقاب العاجل حتى يرى الناس مايتعرض له هؤلاء المارقون من عقاب ومؤاخذة حتى لا يصير عملهم هذا سنة متبعة ، وعرفا جاريا .

فالقانون الوضعى يترك أمر العقاب الأخروى ولا يشير إليه ، بل يعمد إلى أخذ حقه فى الحياة الدنيا ، لكن يجب ألا ننسى أن الأديان قد جمعت بين الناحيتين ، فقد وضعت عقوبات لكل من تسول له نفسه أن يجرم فى حق غيره ، لكنها أدركت أن بعض المجرمين يفلتون من يد القانون فلا تثبت عليهم إدانة لنقص الأدلة ، وضعف القرائن ، وبعضهم يقترف جريمته فى خفية عن الناس فلا يعلم أحد عنه شيئاً على الإطلاق ، وهذا الصنف الذى لم يستطع العقاب الدنيوى أن يصل إليه ، تكفل به العقاب الأخروى المنتظر الذى أبرزه الدين فى صورة رهيبة ، وحذر منه الناس ، ولم تكن هناك وسيلة أخرى سوى وسيلة الوعيد الأخروى .

والدين لم يجعل أمر العقاب الأخروى مبهما مجملا ، بل بين للانسان خطورة جرائمه وآثارها الضارة ، ومنافاتها للطبائع السليمة ، والخلق الطاهر . فالدين الإسلامى مثلا يصور جريمة القتل تصويراً قويا

إذ يقول : « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً . . . . . »(١)
ثم يجعل « النفس بالنفس » حتى تكون العقوبة مساوية لفظاعة الجرم ، لكن هل يكفى ؟ ؟ ؟ لا . . . فيجب إذن أن يصور الاسلام هول العقاب الأخروى ، ويجب أن يرسم للجانى صورة مااقترف من إثم تصويراً مخيفاً . وهل هناك أقوى من هذا التصوير الذى يجعل قاتل النفس الواحدة شبيها بقاتل الناس جميعاً ؟ ؟ ولا غرابة فى ذلك فإن الجناية فى كلتا الحالتين ماهى إلا اعتداء على قداسة الحياة ذاتها . . .

* * *

وواضح من هذا الاستطراد أن القانون وحده مجرداً لا يكفى لعلاج الجرائم ، بل يجب أن يضع يده فى يد الدين ، بل إن الدين الإسلامى يجعل من القوانين الاجتماعية فرعا منه لا كائنا خاصا منفصلا له فرديته واستقلاله

الدين والمجتمع المصرى :

بعد هذه المقدمة التى لابد منها نريد أن نسأل سؤالا وهو : هل مصر بلد متدين ؟ ؟ ؟

(١) سورة المائدة آية ٣٢.

إن الإجابة على هذا السؤال قد يكون لها دلالات هامة ، وستوضح لنا أكثر وأكثر أثر الدين وجدواه فى علاج الجريمة ، لأن الإلمام بظروف مجتمعنا ومعتقداته وتطوراته الخاصة يساعد على مانحن بصدده من التماس وسائل الدرس والإصلاح والعلاج .

إن منطق التاريخ يؤكد أن مصر بلد متدين ، وللدين الأثر الأكبر فى تاريخها الطويل المجيد ، وفى كبريات الحوادث والتيارات الفكرية والفلسفية . كانت عقيدة قدماء المصريين فى الله راسخة متغلغلة فى أعماق وجدانهم وحياتهم ، وكانت آثار هذه العقيدة تنعكس على شتى مرافق الحياة ، فتلونت بها نظم الحكم ونظم التعليم ، وكانت أوضح ماتكون فى حياتهم الفنية ، فهذه الأهرامات الشامخة الخالدة ، والآثار الكثيرة ومانقش عليها من أساطير وحكم وتواريخ تؤكد هذه الحقائق ، وباسم الدين قامت مملكة آمون ، وباسم الدين قامت انقلابات كبرى خطيرة . وعلى أرض بلادنا كان لبنى إسرائيل (اليهود) والمسيحيين والمسلمين جولات وأيام باقية على الدهر . . . فى شتى العهود كان للدين أثره البعيد المدى فى تحركات الحكام والجماهير ، وفى صياغة القيم الاجتماعية ونسق الحياة بشتى ألوانها وأشكالها ، ويشهد بذلك كثرة المناسبات والأعياد الدينية ، وكثرة الأولياء المنبثين فى كل مكان ، سواء القرى والمدن ، حيث القباب والمقاصير والمآذن العالية ، وعشرات الطرق الصوفية وأتباعها العديدون ، ونزعات التعصب لمختلف المذاهب والطوائف

الدين فى السجون :

إن اللص وهو يتسلل إلى البيت الذى يريد سرقته يقول حينما يدلف إلى الداخل مشفقاً وجلا : «يارب ياساتر ... »

وحتى القاتل الذى يحتمى فى الظلام لينفذ جريمته الشنعاء ، ويريق الدم فى غيظ وحقد ، يهتف من أعماقه قائلا « الحمد لله . . . لم يرنى أحد »والنزيل(م . م)هو الآخر يروى لى كيف ضاقت به السبل ولم يجد مايقتات به يومين كاملين ، وفجأة رزقه الله برجل عربى يلبس العباءة والعقال ، فاستطاع محمد مرجان أن ينشله ، ويعلق محمد قائلا : « هو انت فاكر إن ربنا ينسى عبيده ؟؟ »

ثم يقبل يده ظهراً لبطن ويقول . « ربنا فضله كبير»

ثم(. ع .) المجنون ذلك الذى يهتف بصوته الأجش فى الليل والنزلاء نيام ويقول : « ربنا يعدلها يااولاد الو . . . . . . » ، فانظر كيف تجتمع كلمة « ربنا يعدلها » مع كلمة « أولاد الو . . . » ...

ليس هذا فحسب ، بل إن بعض اللصوص يتخفون فى زى رجال الدين والدراويش حتى تتاح لهم فرصة ارتكاب المخالفات وهم فى شىء من الاطمئنان والثقة التى يسبغها عليهم هذا الزى — مجرد الزى الدينى — لما للدين ورجال الدين من سلطة على النفوس ، وما أكثر المشردين الذين يخفون اجرامهم بالمسابح الطويلة التى تتدلى من أعناقهم أو تشتبك فى أيديهم ، وباللحى الكثة التى تهبهم شيئاً من

الوقار المصطنع ، وما اكثر أولئك الذين يعتصمون بالصمت ، ولا يكفون عن التمتمة ، وجفونهم مرتخية شأن أولياء الله الصالحين، ولقد سبق وأشرنا إلى أن بعض النزلاء يجمع حوله الأتباع والانصار ، وينصب من نفسه شيخاً جليلا متصوفا ، ثم يعظ وينصح، بل يعالج من الأمراض النفسية والجسدية ،ويجد كثيراً من السذج الذين يؤمنون به ويستجيبون لوصاياه . .

ونظراً لسيطرة العقائد الدينية على النفوس فى وطننا ، فإن رجال الطرق الصوفية ـــ وهم الطائفة الدينية الأشد التصاقا واقترابا من الشعب ـــ هؤلاء الرجال يجذبون حولهم الاتباع الأشياع ، ويجعلون لأنفسهم بين هؤلاء نفوذا قويا وكلمة مسموعة ... بل إن الطرق الصوفية رغم بعض عيوبها قد استطاعت هداية عددا من المجرمين والمنحرفين ، ودلتهم على مايسمونه طريق الهداية والتوبة ، وقد رأيت بنفسى الكثير من هذه الحالات . .

فنزلاء السجون ورغم ما وقعوا فيه من وزر ، وتورطوا فيه من إثم ، مازال الحنين يدفعهم إلى منابع الدين ،ومازالت الأحاديث الدينية العاطفية تجد طريقها إلى القلوب فتؤثر فيها ، وتبدل من طبيعتها . .

كان أحد النزلاء المحكوم عليهم فى جريمة قتل يبكى بكاء مرّاً ، ويترك نفسه نهباً للآلام والأحزان والندم ، والعجيب أن هذا

القاتل كان من الصعيد . . . أجل كان يبكى . كلما تذكر جريمته ، وتذكر أن الله سيحاسبه حسابا عسيراً وقد يقذف به إلى جهنم ، فأشار عليه واعظ السجن أن يؤدى « الكفارة » وهى صيام شهرين متتابعين بحيث إذا أفطر يوما واحدا لعذر أو لغير عذر ، فعليه أن يصوم الشهرين من جديد ، وبهذه الطريقة تكون توبته صادقة ، ورضا الله عنه قريب ، فلم يتوان النزيل فى تنفيـــذ ما أمر به الواعظ . .

هذا ويجب أن نشير إلى أن هناك طائفة من النزلاء المتحللين الذين يحاولون التملص من الدين كلية ، ويفرون من قيوده وحدوده ، وهؤلاء نشأوا — على مايظهر — فى بيئات وظروف معينة دفعت بهم إلى هذا المروق . .

الوعظ فى السجون :

تتبعت النشاط الوعظى فى سجن أسيوط لمدة معينة فلاحظت ما يأتى :(١)

١ — الواعظ اسمه الشيخ (س) ، وعندما سألت على مؤهلاته لم أجد عنده مؤهلات على الإطلاق تجعله كفئاً لهذا العمل الخطير فهو مجرد رجل يحفظ القرآن الكريم ، ويقرأ ويكتب ، بل إنه

(١) كان ذلك فى الفترة ما بين يناير وأغسطس سنة ١٩٥٧ .

قراءته قاصرة كما كان يحدث دائماً عند قراءته لخطبة الجمعة . .

٢ — كان شخصية الشيخ (س) شخصية ضعيفة هزيلة ، بل إن شخصيات كثير من النزلاء كانت أكفأ وأقوى منه ، وهذا لا يتناسب مع الدور الخطير المنوط به ، دور التأثير والتوجيه والإصلاح .

٣ — الشيخ (س) ثقافته العامة فى منتهى الضآلة والتفاهة ، فهو لا يعرف شيئاً عن الإشراف الاجتماعى ولا نظريات الجريمة ولا شيئاً عن علم النفس ، والعقد النفسية وسلوك المجرمين وتفسيره العلمى وما إلى ذلك من الثقافات العامة التى يجب الإلمام بها ولو فى نطاق محدود .

٤ — كان الشيخ (س) لا يعرف سوى أن يقول هذا حلال وهذا حرام ، ولم يكن افتاؤه يستند على أساس علمى سليم أودراسة فقهية ولو قليلة ، فإذا ما تكلم عن المخدرات قال :

— « الحشيش حرام » .

فيرد عليه أحد النزلاء قائلا :

— « مين اللى قال الكلام ده ياأستاذ » .

— « الشرع » .

— « اذكر لى الآية اللى بتحرم الحشيش فى القرآن » .

— « الحديث يقول : « كل مسكر حرام . . . وما أسكر قليله فكثيره حرام » . . .

— « لأ . . . أنا عاوز آية قرآنية » .

— « ليه ؟؟ مش عاجبك الحديث وإلا إيه ؟؟ » .

وهنا يتطوع نزيل آخر بالرد على زميله ، والشيخ يجلس على كرسيه ، مستمتعاً بالمناقشة التى تزداد حدة ، ذاهلا وسط الضجيج الذى يعلو رويداً رويداً ، ولا يفيق إلا على الشتائم التى يتبادلها النزلاء من أجل الاختلاف فى الرأى ، وفى تفسير كلام الشيخ . . . فيسارع الجاويش السجان بخيزرانه كى يكمم الأفواه ، وقد يغتاظ ويأمر الجميع بالذهاب إلى زنزاناتهم قبل أن يتم الشيخ الوعظ .

تكررت هذه الصور مرات متعددة ، مرة من أجل الحشيش ، وأخرى من أجل الأفيون ، وثالثة من أجل السرقة ، ورابعة من أجل الأخذ بالثأر وهكذا . . . وفى كل مرة لم أسمع من الشيخ إلا كلمة حلال أو حرام يقولها بكل بساطة وعدم اكتراث كأنها وحى هبط من السماء ولا تحتاج إلى أدنى جدال .

ولم أسمع من السيد الواعظ مرة واحدة تحليلا معقولا لمشكلة من المشاكل ، وعرضها عرضاً ينبنى على أسس وقواعد تدل على شىء من الاطلاع والفهم والإدراك لمشاكل النزلاء واحتياجاتهم . .

٥ — ولاحظت أيضاً أن النزلاء المشتغلين فى الورش ، مثل

ورشة النسيج والترزية والنجارة . . إلخ ، لم تتح لهم الفرصة مرة واحدة لسماع الوعظ ، وإنما الوعظ — فى الغالب — كان وقفاً على الذين هم تحت التحقيق والمخزنين من النزلاء ، وهذا أمر يؤسف له ، إذ لا يكفى أبداً أن يستمع هؤلاء مرة كل أسبوع لخطبة الجمعة وهى رسمية فى إلقائها ، تقليدية فى موضوعاتها المعادة المكررة ، ومعانيها التى لا جديد فيها ، وماذا تنتظر من خطيب ينقل الخطب من ديوان قــــديم يرجع إلى أيام السلاطين العثمانيين ؟ ؟ ؟(١)

٦ — ولاحظت أيضا عدم اهتمام الادارة بمسألة الوعظ الدينى فليس هناك مكان نظيف معد لذلك ، وليس هناك تشجيع لدفع النزلاء إلى الاستماع والتفكير فيما يلقيه الواعظ عليهم من خطب والعمل بها ، كما لاحظت أيضا أن النشاط الوعظى ـ رغم قصوره ـ يتناقض مع السياسة العملية التى تنتهجها إدارة السجن ، فالواعظ يتحدث عن الرحمة وحسن الخلق ، والتعاون والعطف ونظافة اللسان ، ويوصى النزلاء بها ، لكن سرعان مايتعرض النزلاء لألوان القسوة والاحتقار والشتائم وعدم الثقة من السجانين فيضيع أثر المواعظ والخطب ، وتصبح عديمة الجدوى ، ضائعة المفعول . وذلك لاتخاذ السجانين طريقا غير طريق الوعاظ . .

---

(١) ليست كل السجون على هذا المنوال ، فهناك شىء من التفاوت .

٧ — لاحظت أن الوعظ فى السجون لم يخرج عن النظام التقليدى المعروف وهو أن يقف إنسان ذو زى معين ثم يرصف بضعة جمل وينمق عددا من العبارات البراقة المسجوعة ثم ينصرف، ولم يلجأوا حتى الآن بصورة جدية إلى اتخاذ المسرح وغيره وسيلة من وسائل التجديد والإصلاح فى الوعظ . .

٨ — المواعظ مليئة بالخرافات والأساطير السخيفة التى لا تتفق مع حقائق الدين ، وأسلوب العصر ،وظروف السامعين من النزلاء.

٩ — إن التقاء النزيل بالواعظ يحدث بصورة جماعية رسمية ، فلم يحدث أن اتصل الواعظ بأفراد النزلاء اتصالات خاصة على انفراد حتى يفهمهم عن كثب ، ويرشدهم إلى الطريق القويم، ويتيح لهم فرصة القدوة الحسنة ، والتقليد الخلق الكريم ، والواعظ الدينى أشبه بالمشرف الاجتماعى فى ضرورة تعرفه على النزيل ، وتبسطه معه حتى تجد مواعظه آذانا صاغية . .

* * *

وقد يكون فى بعض السجون قدر من التطور - ولو بسيط - وقدر من الاهتمام والرعاية ، ولكن المظهر الغالب هو أن نظام الوعظ فى السجون فيه ثغرات كثيرة كبيرة تجعله فاشلا لا يؤدى الغرض المطلوب منه ، لهذا نقترح الآتى علاجاً لمشكلة الوعظ فى السجون:

١ — إن أى سجن لا يقل أهمية عن أكبر مسجد من مساجد القاهرة.

فالسجن هو المجتمع المريض ، ولا شك أن من اعتلت صحته يكون فى مسيس الحاجة إلى علاج أسرع ، ورعاية أكثر ، لهذا يجب أن يكون وعاظ السجون على درجة كبيرة من الثقافة الدينية والاجتماعية حتى تكون شخصيتهم العلمية متينة قوية التأثير .

٢ — أن يتاح الوعظ لكل طوائف المسجونين بدون استثناء فلا يكون العمل فى ورش النسيج ، أو قطع الحجر فى الجبل عائقاً عن قيام الواعظ بعمله .

٣ — أن يكون فى كل سجن مسجد بجوار المدرسة، وأن توقف الأعمال فى الورش عند صلاة الظهر والعصر (وهما الفرضان اللذان من الممكن أن يكون النزلاء أثناءهما خارج الزنزانة)، فتقام الصلاة جماعة بإمامة الواعظ ، لأن المستهتر إذا ما ترك لنفسه تكاسل عن أداء الفروض .

٤ — أن تزود السجون بمكبرات الصوت حتى يستطيع الجميع التمكن من سماع المحاضرات والخطب والتعليمات أيضاً ..

٥ — أن تتبع أساليب أخرى من الوعظ غير أساليب الخطابة.

٦ — أن يكون هناك نوع من التجاوب والتناسق بين سياسة الإداريين فى السجون ، وما يلقيه الوعاظ من دروس ونصائح واستمساك بالمثل العليا والأخلاق الحميدة .

٧ — أن يكون هناك صلة شبه فردية بين الواعظ وبين من يستطيع

الالتقاء بهم من النزلاء حتى يفهم نفسياتهم واحتياجاتهم عن كثب ، حتى يدرك الموضوعات التى تشغلهم كى يتناولها فى خطبه وأحاديثه ، وأن يكون الواعظ نفسه — وكذلك الإداريون — قدوة طيبة للنزلاء حتى تؤتى المواعظ ثمارها ، لهذا يقول مدير عام مصلحة السجون سابقاً اللواء أحمد زكي شكري : « وسبيلنا في ذلك هو السبيل التى رسمها القرآن الكريم فى هدايته إلى ما فى الوجود من دلائل قدرة الله وحكمته ، مع سير الأنبياء والمؤمنين مما يمثل القدوة ، ويبين العبرة ، وإظهار هذه الحقائق فى صور مختلفة ، وأساليب مشوقة ؛ لتستقر فى العقول ، وتطمئن بها القلوب ، على أن يتخذ المدرس من مشاهدات الدارسين وبيئاتهم أمثلة تقوى المعرفة وترسى أصولها فى أذهانهم .... مع مراعاة ما يناسب كل فريق وما يلائم مستوى إدراكه ... وأهم من ذلك أن يكون القائم بالتعليم أو الإرشاد عنواناً مثاليا لما يحاول تركيزه من المعلومات .. » ... إلى أن يقول : « إن قيام واعظ أو مدرس بإمامة النزلاء أو الجنود فى صلاة يومية فى خشوع ورهبة لا يقل فى نظرى عن محاضرة ، أو عن موعظة لمئات المستمعين .. »

٨ — إن اللجوء إلى التأديب فى كل ما صغر وكبر من المخالفات أمر عجيب حقا ، فلم لا يستعان بالواعظ الكفء فى مواجهة بعض المشاكل الصغيرة لعله يقضى عليها من جذورها ، ويحلها بطريقة

قد تكون أوفق من العنف والقسوة والعقاب ؟؟ ولم لا يقضى الواعظ فى السجن فترات أطول مما هو متبع ، فيزور الورش المختلفة ، ويحادث النزلاء ، ويحاول فى أثناء مروره أن يشجعهم ، ويبتسم لهم ؟؟ هذه أمور كلها فى الإمكان ، ولا تحتاج لغير العزيمة الصادقة والبدء فى التنفيذ ..

* * *

هذا بإيجاز ما نراه بالنسبة للناحية الدينية ، لأننا نؤمن بأن الدين دواء ناجع من أدوية علاج الجريمة ، ونؤمن أيضاً بأنه يمد النزيل فى محنته بالسلوى والعزاء حتى لا يترك السجن وآلامه ونظمه أثراً سيئاً فى نفسه يدفعه إلى الانحراف والميل نحو الشر ، وحمل البغض والكراهية المجتمع الذى يعاقبه ، ويلقى به مهملا منبوذاً فى هذا المكان .

والعلاج عن طريق الدين لا يصح أن يكون قاصراً على من اقترفوا الجريمة فعلا وألقى بهم فى غيابات السجون ، لأن ذلك المجتمع المريض — مجتمع السجون — جزء من المجتمع الكبير الخارجى ، والعلاج الدينى يجب أن يتخذ طريقه وسط هذا المجتمع الكبير ، ويجب أن يبدأ من زمن مبكر ، فعندما يكون الطفل فى سن الإدراك يجب أن يلقنه البيت مبادىء الفضيلة ، كما يجب أن تقوم المدرسة بمجهود كبير لتثقيف الطفل تثقيفاً دينيا كاملا ،

يتناسب مع روح العصر ، ومطالب الحياة ، واضعين نصب أعيننا المشاكل والانحرافات التى تأتى نتيجة للإهمال فى تكوين الوازع الدينى لدى الفرد، فلا نكتفى أبداً بأن نعلمه بعض السور القصيرة ، والآيات الموجزة دون أن يفهم معناها . ولا يصح أن نقصر الأمر على تلقينه نواقض الوضوء وفرائضه وسننه فحسب ، بل يجب أن يكون تثقيفه الدينى حاوياً شاملا . وأن نركز كثيراً من جهودنا على تقويم الناحية الخلقية ، وغرس بذور الخير والحب والفضائل فى نفس الشبيبة ..

وهذه حقيقة آمن بها رجال القانون ، والباحثون الاجتماعيون، كما أن صاحب كتاب « شفاء الروح »[1] — وهو ترجمة لكتاب أجنبي اسمه « عدت إلى الدين » — قد جعل هذه الحقيقة أساساً لبحثه القيم ، وأكد بما لا يدع مجالا للشك ، أن إصلاح النفوس ، وإنقاذها من عقدها المستعصية يعتمد إلى حد كبير على الإيمان بالله وتنمية الوازع الدينى فى النفوس ..

هذا إذا أردنا أن نخلق مجتمعاً سليما معافى يقدس المثل العليا وينفر من الجريمة وما يتعلق بها من نقائص ورذائل .

* * *

(١) سلسلة كتب للجميع . .



(قطع الأحجار فى الجبل)

الفصل الخامس

الاقتصاد وعلاج الجريمة

يقول العلامة الكبير بنتام : « إذا حرم المرء طريق المعيشة ، كانت الحاجة من أقوى البواعث الدافعة على ارتكاب أكبر الجرائم ليحصل على ما يقتات به » ..

وأصحاب المدرسة العقابية الوضعية ، يرون أن البيئة هى التى تخلق المجرم وأن المجتمع عليه الوزر الأكبر فى ارتكاب الجرائم والتمهيد لها[1] ، والسبب فى ذلك هو ضعف الحالة الاقتصادية وانخفاض مستوى المعيشة لدى الأفراد[2] ..

وقد أثبتت الإحصاءات الرسمية لنزلاء السجون أن أغلبهم من الفقراء ذوى المستوى المعيشى المنخفض ، وبالبحث والدراسة لهؤلاء المجرمين ثبت أن الحاجة — كما يقول بنتام — من أقوى البواعث الدافعة لهم على ارتكاب أكبر الجرائم ليحصلوا على ما يقتاتون به .

ولقد كان للنظام الاقتصادي الفاشل في مصر — أثر كبير فى إيجاد هذه المشكلة، وكثرة جرائم السرقة والاختلاس والرشوة. . وهناك طائفتان وهما اللذان سنعنيهما بالكلام هنا ، ونقصد :

(١) العمال ..

(٢) العاطلين ..

---

(١) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب .

(٢) النظرية الماركسية تجعل الاعتبار الكلى للاقتصاد .

العـــمال

ونقصد بالعمال كل من وجد له عملا يرتزق منه ، سواء أكان موظفاً أو عاملا صناعيا ، أو عاملا زراعيا ، أو تاجراً من التجار :

(ا) والعامل الزراعى: أبأس هذه الطوائف وضعاً ، وأشقاها حياة رغم أن الجرائم التى يرتكبها — حسب الإحصائيات — أقل نسبة من عمال المدن ، ولعل ذلك راجع إلى أن كثيراً من المثل والقيم الدينية فى الريف أعمق أثراً ، وأشد سلطانا على النفوس من مثيلاتها فى المدن ، فضلا عن أن فرص السلب والنهب فى الريف الفقير فى عمومه لا تعطى فرصة كبيرة للتحريض والطمع والجشع كما أن الفلاح المصرى قد جبل على مزيد من القناعة والاستمساك بالشرف ، وخاصة فى هذا المجتمع الريفى المحدود الذى لا تكاد تخفى فيه نقيصة، ولا تكاد تستتر فيه جريمة من الجرائم ، ولهذا فذوو السلوك الخاطىء معروفون لدى كل القرية ، بل لدى القرى المجاورة أيضاً ..

فما هو أجر هذا العامل الزراعى ؟؟

إن الدولة قد حددته بمبلغ معين من القروش ، حريصة فى ذلك على رفع مستواه .

إن قرية (ش . .) فى مديرية الغربية تعداد سكانها حوالى

اثنى عشر ألفا، وعدد الأغنياء الذين يملكون أكثر من عشرين فدانا ثلاثة ، وعدد الذين يملكون فى حدود العشرة أفدنة لا يزيد عن ثمانية ومتوسط الملكية لدى الطبقة الوسطى — إن صحت هذه التسمية — يتراوح بين فدان وثلاثة أفدنة ، وعدد هذه الطبقة ليس بالكثير ، أما الباقون — وما أكثرهم — فلا يمتلكون شيئاً على الإطلاق أو يمتلكون قراريط لا تزيد على العشرة غالباً . .

إن من يمتلك عشرة قراريط وهو يكفل أسرة مكونة من زوجة وأطفال وأم تصبح الحياة عليه شاقة وعسيرة ، لهذا يلجأ إلى استئجار أرض من ذوى الأملاك — وما أقلهم — وفى نفس الوقت يلجأ إلى العمل بالأجر اليومى وتهاون فى أجره الذى حددته القوانين التى تحرص على مصلحته لدى أثرياء القرية لأن أغلبهم يتولون بأنفسهم زراعة أرضهم ولا يؤجرون منها شيئاً إلا فيما ندر . . ويلاحظ أن قانون الإصلاح الزراعى عندما أريد تطبيقه فى المركز الذى تتبعه هذه القرية لم يجد الموزع قيراطا واحداً لتوزيعه على الفقراء . . . لهذا يقبل العامل الزراعى أى أجر يومى مهما كان منخفضاً حتى يقيم أوده وأود عياله، وبعضهم يضيق ذرعاً بهذه الحياة فيهاجر إلى المدن لعله يجد عملا مجديا يرتزق منه ، وقد لاحظت أن الهجرة لدى الفلاح المصرى شيئاً ممقوتاً كريها ، وتركه لأرضه وأهله وسكان قريته أمر الموت أيسر منه . . (١)

---

(١) تغيرت النظرة الى الهجرة اليوم (١٩٨٠) وانعكست الصورة .

إن مثل هذا الجو قد يحرض على الانحراف ، ويدفع إلى ارتكاب الجرائم ، فنرى بعض الفتية يسرقون القطن من الحقول تحت ستار الليل ، وسرقاتهم لا تتعدى بضعة قروش ، وهؤلاء يكونون العصابات لسرقة الخراف والماعز أو البهائم والحمير ، وقليلون أولئك الذين يسرقون النقود ، والبعض الآخر يسرقون كيزان الأذرة ، والقمح والفول . . . إلخ . وكثيراً ما قامت المشاجرات الدامية من أجل « كوز » من الأذرة حاول أحدهم اقتلاعه ، بل إن معركة قامت — كما قلنا — من أجل خمسة وعشرين قرشاً ثمناً لمساحة برسيم صغيرة ، وراح ضحيتها أرواح كثيرة . .

ولقد ألف أهل القرية — المشار إليها آنفاً — أغنية عن فتاة فقيرة لم تجد القوت لضيق ذات اليد ، فسرقت بطة وذبحتها وأكلتها ، وكانت هذه الفتاة المسكينة عمياء ، وكانت الأغنية ساخرة أليمة ، لم يراع فيها ظروف الفتاة ، ولا حالتها المعيشية ، لذلك كانت تبكى بكاء مراً ، لكن لم يكن هناك مناص من حبس عائلها بسبب جريمة السرقة ، وقد اعترف العائل بالجريمة وألصقها بنفسه حتى ينقذ الفتاة . ..

إن سوء الحالة المعيشية يتفرع منه جرائم عدة مثل جرائم السرقة والنصب والاختلاس وخيانة الأمانة واستخدام الربا الفاحش وقد تؤدى هذه الجرائم بدورها إلى جرائم القتل ، فتورث الأحقاد وتؤجج نار الفتنة بين المجتمع ..

لهذا نقترح الآتى بالنسبة للعمال الزراعيين :

١ — تشجيع الهجرة بشتى الطرق والوسائل ومحاولة التغلب على تلك العاطفة الزائدة نحو الأهل والموطن الذى يفضله الفلاح على غيره راضياً بما يرزح تحته من بؤس وفقر يدفعان إلى الجرائم .. (١)

٢ — محاولة إنشاء بعض المصانع بالقرب من القرى حتى تكون مصدراً آخر من مصادر الرزق لدى الفلاحين ، ولقد نجحت تجربة إقامة مصانع الطوب على شاطىء بحر شبين نجاحاً كبيراً ، وكذلك نجحت صناعات أخرى غيرها ، ولا شك أن إيجاد مثل هذه المصانع سيصرف عدداً من العمال الزراعيين إليها ، فإذا ما قل عددهم فى القرية كان ذلك مدعاة لرفع أجورهم ، وعدم استغلالهم ذلك الاستغلال المشين ، كما يجب تشجيع بعض الصناعات الريفية ..

٣ — إشراف الحكومة إشرافاً جدياً على أجر العمال الزراعيين ، إذ ليس من الإنصاف أن تقضى الفتاة أو الفتى نهاراً كاملا — من مطلع الشمس إلى مغربها — فى جمع محصول القطن ، أو تنقية القطن من إصابة الدودة ، أو تنقية الأرز من بعض النباتات

---

(١) حدث أن أحد الفلاحين فى القرية التى أشرنا إليها رفض الانتقال إلى بلدة كفر سعد لاستلام خمسة أفدنة رغم أنه لا يملك فى قريته قيراطاً واحداً .

الضارة به ، أو إدارة الطنبور ، أو عزق الأرض ... أو .. أو ... إلخ مقابل مبلغ زهيد ...

٤ — محاولة إعانة أكبر عدد ممكن من هذه الأسر الفقيرة عن طريق وزارة الشئون الاجتماعية ووزارة الأوقاف وعلى نطاق أوسع ، أما تأجيل هذه الإعانات حتى يتورط هؤلاء المواطنون فى الجريمة ، وإعطائها لهم عقب خروجهم من السجن فهذا تصرف خاطىء ، إذ يجب أن نحاول توقى الجريمة ولا يصح أن ننتظرها حتى تقع ثم نعالجها ..

٥ — الإشراف الدقيق على الناحية الصحية ، ومعاونتهم فى ذلك حتى لا يقعوا فريسة بين براثن بعض الأطباء الجشعين ، وحتى يصبح العلاج سهلا ميسوراً فيبادروا إليه ، وفى ذلك ما فيه من تخفيض نسبة الجرائم ، لأن البدن السليم وثيق الصلة فى كثير من الأحيان بالنفوس السليمة والتصرفات المتزنة ، وقد ألمحنا فيما سبق ، أن بعض الانحرافات تنتج عن اختلال عضوى أو وظيفى Physiolagical فى جسم الإنسان .

* * *

(ب) أما العامل الصناعى : فقد يكون أحسن قليلا من زميله الزراعى إذا اتخذنا ما يناله من أجر كأساس للمقارنة ، لكن مستواه المعيشى ، وحالته النفسية ومشاكله الاجتماعية قد لا تقل خطورة عن صاحبه ..

والعمال - كما لاحظت - تنمو بينهم عادات وخصال قبيحة تترك أثراً سيئاً فى مجرى حياتهم ومستوى معيشتهم ، ومستقبلهم الاجتماعى ، فكثيرون منهم يتناولون المخدرات ، ويشربون الخمر ، ويقارفون شتى المآثم ، وإزاء هذه الأوبئة يصبح أجرهم — ولو كان مرتفعاً — أقل مما يريدون .

ولا شك أن بعض فئات العمال - الذين لهم نقابات تحميهم وترعى شئونهم - قد بلغوا منزلة لا بأس بها، لكن أولئك العمال الذين ينتقلون من ورشة إلى أخرى ، ويتعطلون أياما ويشتغلون يوما[1] ، ويعرضون للطرد من آن لآخر ، أولئك العمال الذين يحيون حياة قلقة غير مستقرة ، ويصبحون نهبا للأزمات المالية ، قد يندفعون إلى بعض الأعمال المخالفة للقانون اضطراراً . . فالنزيل (م . م) يروى لى أنه كان كهربائيا ، لكنه كثيراً ما كان يجد نفسه فى الشارع بلا مأوى ولا طعام ، فتلقفته أيدى رفقاء السوء ، ولقنوه قواعد « النشل » ، وجعلوه يخوض التجارب العملية تحت سمعهم وبصرهم ، ولما نجح أخذوا « يسرحونه » ، ثم يقاسمونه ما يحصل عليه من سرقات . . . وفطن (م . م) إلى أنه أصبح شخصية يعتد بها ، وأنه يمكنه الاستقلال بنفسه ، وفعلا تم له ما أراد ، فأصبح من الفئة المرموقة فى عالم النشل وبدلا من أن « يسرح » مرة صباحاً وأخرى مساء ، فقد اكتفى بالسرحة الصباحية ، بل وأخذ يجمع

(١) يلاحظ أن هذه الدراسة قمنا بها قبل عام ١٩٥٨ .

حوله التلامذة ليدربهم ويلقنهم أسرار الصنعة التى سيأ كلون منها العيش ..

وهناك «عفيفى» ذلك الشاب «الجزجى» فى إحدى المرات التى طرد فيها بسبب سوء تفاهم بينه وبين صاحب الورشة ، خرج هائما على وجهه، ثم حط رحاله فى حى «الباطنية» بالقاهرة قرب جبل المقطم ، وحى الباطنية كما يقول عفيفى سوق رائجة المخدرات ، وكثيرون أولئك الذين يتجرون فيها ، ولازم عفيفى أحد المعلمين الكبار حتى تعلم منه فن الاتجار فى المخدرات .. وبرع .. لكنه وقع .. وحكم عليه بالسجن خمس سنوات حيث التقيت به فى سجن القناطر الخيرية . . . لكن هل ارتدع عفيفى ؟؟؟ كلا . .

والسبب فى ذلك تلك الحياة القلقة الغير مضمونة فى الورش الصغيرة والمحلات التجارية التى تتصرف كيف تشاء ، وتعبث بمستقبل العمال وبمصيرهم بطرق ملتوية ، وتدابير خبيثة ، حتى ولو لفقت للعامل المسكين تهمة السرقة ، أو عدم الأمانة أو التبديد وما إلى ذلك . .

* * *

فالبطالة عنصر خطير من عناصر إيجاد الجريمة والتمهيد لها ..

ونحن هنا لاناقش مشكلة البطالة تفصيلا فلذلك مكان آخر

لكن أردنا أن نلفت النظر — بإيجاز — إلى خطورة هذه المشكلة التى تغذى السجون بالايراد الدائم، والضحايا الجدد . .

وواضح جدا أن الاهتمام بصغار العمال وتهيئة المستقبل المضمون لهم ورعايتهم خلقيا ودينيا واقتصاديا وصحياً من أوائل الأمور التى يجب الالتفات إليها قبل أن يصبحوا عامل شغب، ومثار فتنة، ودعاة جريمة فى مجتمع خارج السجن [1] . .

* * *

هذا مانراه خاصا بأولئك المساكين الذين يجدون البيئة التى تساعدهم على اقتراف الجرائم وسنحاول الآن أن نناقش ونعالج الحالة الاقتصادية، لذلك الذى انزلق فعلا إلى الجريمة، وقذف به إلى السجن : .

حالة السجين الاقتصادية

لقد أصبحنا أمام الأمر الواقع . .

ودخل المواطن إلى السجن ليكفر عن جريمته التى دفعه إلى ارتكابها سوء حالته المعيشية فى كثير من الأحيان . .

وأسرته مازالت خارج السجن . .

أجل الأسرة التى ارتكب الجريمة من أجلها، ومشى فى طريق

---

(١) لاتألو الدولة جهدا الآن فى معالجة هذه المشكلة فى إخلاص وحزم

الشوك والمغامرة والعار كى يحصل لها على القوت اللازم، والكساء الكافى . فالمشكلة إذن مازالت قائمة .

والحالة مازالت ملحة . .

والتحفظ على السجين داخل الأسوار ليس كل شيء . .

إن زوجة السجين تريد أن تعيش ، وكذلك أولاده وذووه ، فإذا لم تتدارك الدولة هذا الوضع بالعلاج اللازم ، والمشروعات النافعة ، فقد تتحول الزوجة إلى لصة ، أو إلى بائعة مخدرات ، أو تبيع عرضها وشرفها قبل أن تموت جوعاً ، وقد ينهج أولادها نهجها وإلا فالضياع والموت لهم . . . إن العائل الفاسد الذى تأثر بوضعه الاقتصادى السيء قد خلف لنا عائلة كاملة على وشك الفساد ، وبهذا تتفاقم المشكلة ، أو يتضاعف عدد المجرمين ، ويتعرض المجتمع لمزيد من التهديد والاعتداء والاضطراب . . أليس كذلك ؟ ؟

وعندما يخرج العائل من السجن ، ويرى أن أسرته قد وصلت لهذا الدرك من الفساد والضياع فسوف يستأنف حياة الجريمة ، ويستعذب أسلوبها وتصبح عادة متمكنة منه، ويصبح العمل الشريف فى نظره عبثا وعبئاً ثقيلا مملاً . . .

لذلك نرى الاهتمام بنقطتين هامتين ، لم تهملهما بعض الدول الاجنبية، ورصدت لهما الكفاءات والاخصائيين الكافين، وتعاونت

الهيئات الشعبية مع الأداة الحكومية فى الاهتمام بهما، لكن فى مصر مازالت الخطوات وئيدة جدا ، وما زالت المجهودات المبذولة تحتاج إلى أضعاف مضاعفة :

أولهما : التأهيل المهنى ·

ثانيهما : إعانة أسرة النزيل .

وسنتعرض لكل منهما فى سرعة وإيجاز .

التأهيل المهنى :

والتأهيل المهنى هو إحدى الطرق العلاجية المجدية التى تمخضت عنها الحركات الإصلاحية الحديثة ، وهو عبارة عن اختيار حرفة مناسبة للنزيل كى يتقنها ويتلقى أصولها وقواعدها على أيدى أساتذة مدربين بحيث يستطيع النزيل أن يتخذها مصدر رزق له عند الإفراج عنه حتى لا يعود إلى حياة الجريمة مرة أخرى ، ويشترط فى هذه الحرفة التى تختار للنزيل الشروط الآتية :

١ — أن تتفق مع ميول النزيل واستعداده حتى يقبل عليها بشغف .

٢ — أن تكون مناسبة للبيئة التى سيعود إليها النزيل بعد الافراج عنه بحيث يجد السوق الرائجة لتوزيع منتجاته . .

٣ — يراعى فى هذه المهنة الناحيتين : التأهيلية والإنتاجية . .

فالتأهيل هو الإلمام بكل ما يحيط بالحرفة من فن ودراية وإقبال. والإنتاج يرجى من ورائه إعطاء أجر النزيل ثمنا لما بذل من مجهود حتى يشعر بدافع يدفعه إلى العمل والإجادة ، ولا شك أن هذا الأجر، سوف ينفق منه النزيل داخل السجن ، وسوف يستطيع أن يرسل إلى عائلته ـ إن كان له عائلة ـ قدرا يقيم أودها ، ويرفع من مستواها المعيشى ، وسيبقى جزء ثالث فى أمانات النزيل يستلمه عند الإفراج عنه بعد انتهاء المدة المقررة . .

٤ — محاولة إعطاء النزيل مبلغاً ـ كرأس مال مناسب ـ من أجل قيام الحرفة التى كانت من نصيبه ، كى يبدأ حياته العملية فى المجتمع . .

٥ — الاتصال بالمؤسسات الخارجية الإنتاجية كى تفسح للنزلاء المؤهلين أماكن بين عمالها والفنيين فيها ، دون أن تكون « السابقة » أو مجرد دخوله السجن عائقاً لذلك . . .

* * *

ولقد ألمحنا آنفاً أن طريقة التصنيع فى السجون تؤدى بإهمال وارتجال دون مراعاة لاستعداد النزيل ، ودون بحث لمشكلته الفردية ، وألمحنا أيضاً أن الصناعات المقامة فى السجون محدودة العدد ، ثم انها لا تتناسب مع التأهيل المهنى الذى نريد ، وإذا ما بقى الوضع على هذه الصورة فسيظل داء الجريمة مستشرياً ، وستظل



اللحام ، : فى السجون
(تأهيل مهنى)

البطالة تحرض أصحاب المستوى المعيشى المنخفض على الانحراف والهزء بالقانون . .

صحيح أن التأهيل المهنى قد أصبح أمراً معترفاً به ، وبعض السجون المصرية قد حاولت تجربته ، لكن فى نطاق ضيق جداً بحيث لا يزيد على ٤ ٪ من عدد النزلاء ، ورغم هذه النسبة الضئيلة فإن أغلب هؤلاء الـ ٤ ٪ لم يتعلموا المهنة لأول مرة فى السجن فهى مهنتهم فى الخارج ، ولم أجد من المؤهلين الجدد فى سجن القاهرة غير بعض الذين يتدربون على الآلة الكاتبة ، وعدد قليل فى الحرف الأخرى . .

فضلا عن أن مسألة التصنيع لا تخضع للاختبارات الطبية والنفسية والاجتماعية ، بل هى كما قلنا تقوم على الارتجال والحظ لا غير . .

* * *

إن التأهيل المهنى إذا ما اتسع نطاقه وروعيت فيه الأساليب العلمية الحديثة الدقيقة ، وروعى فيه حق النزيل فى الأجر وفى التعويض إذا ما أصيب أثناء العمل ، وروعى فيه ضمان توزيع المنتجات ، فإن ذلك سوف يكون خطوة موفقة فى ميدان كفاح الجريمة والتخفيف من أضرارها ، وفى نفس الوقت سيكون فتح باب للرزق الشريف يلجه النزيل فيجد لديه العصمة من الزلل .

وماذا يريد النزيل إذا ماارتفع مستوى معيشته ، ووجد ضروريات الحياة مكفولة لأسرته.؟ ؟ ؟

إعانة أسرة النزيل :

إن الوضع الحرج الذى وضعت فيه أسرة النزيل بعد أن سجن عائلها ، والمستقبل الغامض الذى ينتظرها ، ونظرة المجتمع إليها نظرة خاصة ، كل هذه عوامل تسبب للمتاعب النفسية للسجين ، والارتباك لأسرته ، ومن هنا تتعرض صلة المسجون وأسرته بالمجتمع لمشاعر منحرفة ضارة ، لن نجنى من ورائها الخير على أية حال . .

لهذا وجب على الدولة أن ترعى هؤلاء المساكين الذين لم يجرموا وإنما الذى أجرم عائلهم ، ووجب عليها أن تكفل لهم الحياة الكريمة لدرجة معقولة ، ولاشك أن ذلك سوف يرد إلى النزيل ثقته بالمجتمع . وثقته بالدولة التى يحيا فيها ، وثقته بالقانون الذى ناصبه العداء .

إن هذا موضوع مقرر وبديهى تفرضه الإنسانية وروابطها النبيلة ، ويفرضه ضمان صلاح المجتمع ، واستمتاعه بالهدوء والسلام .

سألت النزيل (م . ا) وهو من معتادى الإجرام .

— « خدت كم سنة ؟ ؟ » .

— « ستة أشغال . . »

— « انت متزوج ولا" لأ ؟ ؟ »

— « متزوج وعندى ولد » .

— « عندك أملاك . . . . »

— « ولا مليم . . . يامولاى كما خلقتنى » .

— « طيب . . ومراتك هتروح فين دى الوقت ؟ » .

فقال فى عدم اكتراث مصطنع ، وأنا أعلم أن قلبه يتفطر حزناً لما رأيته فى عينيه من دموع حائرة ، واختلاجات فى شفته السفلى ، وتلاحق فى أنفاسه . . . قال :

— « وأنا هعمل لها إيه . . ؟ ' . . تروح بيت أبوها »

ومضى . .

ووقفت أنظر إلى جسمه الهزيل الضامر ، وخطواته المتلعثمة ، لكنه التفت إلى" فجأة وقال :

— « إن شاء الله بعد ماطلع من الحبسة دى أبق آجيلك مصر عشان تشوف لى شغلة ناكل منها عيش . . »

إنه رغم أنه من معتادى الإجرام ، ورغم أنه سرق عشرات

إن لم يكن مئات المرات مازال فيه بقية من خير ، ووازع من ضمير وأمل فى العيش الشريف الهادىء ، فواجب الدولة أن تعالج مثل هذا البائس علاجاً بجدياً ، وواجب عليها أيضاً أن ترعى أسرته وتحميها من الضياع والانهيار الذى ينتظرها .

إن ذلك كله أمانة فى عنق الدولة ، والتفريط فيه جريمة لا تغتفر . . .

معيشة المجرم بعد الإفراج :

إن المجرم سوف يواجه المجتمع بعد خروجه من السجن ، ويجب على الدولة أن تكون بجواره وهو يخطو إلى عالم الحرية ، إنها سوف تعطيه الإعانات المالية اللازمة ، وسترشده إلى أحسن الطرق لاستغلال ما يملك ، وستشركه فى التفكير ، وفى تقرير مصيره حتى يشعر بشخصيته وبكيانه ، وستسهل له سبل الاتصال بالمجتمع والاندماج فيه ، وستحاول أن تعاونه فى مواصلة مهنته التى تعلمها فى السجن كى تؤتى ثمارها .

إن عين الدولة يجب ألا تنام وإلا فستنتكس الحالة ويعود المجرم إلى الوراء .. إلى مشاكله القديمة والأزمات التى تأخذ بخناقه ، ويبدأ فى مزاولة حياة الجريمة من جديد ، فينجو من يد القانون مرة أو أكثر ، ثم يقع فى قبضة المجتمع من جديد مجرماً آثماً . . . لكن مالنا نقول دائماً ... الدولة ... الدولة .

إن نشاط الأفراد والجمعيات الأهلية ، والمجهودات التى تقوم بها المؤسسات الخيرية لها دورها هى الأخرى ، فإلقاء العبء على الدولة كلية أمر فيه كثير من الإرهاق والظلم ، ثم إن قيام الهيئات الأهلية بمثل هذه الأعمال الجليلة أمر يؤكد الصلات الطيبة ، والمشاعر المتماثلة ، والتجاوب المتبادل بين شتى أفراد المجتمع ، وفى ذلك ما فيه من نفع وإصلاح وتقويم ..

* * *

هذا ما ارتأيناه بالنسبة للمواطن الموجود خارج السجن والمعرض للزلل ومقارفة الجريمة ..

وبالنسبة للمواطن إذا ما أجرم وقذف به خلف الأسوار ..

وبالنسبة لذلك المواطن وقد خرج إلى المجتمع من جديد ..

فهل بلغنا ما نهدف إليه فى هذه السطور الموجزة .. ؟ ؟ !

* * *

الفصل السادس

تصحيح القيم الخاطئة

تعرضنا فى الفصل الأول القيم الخاصة التى يؤمن بها نزلاء السجون ويضعونها موضع التبجيل والاحترام ، بالرغم من ثبوت فسادها ، وتأكيد أضرارها البالغة ، ولا شك أن ترك هذه القيم على ما هى عليه مدعاة لمزيد من الفساد ، وتمهيد لجديد من الجرائم والانحرافات ، لهذا وجب أن نتناول هذه القيم الضارة بالبحث والتمحيص حتى نفهم بدقة دوافعها ودقائقها ودلائلها النفسية حتى نستطيع علاجها علاجاً حاسماً ، وهذا هو واجب الباحثين الاجتماعيين ، والأخصائيين النفسيين .

لهذا كان من الواجب أن تستعمل كل أساليب التوجيه والارشاد المختلفة فى حملات جادة منظمة تكشف القناع عن فساد هذه القيم ، ولا يكفى ذلك فحسب ، بل يجب أن تملأ قلوب النزلاء بقيم أخرى أسمى وأعظم .

إن المعرفة كما يقول اللواء محرم عثمان « هى أول خطوة فى طريقنا الطويل إلى الغاية التى ننشدها ، وعندما يتهيأ لنا من المعرفة قدر يزيد عقولنا نوراً ، وقلوبنا ونفوسنا حنانا ، اندفعنا غير مدفوعين ، وسرنا غير مسيرين ، نحو طريق مرسوم ، وهدف معلوم لا تختلف فيه الآراء ، ولا تتعارض النظرات » .

وأول مشكلة نريد علاجها هنا هى المشكلة الجنسية ..

علاج المشكلة الجنسية :

من المؤسف أن علاج الرسميين ورجال السجون لهذه المشكلة ما زال علاجا غير موفق ، لأنه لا يقصد الداء مباشرة ويجتثه من جذوره ، بل يحاول أن يخفف من حدته وحدة أعراضه قليلا ، وينسى الجميع أن المشكلة ما زالت كما هى ، وأن السجين ما زالت رغباته وغرائزه تلح عليه ، وأن البيئة السجنية ، وظروف السجن والمكان والحاجة ما زالت تعمل عملها ، ويزعمون أن الألعاب الرياضية وما فيها من منافسات ترفع معنوية النزيل سوف تتسامى بروحه ، وتتصاعد بغرائزه وأحاسيسه الجنسية ، فيبذل طاقته فى ميدان برىء ، ويتجنب الخوض فى الآثام .

أهذا كلام يقال ؟؟؟

هناك أحد النزلاء وهو رئيس إحدى فرق الرياضة فى سجن ما ، ولا يكاد يترك الملعب إلا فى فترات قليلة ، ومع ذلك لم يكن هذا ليمنعه من السقوط والتردى ... وغيره كثيرون .

ثم هؤلاء الذين يقضون وقتهم فى الجبل يكدحون ويعرقون فى ليمان أبى زعبل وطره ، إن مرارة الحياة ، وقسوة العمل لم تصرفهما عن الانحراف ...

وحقيقة مرة أخرى أدركتها .. !!!

إن سجن مصر مثلا لا يسمح بمزاولة الرياضة فعلا الا لعدد

ضئيل وأعنى بهذا العدد الضئيل الفرق الرياضية الرسمية فقط ، وهم لايقاربون الخمسة وعشرين فردا بأى حال من الأحوال ، وكذلك الحال فى باقى السجون ، مع قليل من الاختلاف البسيط .

ومع ذلك نزعم بأن الرياضة سوف تتسامى بالغرائز ، وتحميها من الشذوذ . ولو سلمنا جدلا بصدق هذه النظرية وجدواها ـ وإن كان هذا بعيد التحقيق ـ فإن الرياضة لاتشمل الغالبية العظمى من نزلاء السجون أولئك الذين يقضون يومهم بين الزنزانة والورش لاغير .

إن الحل الذى أقترحه ليس حلا جديدا ، لأن بعض الدول قد سبقتنا إليه ، ونجحت التجربة لديهم نجاحاً طيبا ، وهذا الحل هو إتاحة الفرصة للنزيل كى يتصل اتصالا جنسيا طبيعيا فى حدود الشرع والقانون ، سيقول قوم إن هذا يتنافى مع تقاليدنا الشرقية ، ولكنى أقول لهم : وهل الشذوذ الجنسى يتفق مع تقاليدنا ؟؟ وهل إشباع الغريزة الجنسية عن طريق حلال يدعو للقلق والعار ؟؟؟

وسيقول آخرون ، قد يؤدى هذا إلى مشكلات عائلية ، لأن الزوجة ستكون طليقة فى الخارج ، وقد تراودها نفسها بشىء ما ، فيكون ذلك مدعاة لفصم عرى الرباط العائلى المقدس ... ونحن نقول بدورنا إن هذه مشكلة أخرى ، فالمرأة التى تخون فى فترة وجود زوجها فى السجن ، لن تعدم الوسائل لخيانته وهو خارج السجن ، وهذا أمر يتعلق بالأخلاق العامة ولا يقف حائلا دون تحقيق ما ندعو إليه .

وسيقول فريق ثالث : إن الحل الذى تقترحه قد يتناسب مع المتزوجين ، فكيف تحل مشكلة الغير متزوجين من الشباب الموجودين داخل السجن ؟؟ والأمر هين يسير، إن هؤلاء مشكلاتهم لم تنشأ داخل السجن فحسب ، بل إنها من الخارج ، والحل يتناول أزمة الزواج عامة فى الوطن وليس فى السجون وحدها ، ثم ما المانع فى أن يسمح للسجين القادر ذى اللياقة البدنية ، والمستوى المعيشى الميسور ، والذى يقضى فترة طويلة فى السجن ، ما المانع فى أن يسمح له بالزواج ، ثم يطبق عليه نظام المتزوجين المسجونين ؟؟

بأى حق يعيش عشرين عاما خلف القضبان أو دون ذلك بقليل ، محروماً من حقه فى مزاولة نشاطه الجنسى ؟ ؟ ؟

ولكم يدهشنى أن يقول أحد الأساتذة الذين تعرضوا لمعالجة هذه المشكلة « إن عدد المسجونين قليل ، ولا بأس من أن يحرموا من النشاط الجنسى ، بدلا من السماح لهم به بطريقة قد تؤدى إلى الارتباك ومخالفة العرف والتقاليد الاجتماعية .. »

إن كل فرد كفيل بأن ينال حقه، صغر هذا الفرد أم كبر،أجرم أم لم يجرم ، فهناك حقوق انسانية طبيعية ، وحرمان الانسان منها ظلم فادح ، وانتهاك لآدميته ، وإرهاق لنفسيته وغرائزه ..

أما الطريقة التى يسمح بها للزوج كى يلتقى مع زوجته وهل هذا اللقاء يكون فى غرف خاصة داخل السجن،أو زيارات محدودة

خارج السجن فى بيت الزوجية ، وتحديد مدة هذه اللقاءات ، والتحفظات اللازمة إزاءها ، فإن هذه الأشياء كلها أمور فرعية من السهل بحثها وترتيبها بحيث تتفق مع ظروفنا الخاصة داخل السجن وخارجه ، لكن المهم أولا هو الموافقة على الحل من حيث المبدأ .

إننا بصدد تحويل السجون إلى منشآت اجتماعية وعلاجية ، وإصلاح النزيل إصلاحا شاملا ، وتجاهل الناحية الجنسية — وهى لها أكبر الأثر فى سلوكنا فى الحياة كما يؤكد فرويد — أمر لا يتفق تماما مع مانهدف إليه من غايات كبيرة . .

وإلى أن يحين تحقيق هذا الحل . نشير ببعض المقترحات التى تتناول علاج هذه المشكلة — الخطيرة داخل السجون فى الوقت الحالى :

١ — تعميم الرياضة وتنويعها وعدم قصرها على الفرق الرسمية فقط .

٢ — فرض رقابة شديدة على أولئك المجرمين الخطرين الذين يستغلون صغار السن بالتهديد ، أو يغرونهم إغراء ماليا — لفقرهم — حتى يوقعوهم فى شرك الشذوذ . .

٣ — التغلب على مشكلة ضيق السجون وازدحامها . .

٤ — وضع المشكوك فى أمرهم فى الحبس الانفرادى مع تجنب ما يسببه هذا الحبس من آثار نفسية وصحية ، وذلك بالاكتفاء بفترة

الليل فقط ، ويا حبذا لو تغلب النزيل المنفرد على مشكلة الفراغ بالقراءة أو مزاولة بعض الأعمال والهوايات كما فى بعض السجون الاوربية .

٥ — فى أمريكا منشآت خاصة للمجرمين المصابين بالإنحراف الجنسى والأمراض النفسية و .. و .. إلخ..فلم لانتهج هذاالنهج فى بلادنا ؟ .

٦ — توضيح خطورة هذا الشذوذ وشرح أضراره الخلقية والجسدية والاجتماعية ، ومدى منافاته للدين والرجولة بطرق شتى حتى يفهم النزلاء — وغير النزلاء — حقيقته الضارة ، ومفاسده المشينة .

٧ — علاج من يثبت فعلا أن شذوذهم راجع فعلا إلى اضطراب فى الغدد المختلفة ، أو إلى نقص وظيفى فى أحد الأعضاء المختصة ، والحقيقة إننى لم أجد فى السجون المصرية حالة واحدة عولجت من هذا الداء ، وذلك راجع لعدم الاهتمام بالبحث عن هذه الحالات ، وإدراك مدى خطورتها ..

٨ — علاج مشكلة التشرد فى خارج السجن ، لأن مجتمع المتشردين مجتمع له مفاسده ومباذله التى قد تقترب فى طبيعتها من مفاسد السجون ومباذلها ..

العلاقة بين النزيل والإداريين :

قلنا فى بداية بحثنا أن العلاقة بين المسجون وسجانه تقوم على عدم الثقة والعداء والتربص للانتقام ، مما جعل النزلاء يؤمنون بأن « مخالفة اللائحة واجب » ويعتبرون ذلك إحدى القيم المتعارف عليها داخل السجون ..

وقلنا أيضا ان ذلك يرجع فيما يبدو إلى معاملة كثير من السجانة للنزيل معاملة ملؤها الاحتقار والقسوة، وراجع أيضاً إلى بعض النظم الضارة المتبعة فى السجون ، وكذلك مشكلة الممنوعات التى يتحايل السجين بطرق شتى ، ووسائل عدة كى يحصل عليها ..

وعلاجا لهذا « المبدأ » الضار الذى يعتنقه النزلاء نرى ما يأتى :

١ — العمل على إفهام النزيل أن من معه من الإداريين لا يكنون له العداء والكراهية ، وإنما هم هنا لحمايته والسهر على راحته ، وتهيئة العناية الصحية والغذائية والترفيهية اللازمة له فى حدود اللوائح والقانون . ومجرد إفهام النزيل ذلك لا يكفى ، إذ لابد أن يتفق الكلام الذى نقوله للنزيل مع واقع الحياة فى السجن ، فيرى فعلا أن السجانة والإداريين لا يرغبون إلا فى راحته وعلاجه وتهيئة الجو الطيب المناسب له .

٢ — إحلال المدنيين تدريجيا محل العسكريين فى إدارة السجون كما أوصى مؤتمر جنيف بأغلبية الأعضاء ، حتى لا تصطدم المشروعات

الاجتماعية التى ينظمها الأخصائى الاجتماعى مع النظم الإدارية البحتة التى قد لاتقيم اعتبارا للآراء الاجتماعية والنفسية . .

٣ — تقليل عدد المواد الممنوعة إلى أقصى درجة ممكنة حتى لا يلجأ السجين إلى الوسائل غير المشروعة للحصول عليها، فيصطدم باللائحة ، ويتعود على مناصبة القانون العداء، سواء فى الداخل أو الخارج . .

٤ — خلق حرمة وقدسية للقانون واللوائح فى نفوس النزلاء ، حتى يتعودوا على احترامه ، ويتحرجوا من مخالفته ..

٥ — الدروس الدينية ، والثقافات العامة ، والحفلات الترفيهية مما يضيق الشقة بين النزلاء ورؤسائهم ، ويقلل من عدد الحوادث المحلية . . .

معالجة التمارض وفن اصطناع العاهات :

إن مثل هذا العمل ينطوى على الكذب والرياء والهروب من تحمل المسئوليات ، كما أنه يحمل فى ثناياه صورة لنفس صاحبه المعقدة المضطربة ، ولقد سردنا الأسباب التى جعلت النزلاء يؤمنون بأن هذا التمارض واصطناع العاهات فن دقيق لاعيب فيه ولا حرج ، ولوراعينا اللياقة البدنية والنفسيه والميول الشخصية فى إسناد العمل للنزلاء ، ولو أعطيناهم أجورا على هذا العمل ، وساعدناهم على التأهيل المهنى الذى ينفعهم خارج السجن ، لو فعلنا

ذلك لما لجأ السجين إلى تلك الطرق الملتوية للفرار من العمل.

ولورددنا للنزيل اعتباره ، وعاملناه كإنسان ذى شخصية يحس ويشعر ويريد أن يثبت وجوده ، لما عمد إلى الوسائل الشائنة فى تأكيد شخصيته ، ولفت النظر إليه . .

وإذا ماقضينا قضاء تاما على شتى ألوان القسوة فى المعاملة ، ووسائل الانتقام والتشفى فإن السجين سوف لايفكر فى أن يصيب نفسه بعاهات وجراح ينسبها إلى سجانه . .

السجن والبطولة :

ليس السجن مفخرة وبطولة فى أغلب الأحيان ، هذا مايجب أن نؤكده للنزلاء ، حتى لا يعتنقوا الفكرة الخاطئة التى تقول « السجن للرجالة » . فالسجن لايكون إلا للسارقين والسالبين حقوق غيرهم . .

والسجن من نصيب القتلة والسفاكين . .

والسجن جزاء كل من تسول له نفسه بأن يرتشى أو ينصب أو يخون الأمانة دون وازع من دين أو ضمير . .

والسجن عقاب العابثين بحرمة القانون ، المتعرضين لقداسته بالمخالفة والعصيان والاستخفاف . .

فالسجن — باختصار — مكان يحشد فيه أعداء المجتمع

للإصلاح والعلاج وليس مكانا للأبطال والرجال الفاضلين لأن البطولة والفضيلة شيء آخر غـــير السرقة والنصب والقتل والتزوير . . . . الخ

فإذا فهم النزيل ذلك وآمن به إيمانا عميقاً ، فإن نظرته إلى نفسه سوف تتغير ، وبالتالى ستتغير نظرته إلى السجن أيضاً ، ولعله يلتمس العذر للمجتمع الذى عاقبه هذا العقاب . ووضعه فى هذا المكان ذى الأسوار والقيم الخاصة ..

فليس كل من فى السجن « مظاليم » كما يزعمون إذن ، بل أغلب من فى السجون هم الظالمون .. الظالمون لمجتمعهم ، لأنهم جعلوا من الثأر فضيلة وجعلوا من ادمان المخدرات « فهلوة » ورجولة وجعلوا من التعصب الإقليمى أمراً واجبا .. وسموا الصدق وأداء الشهادة « خبصاً » ..

واستساغوا حياة الدس والوقيعة والشائعات، واعتبروا المساواة فى الظلم عدلا ..

أجـــل ، إن قيمهم هي التي انحرفت ، ولكن يجب ألا ننسى الظروف التي نشأوا فيهــا ، والمؤثرات التي أثرت في حياتهم ، فشكلت معتقداتهم وسلوكهم ... ولا شك أن كل مشكلة من هــذه المشاكل كالثأر .. والمخدرات .. والعصبية .. تحتـــاج إلى دراسة خاصة وبحث دقيق ، لكن استنارة الأذهان بوجه عـــام ، والكشف عن الخداع والبهتان في

هذه القيم ، والتنفير منها ، وملاحقة الساقطين في هـــذه الأخطاء سواء فى المجتمع الخارجى أو فى مجتمع السجن ، كل هذا قد يخفف من حدة انحرافهم،ويصلح من فساد أفكارهم التى أصبحت بمرور الزمن ، وحكم العادة شيئاً راسخاً فى الأذهان ليس من السهل اقتلاعه ..

هذا ويجب ألا ننسى أن كثيرا من النزلاء مازال فيهم بقية من خير واستعداد للعودة إلى الحياة الطبيعية السليمة، إذ لا يعقل أبدا أن تمسخ كل القيم والفضائل فى نفس أى انسان مسخاً تاماً ،بل إن هذه الخامات قدتصبح فى يوم من الأيام مصدرا للوطنية الصادقة والانتاج الضخم ، والعمل المثمر المفيد . .

* * *

وكلمة أخيرة فى هذا الفصل . .

هل تعتقد أيها القارىء أن هذا العمل الضخم ، وهذه المسئولية الكبرى من السهل القيام بها ، والمشرفون على سجوننا على ماهم عليه من عسكرية جافة ، ونقص فى التعليم والتثقيف ، وارتجال فى شتى مرافق السجن كالوعظ والتصنيع والتعليم ونمط المعيشة ، وكذلك المعاملة التى يلقاها النزيل داخل السجن ، ثم فى الخارج عندمايواجه المجتمع الذى يناصبه العداء ؟ ؟

إن المسئولية ليست هينة ميسورة على ما يبدو . . .

الفصل السابع

التعليم فى السجون

التعليم بالنسبة للمجرم أمر فى غاية الأهمية ، هذه حقيقة بديهية لا يختلف فيها اثنان ، وإن كنا ندرك أن التعليم وحده لا يكفى ، لهذا تكلمنا عن ضرورة الدين وخلقه للوازع الخلق ، وتكلمنا عن التأهيل المهنى وأثره فى الكسب الشريف، وتكلمنا عن حسن معاملة السجين باعتباره آدمياً له مشاعر وأحاسيس ، وتكلمنا عن تصحيح القيم وما يجره ذلك على المجتمع من فوائد جليلة ..

إذن فالتعليم وحده ليس بكاف ، وانما يجب علينا أن نضع هذه العناصر المختلفة مع بعضها فى تناسب رتناسق ومقادير معقولة حتى نستطيع الحصول على « مزيج » صحيح يكون فيه العلاج الشافى .

والتعليم - كما أعتقد - فى السجون ، يجب أن ينقسم إلى ثلاث شعب ، كل شعبة لها ضرورتها ومطالبها الخاصة، ولها تأثيرها الفعال على هذا المجتمع ، وسنتناول كل قسم من هذه الأقسام بشىء من الإيجاز .

هذه الأقسام هى :

(١) محو الأمية ..

(٢) التعليم المدرسى ..

(٣) التثقيف العام ..

(١) محو الأمية :

لوحظ فى الإحصائيات أن عدداً كبيراً من النزلاء لا يعرف القراءة والكتابة ، وهذه الطائفة من الأميين ، والتى تضم أغلبية كبيرة من النزلاء لها علينا حق مقدس ليس من الانصاف التغاضى عنه ، كما أنه ليس من اللائق أن تؤدى لها هذا الحق بصورة مبتورة شوهاء ، لأن ذلك قد يأتى بعكس المطلوب ، فيذهب جهادنا هباء ، ولا نجنى شيئاً يذكر ..

والسجون فعلا فيها فصول لمحو الأمية ، وهذه الفصول تشمل من لا يلمون بالقراءة والكتابة ، وتشمل أيضاً من عندهم بعض المبادىء فيهما ، وهؤلاء لهم فصول أرقى قليلا غير الفصول الأولى الخاصة بالأميين ، والتدريس بصفة عامة موكول إلى طائفة من المدرسين ليس لهم أية مؤهلات على الإطلاق سوى حفظ القرآن تماماً مثل واعظ سجن أسيوط ، بل إن واعظ سجن أسيوط يقوم بالتدريس إلى جانب الوعظ والإرشاد ، ومثل هذا المدرس غير المؤهل ، يدرس لهم مبادىء القراءة والكتابة ، ومبادىء علم الحساب ، وقليلا من أمور الدين مثل الطهارة والوضوء والتيمم وما إلى ذلك ..

فماذا كانت نتيجة هذه السياسة التعليمية فى محو الأمية ؟؟؟

دعونا من النتائج الرسمية التى تعلنها الهيئة المشرفة على التعليم فى السجون ..

ودعونا من ألوان الدعاية ..

دعونا من كل هذا ، ولنسأل النزيل عبد الرحيم المحكوم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات والذى سوف يخرج عنه بعد شهر . . .

إن عبد الرحيم يكتب اسمه بصعوبة جدا ، ومن الصعب أن يقرأ كلمة صحيحة حتى الآن ، أما معلوماته الدينية فلا تكاد تخرج عما تعلمه من أبويه خارج السجن، وعبد الرحيم معذور فى ذلك كل العذر ، فهو « ريس النول رقم ٦ » فى ورشة النسيج ، ووقته كله يكاد يكفى للانتهاء من المقطوعية المقررة عليه ، ولهذا فهو يتهرب من الدرس حتى لا يقصر فى المقطوعية فى أغلب الأحيان ، ولا يذهب إلى مدرسة السجن إلا خوفاً من التأديب والتهديد بشتى ألوان العقاب .

وإذا ماذهبنا إلى فصل الدراسة وجدنا النزلاء مكدسين هناك كل أربعة على « دكة » لاتتسع لأكثر من اثنين ، أو يتلاصقون على « دكة » طويلة بصورة منفرة ، وكثيراً ماتعثر على مدرس قد يقول كلمة أو كلمتين ، أو أسطراً قليلة ، أو بعض الأرقام ، ثم يخرج عن الموضوع أو يلوذ بصمت مطبق بلا سبب معقول حتى تنتهى الحصة . . لهذا لا تعجب إذا زرت فصل الدراسة ووجدت النزلاء يتلفتون هنا وهناك ويحولون نظرهم عن السبورة وعن الدرس ، ولا يملأهم إلا شعور واحد هو أنهم يقضون فترة من

الراحة بعيداً عن ضجة الأنوال والغبار المثار منها ، كما أنهم يجلسون هذه الجلسة لأن الإدارة تصر على ذلك . ولا تحاول أن تراعى ظروف العمل ولا كيف تتلاءم مع ظروف طلب العلم .

وهناك بعض المدرسين الذين يختارون من النزلاء أنفسهم بعد أن يعقد لهم امتحان مبسط ، وهم فى أغلب الأحيان لا يزيدون فى مؤهلاتهم عن المدرسين الرسميين الذين يجمعون بين الوعظ والتدريس ..

إن محو الأمية إذن لا يؤدى على الوجه الصحيح ، لأن هذا النوع من التعليم تقوم دونه بعض المشاكل الهامة التى تحتاج إلى حل حاسم وهذه المشاكل هى :

• تأهيل المدرسين وإعدادهم إعداداً كافياً .. (١)

• مناسبة المكان وما يتفق مع جدية التدريس . .

* إيجـــاد الدافع القوي الذي يحرض النزلاء على الإقبال على هذا النوع من التعليم .

• تعديل برنامج التعليم .

• تهيئة الوقت الكافى للتعليم وعدم ترك الفرصة لعوامل أخرى تعرقل النظام التعليمى . .

---

(١) هناك بعض المدرسين المؤهلين تأهيلا متوسطا .

أما مسألة تأهيل المدرسين تأهيلا مناسباً ، فهذا يرجع إلى أننا نضع بين يدي المدرس مادة بشرية اتسمت بالإجرام والجهل.

وعلاج الإجرام والجهل ليس بالأمر الهين السهل الذى يستطيعه إنسان لا يزيد عن النزلاء إلا فى حفظ القرآن واستمتاعه بحريته وملبسه الذي يختلف عن ملبسهم ، لأن الأمر لن يقف أحـد عند تعليمهم الحروف الأبجدية ، والنطق ببعض الكلمات .

ولن يتأتى ذلـك إلا إذا اعتبرنا محو الأمية جزء من التعليم الابتدائي التابـــع لوزارة التربية والتعليم ، حتى تستمد الفصول الموجودة في السجون مدرسيها وموادها من الوزارة رأساً ، وحتى تجد عائداً جدياً لإشرافها ، وهذا لا يكفي أيضاً ، بل يجب أن يلم المدرس بشيء من الثقافة العامـة ـــ ولو لدرجة بسيطة ـــ التي تتصل بالجريمة وعلم النفس والاجتماع ..

ولكي يشعر النزيل بجديـة الأمر ، ويحس بحرص الدولة على كرامته واحترام آدميته ، يجب أن يكون فصل التدريس مناسباً ، وعدد النزلاء الطلبة يجب ألا يزيد على العدد المحدد للفصل ، ان هذا التكديس والتراكم في الفصول فيوحى بالإهمال وعدم الاهتمام ..

ويجب أيضاً أن توجد لدى النزلاء الدافع القوى الذى يدفعهم

إلى الإقبال على التعليم ، فما المانع مثلا من أن ننقص مدة العقوبة عن المقدار المحدد إذا ما استطاع النزيل أن يحصل قدراً معيناً من البرنامج المدرسى ، أو إذا استطاع أن ينجح فى امتحان خاص يوضع لهذا الغرض ؟ ولماذا لا نخفف أعباء العمل عن كل نزيل فى قسم محو الأمية مادام مواظباً على الحضور جاداً فى دراسته ؟ ؟ ولماذا لا نعطى النزيل شهادات تشبه إلى حد كبير الشهادات التى ينالها الطلبة فى المرحلة الأولى فى الخارج ، ولم لا نوزع على النزلاء الناجحين جوائز مالية مناسبة ، ونوجد بينهم نوعاً من التنافس المفيد ؟ ؟ فهل هذا يكون كثيراً ؟ ؟ أبداً .. . إن النتيجة التى سيجنيها النزيل من وراء ذلك ستكون عظيمة ولاشك ، والفائدة التى ستعود على المجتمع ستكون هى الأخرى ذات أثر . .

أما برنامج التعليم فهو الآخر يحتاج إلى مزيد من التنقيح والتنسيق، فالنزيل يجب أن يعرف شيئاً عن تاريخ بلاده وجغرافيتها ، يجب أن يعلم شيئاً عن العالم الذى يحيط به ، ذلك العالم بما فيه من حضارة وتقدم وعرفان ، ويجب ألا تقتصر دروس الدين على التيمم والوضوء، فهناك الكثير من أمور الدين الخلقية . وهناك السيرة النبوية وقصص الصالحين والمصلحين قديماً وحديثاً ، وهناك أيضاً الدروس الصحية التي يجب أن تلقن بطريقة سهلة و.. و.. إلخ ، لأن النزيل إذا ما اتسعت آفاقه وتغذى بشتى فنون العلم المختلفة ، نظر إلى الحياة بعين جديدة ، فيجد فيها

أشياء لم يكن يعرفها من قبل ، فتأسره هذه الجدة ، وتستهويه تلك الأسرار ، فتتغير لديه كثير من القيم والمفاهيم ، وبالطبع سيؤثر ذلك فى مستقبله ، ومستقبل أبنائه .

ومادامت النظرة الجديدة للسجون تقوم على أساس أنها منشآت اجتماعية الغرض منها علاج الجريمة ، وتأهيل النزيل لمستقبل أفضل ، وحياة أسعد ، فالواجب إذن أن نهيء له الوقت الكافى للتعليم ، لأن الوقت المتاح له فعلا وقت ضيق لا يتسع لكل ما نريده له من برامج ، فضلا عن أن ضغط العمل عليه ، وقسوة المقطوعية يجعلانه فى قلق دائم ، ويدفعانه للتهرب من هذه الفرصة الضيقة ، التى لا تحتمل هروبا وقلقاً . .

* * *

هذا مانراه بالنسبة لمحو الأمية فى السجون حتى تنهض بهذه الطائفة البائسة التى دعتها قسوة الظروف ، ومرارة الحرمان ، ووضع المجتمع ، للانحراف والجهل ومعاداة النظام الاجتماعى القائم . . .

فهل سنجد آذانا صاغية لهذه المقترحات المعقولة التى لا تكلفنا كثيراً رغم أن فائدتها ستكون عظيمة جداً . . ؟ ؟ ؟

(٢) التعليم المدرسى :

ونقصد به ذلك التعليم الذى يشمل المراحل الأربعة خارج

السجن وهى التعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى والجامعى لأولئك النزلاء الذين كانوا فى إحدى هذه المراحل ، ثم شاءت الظروف الخاصة بكل منهم أن يرتكب إحدى الجرائم ثم يحكم عليه بالسجن لسنوات متفاوته . . .

ولقد دلت الإحصائيات الرسمية أن فى السجون جامعيين وأزهريين وموظفين ذوى ثقافات ودرجات علمية متفاوتة ، وطلبه فى إعدادى وثانوى . وهؤلاء جميعاً لهم حقوق ليس من العدل تجاهلها وصرف النظر عنها . .

لقد تعرضت نظم الامتحانات فى السجون خلال الأربعة عشر عاما الماضية لكثير من الاضطرابات والهزات ، فنرى الدولة تسمح لهم بالامتحان فى ذاك العام ، ثم توقفه مرة ثانية فى عام آخر ، والنزيل ذو الاستعداد العلمى يقف حائراً بين شتى اللوائح ، ومختلف القرارات والأوامر ، ويظل هكذا حتى تضيع عليه الفرصة ، فيحس أن المجتمع ما زال يعرقل جهوده ، ويقف فى طريق إصلاحه ، فتصطخب فى نفسه المشاعر المتناقضة ....

إن هناك شبه إجماع على أن النزيل يجب أن يستمتع بحق الامتحان ، ولائحة السجون قد أكدت ذلك فى بنودها ، ورغم ذلك فإن العراقيل مازالت قائمة ، إننا نتمنى للنزيل أن يرتقى درجة أو درجات فى مضمار الإصلاح ، ولا شك أن التقدم العلمى أحد العوامل الفعالة فى إصلاحه واستقامة أفكاره ونفسيته ، هذا إذا



المكتبة .. ومحو الأمية فى السجون

كنا مؤمنين فعلاً بالنظرية الإصلاحية الحديثة ، وبأن السجون منشآت اجتماعية ، ودار للعلاج والتقويم ، ومكان تشع منه أضواء الأمل والثقة فى المستقبل ...

ولقد نصت لائحة السجون لعام ١٩٥٦ على السماح للمسجونين بالامتحانات وتهيئة الظروف المناسبة لهم كى يستعدوا للمذاكرة والتحصيل على أن يكون الإمتحان داخل السجن ، حفظاً لكرامة النزيل — كما تقول اللائحة — ومعنى ذلك أن نعقد لجنة امتحان تابعة لوزارة التربية والتعليم أو الجامعة داخل السجن كى يؤدى الطالب الامتحان أمامها ... فماذا كانت نتيجة ذلك ؟ ؟ ؟

لقد اختلفت الكليات الجامعية والأزهر ووزارة التربية والتعليم فى الاستجابة لهذا القرار ، فكلية التجارة فى جامعة عين شمس مثلاً توافق . أما « تجارة » القاهرة والاسكندرية فترفضان ، وبعض كليات الأزهر تقبل ، والمعاهد والكليات الأخرى لا تقبل ، وهكذا ظل الأمر مائعاً مختلفاً عليه حتى مر العام دون أن يؤدى نزيل واحد امتحانه فى أى مدرسة أو معهد أو كلية .

* * *

لقد كان من الواجب أن تؤلف لجنة مشتركة من المهيمنين على شئون التعليم والأمن والسجون حتى تضع لائحة إيجابية فعالة

بالنسبة للامتحانات تتفق مع الواقع ، وتستجيب لشتى ظروف الهيئات الثلاث المشار إليها ، فينال المسجون حقه فى الامتحان بالطريقة المناسبة ، ويكفى ما ضاع عليه من فرص كثيرة فى هذا المجال الهام .

ونقطة أخرى هى « تأدية الامتحان داخل السجن حفظا لكرامة النزيل» مامعنى هذه العبارة التى لاتحمل فى طياتها مايقنع؟ إن النزيل يخرج لحضور الجلسات ، ويخرج للعلاج فى المستشفيات الخارجية ، وفى بعض البلاد الاجنبية يخرج فى زيارات قصيرة لأهل بيته ، وقد يخرج إلى أماكن خارج السجن للعمل . . . . فهل أداء الامتحان فى كلية أو مدرسة يهين كرامة النزيل وينال منها ؟ ؟

إننى لا أعتقد ذلك على الإطلاق ، بل أعتقد العكس ، لأن النزيل الذى يصر على مواصلة التعليم ، وتثقيف نفسه ، مثله كمثل المريض الذى يبذل غاية جهده كى يتعاون مع طبيبه أثناء العلاج ، وهذا شىء لايتنافى مع الكرامة إن لم يزيد منها وينميها . .

وقد يقال أن ملابس السجن فيها شىء من الاحراج الذى يسبب الألم للنزيل ، ربما يكون هذا صحيحا ، ولهذا أوصى مؤتمر جنيف بأن يلبس النزيل ملابس عادية (وليست ملابس سجن) إذا ماخرج لأداء مهمة ما ، ولا غبار إطلاقا على تنفيذ قرار مؤتمر جنيف الذى كانت مصر أحد أعضائه . .

هذا ما نؤمن به بخصوص مشكلة الامتحانات فى السجون ، ولكى نستكمل ما نحن بصدده من بحث ، أحب أن ألفت النظر لنقطة هامة ، وهى أن بعض نزلاء السجون قد يكونون مقيدين فى الكليات العملية مثل العلوم والطب والصيدلة مثلا ، وهؤلاء من الصعب عليهم تأدية الامتحان داخل السجن، لأنهم يحتاجون إلى المعامل المختلفة ، وقد يحتاجون إلى المشارح والمتاحف العلمية وما إلى ذلك . .

وهذا لن يتيسر اطلاقا داخل السجن ، ولن نستطيع التغلب عليه إلا بالسماح للنزيل كى يتردد على هذه الكليات العملية كما كان يحدث قبل ذلك فى السجون المصرية . .

أما ما تحتاجه الجامعة من تكاليف ومصروفات واحتياجات خاصة، فهذه يجب على النزيل القيام بسدادها شأنه شأن أى ملتحق أو منتسب بالجامعة فى خارج السجن . .

* * *

وهناك نوع من التعليم الفنى ينضوى تحت ما نسميه هنا «بالتعليم المدرسى» ، والتعليم الفنى ألزم ما يكون بالنسبة لمن هم فى «التأهيل المهنى» فلا بأس أبداً إذا كان النزيل فى قسم النجارة مثلا أن يدرس وينال شهادة دبلوم فى فن النجارة ، شأنه فى ذلك شأن طلبة التعليم الصناعى المتوسط فى الخارج، لأن مثل هذه الدراسات ، ستجعل

تأهيله المهنى يقوم على أصول وقواعد علمية ثابتة دقيقة ، وخاصة إذا كان النزيل عنده من الثقافة السابقة ، والتعليم الكافى مايؤهله لنيل هذا الدبلوم الفنى كما هو متبع خارج السجن ، وسيكون هذا مدعاة لجدية الأمر ، وذا جدوى كبيرة بالنسبة لمستقبل النزيل بعد الإفراج عنه . . . ويساعد على تنفيذ ذلك إذا كانت مدة السجن طويلة . . .

هذا ولا يخفى على القارىء أن وقت الفراغ الطويل فى السجن خاصة فى الليل سوف يعطى النزيل فرصة طيبة للدراسة والتعمق، كما أن هذه الدراسة التى سيغرق فيها النزيل سوف تعوضه الكثير عما فاته من فرص ، وسوف لاتترك له فرصة للتفكير فى سجنه وآلامه ووضعه فى المستقبل ، وبالتالى ستخفف من العقد النفسية التى كثيراً مايتعرض لها وسوف تصرفه لدرجة ما عن الانحراف والشذوذ الذى يكون له أسوأ الأثر فى سلوكه ووضعه الاجتماعى ،والذى يترك فى ذهنه ونفسيته أخاديد غائرة ليس من السهل محوها أو نسيانها نسيانا تاماً . .

٣ — التثقيف العام :

ونعنى به ذلك النوع من الثقافة الذى يتناول شئون الحياة وما فيها من تجارب ومشاكل وصراع وظواهر عدة ، والذى يتناول أحوال الوطن والعالم بصفة عامة ، ولا شك أن الإلمام بمثل هذه

المعلومات المختلطة من فنون وسياسة وقوانين المجتمع، وما إلى ذلك ستزيد من سعة مدارك النزيل، وتعمق نظرته إلى الوجود والناس فيأتى ذلك عليه بالخير الكثير . .

والوسيلة إلى ذلك تشمل فروعاً كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال الأشياء الآتية :

المكتبات :

إن تنمية مكتبات السجون ، وتزويدها بالكتب النافعة ذات الألوان المختلفة وحفز القارىء على الاطلاع عليها واستيعابها لما يفيده فائدة جليلة ويصل به إلى الغرض الذى نهدف إليه . .

فليقرأ النزيل مثلا شيئاً من أزجال بيرم التونسى التى تتناول المشاكل الاجتماعية المختلفة بأسلوبه الفكاهى الشعبى ، والتى تتناول كفاحنا السياسى الوطنى ضد المستعمرين ، وليقرأ بعض القصص الشيقة ـ والقصص لاشك لها سلطان كبير على النفوس ـ فمثلا قصة عودة الروح لتوفيق الحكيم وما شابهها مليئة بدروس الوطنية المفيدة ، وقس على هذين المثالين باقى الاغراض والألوان الأدبية والعلمية الجادة . .

السينما والمسرح :

وهذان لهما عميق الأثر فى نفوس النزلاء ، وخاصة تلك

المسرحيات والتمثيليات التى تعالج مشاكل الجريمة وتنفر منها ، وترسم كفاح الأفراد فى معركة الحياة من أجل لقمة العيش الشريفة ، لا كما تفعل الأفلام الأميريكية التى تضفى فوق اللصوص والسفاكين فى الروايات المسلسلة احتراماً وتقديساً بإتيان بأسوأ النتائج . .

ولقد تكلمنا من قبل عن المسرح ، وأشرنا إلى ما يلزمه من تشجيع وتحسين واهتمام زائد لكونه أداة فعالة فى تربية النفوس ، ولا شك أن النزلاء فى حاجة إلى زيارات متكررة تعرض فيها أهم الروايات وأنفعها ، ولن نجد أحسن من وزارة الثقافة للقيام بهذه المهمة الخطيرة ؛ هذا بالإضافة إلى إنشاء مسرح دائم فى كل سجن ، على أن ترصد له الإمكانيات اللازمة.

الإذاعة والصحف والمجلات :

وهذه الثلاثة تؤدى وظائف متشابهة متداخلة فى مجال التثقيف العام وحتى يكون النزيل على اتصال وثيق بالمجتمع الخارجى وأحداثه وتقلباته ، فإذا ما خرج إليه خفت حدة الغربة والوحشة التى يحسها المفرج عنه ، وشعر بالاندماج السريع فى هذا المجتمع ، وسرعة الاندماج لها فائدتها فى إعادة الحياة الطبيعية عند النزيل وفى مسح كثير من الرواسب والعقد النفسية والاضطرابات التى تلازمه منذ دخوله السجن إن لم يكن من قبله .

المحاضرات العامة :

وهذه يدخل فيها محاضرات الوعظ الدينى السليم الأداء ، والذى يحتوى على التوجيه الصادق،الخالى من الخرافات والأساطير والمبالغات الممجوجة،كما يتناول محاضرات أخرى تشتمل على شتى الموضوعات التى أشرنا إليها فى النقاط السابقة من سياسة وفنون واجتماع وما إلى ذلك . . .

الندوات والدراسات :

السماح لبعض النزلاء ذوى المواهب والاستعداد الفكرى المناسب فى الاشتراك فى الندوات العامة ، وتشجيعهم على القيام ببعض الدراسات التى تتعلق بمشاكل السجن العديدة ، وإمدادهم بالمراجع اللازمة ، حتى نشركهم فى حل مشاكل مجتمعهم ، ونربى فيهم الشخصية العلمية الأصيلة،وخاصة أنهم سيكتبون أو يتكلمون عن مجتمع يعيشون فيه بأنفسهم ، ويلمسون احتياجاته ونقائصه من وجهة نظرهم الخاصة ، وسنجنى ولا شك من وراء ذلك أرباحاً كثيرة . . .

* * *

الفصل الثامن

مِن هُنَا وَهُنَاك

اننا سنتعرض فى هذا الفصل لبعض الأمور الهامة فى إيجاز حتى نتوقى النقص الذى يهدد ما كتبنا إذا ما أهملنا هذه الأمور ، ومن الأمور الجديرة بالدراسة والاعتبار مشكلة الفصل بين فئات النزلاء .

١ — <u>الفصل بين النزلاء :</u>

فى المستشفيات يحاول الأطباء الفصل بين طوائف المرضى فلا يصح أن يوضع مريض بالسل مع آخر مصاب بتضخم فى الطحال ، لأن من السهل جداً أن ينتقل مرض السل إلى مريض الطحال، فتتعقد حالته الصحية، وتهدد أيامه الباقية بالفناء السريع... وكذلك عمد المسئولون عن الصحة إلى فصل المصابين بالحمى عن غيرهم من المرضى وذوى البنية السليمة ، لأن الحمى مرض وبائى سهل الانتشار ، والخسائر فى المال والأرواح ستكون جسيمة إذا لم يراع الأطباء هذا الفصل بين المرضى أنفسهم ، وبين الأصحاء والمرضى .

كذلك الحال بالنسبة للمجرمين الذين يوضعون داخل السجون.

إن المحكوم عليه فى قضية سرقة من السهل إذا ما وضع وسط طائفة من المحكوم عليهم فى قضايا المخدرات أن يتعلم منهم تعاطى

هذه السموم الفتاكة ، فيخرج من السجن لا لصاً فقط ، ولكن يصبح مدمناً للمخدرات أيضاً ..

وحتى بجرد وضع اللصوص ذوى الخطورة المختلفة مع بعضهم — أمثال المحبوسين لاول مرة مع أرباب السوابق ومعتادى الإجرام — هذا كفيل بأن يتعاطى اللص المبتدىء دروساً أعمق ، وتجربة أخطر ، فيتخرج من السجن وقد ألم بمصطلحات الفن — فن السرقة — ودقائقه وتفاصيله ..

كما أن وضع المصابين بالانحراف أو الشذوذ الجنسى مع غيرهم من النزلاء مدعاة لانتشار هذه العادة الخبيثة بينهم ، وتعريض أخلاقهم للتلف والتدهور والانحطاط ،مما يجعل السجن عند طائفة منهم ضرورة ملحة لا يستطيعون الفكاك منها ، أو نسيانها نسيانا تاما ...

وكذلك وضع كبار السن مع غيرهم من الفتيان والغلمان الأصغر سناً يجعلهم يتعرضون لشتى التأثيرات سواء بالتهديد أو الاغراء ، فينحرفون خلقيا ، فكما سبق ورأينا أن بعضهم يرغم إرغاماً على الشذوذ والبعض الآخر يقع تحت سيطرة مجرم عتيد أو لص خطير فيترأسهم ويبعثهم هنا وهناك داخل السجن كى يسرقوا أى شىء ويأتوا به إليه ، وقد رأيت بنفسى أمثال هذه الصور فى أكثر من مناسبة ....

أما المحكوم عليهم فى جرائم الرأى أو جرائم ضد أمن الدولة فإن وضعهم ضمن اللصوص والسفاكين وهاتكى العرض فيه شىء من الاجحاف بهم وبكيانهم ووضعهم الفكرى ، ولاشك أن التسوية فى المعاملة رغم اختلاف الجرائم المنسوبة للنزلاء سياسة فيها كثير من الارتجال وعدم التوفيق ، ولاشك أيضاً أن عدم مراعاة الوضع الاجتماعى والفكرى والصحى والنفسى عند تنفيذ عقوبة السجن أمر يدعو إلى الغرابة والدهشة ، لهذا نقترح الآتى :

(ا) الفصل ميدنياً بين أصحاب الجرائم المختلفة فلا نجمع بين السارق وتاجر المخدرات .

(ب) الفصل بين أصحاب الجريمة الواحدة ، فلا يوضع السارق المعتاد الإجرام مع الذى يسرق لأول مرة .

(حـ) عزل صغار السن عن كبار السن حتى لا يكون هناك مجال للتأثير بأى وسيلة .

(ى) عزل أصحاب الجرائم السياسية عن باقى النزلاء .

(هـ) مراعاة الطبقة الاجتماعية للنزيل عند الفصل وعند التسكين حتى لا يكون للمال أو المركز الاجتماعى تأثير على باقى النزلاء وليس معنى ذلك الدعوة إلى التمايز الطبقى ، فى وقت يزحف فيه مجتمعنا نحو العدالة الاجتماعية ، ولكن ما ندعو إليه ماهو

إلا استجابة لشتى الظـــروف والملابسات وللوضع الحالى فى مجتمعنا ..

(و) قيام منشآت خاصة للشواذ جنسياً ، وللمصابين بالعته والبله ، وكذلك أصحاب العقد النفسية ، والعجزة ، فقد رأيت فى سجن أسيوط نزيلا اسمه أحمد عبد المنعم[1] يبلغ من العمر ١١٠ سنة (مائة سنة وعشرة) ومع ذلك يعيش مع غيره من النزلاء ويقوم بكل حاجياته بنفسه ، وهو فى هذه السن الكبيرة ، والصحة المتداعية .. .

(هـ) العمل على إقامة المؤسسات العقابية المفتوحة ، وخاصة للمحكوم عليهم بمدد قصيرة ، ولمن دخلوا السجن لأول مرة ، وكان استعدادهم الخلقى يدعو إلى الثقة والاطمئنان ، ولاشك أن مثل هذه المؤسسات سوف لا تدع الفرصة للنزيل كى يندمج فى أوساط عتاة المجرمين ، وأرباب السوابق والذين يخشى منهم فى التأثير عليه ، والاتجاه به وجهة غير سليمة ..

* * *

إن مسألة الفصل بين طوائف النزلاء ، أمر هام ، لا يقل خطورة فى نظرنا عن فصل أصحاب الأمراض المعدية الخطيرة عن غيرهم ، لأن العدوى الوبائية عامل مشترك أعظم فى كلتا الحالتين ،

(١) قامت «مجلة آخر ساعة» بعمل ريبورتاج صحفى لهذا النزيل . .

وإن اختلفت ماهية هذه العدوى وخطورتها ، وقد يكون من السهل علاج مرضاً حمياً فى أيام قلائل ، أما المرض الإجرامى أو النفسى فقد يحتاج إلى سنين طويلة ، وفى النهاية قد يشفى وقد لا يشفى على الإطلاق ..

فتعريض النزلاء لمثل هذه الحالات الضارة نوع من المغامرة لا يقرها عقل ، وضرب من الإهمال الذى لا يجد له ما يبرره ، ما دمنا قد عرفنا المشكلة ، وفهمنا مدلولاتها ونتائجها الخطيرة ..

٢ — مبانى السجون [١] :

إن مبانى السجون المصرية الآن لا تتفق بأى حال من الأحوال مع النظرة الإصلاحية الحديثة إلى النزلاء ، وإلى الدور الذى يجب أن تقوم به الدولة إزاء هؤلاء الذين قد حكم عليهم أن يعيشوا فى عزلة عن المجتمع ، كما أنها لا تتفق أيضاً مع حركة النهضة السياسية العامة والاجتماعية والفكرية . .

وأول مأخذ يبدو لنا إذا ما نظرنا إلى السجون المصرية هو أنها ضيقة لا تتسع بحال من الأحوال لعدد الوافدين عليها من حين لآخر فكان نتيجة لهذا الازدحام مشاكل عدة قد تعرضنا لها باختصار فيما سبق ، فالسجن الحديث يجب أن يتفق مع المقترحات التى قدمنا بعضها فيما سبق ، فهل نكتفى بورشة النسيج والورش الصغيرة الأخرى التى أقيمت على حالة من الإهمال والفوضى ، فورشة

(١) انظر ما كتبه القائمقام يسين الرفاعى فى تقريره عام ١٩٥٥

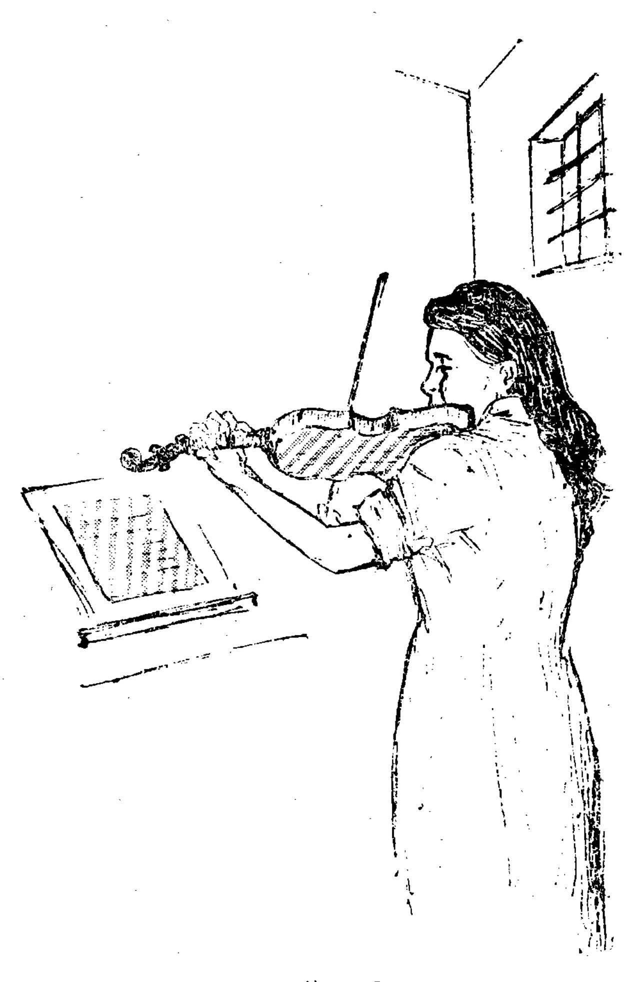
النجارة لا تكاد تتسع للأدوات اللازمة وأربعة أو خمسة من النزلا وكذلك ورشة الحدادة ، والورش أيضاً من الناحية الصحية تحتاج لمزيد من العناية والدقة . .

إن المبانى الجديدة فى السجون يجب أن تصمم على أساس أن السجون سوف تكون مؤسسات للانتاج الصناعى المنظم ، ومراكز للتأهيل المهنى المنوع ، ويجب أن تزود بالمدارس اللازمة لمحو الأمية وبالمسارح التى بسطنا رسالتها فيما سبق ، وأن تزود أيضاً ببيوت الله لإقامة الشعائر الدينية على صورة مقدسة تدعو إلى الاحترام والخشوع ، وأن يعمل حساب بعض الألعاب الرياضية الضرورية . .

وهناك مجال كبير لتوسيع المبانى الخاصة بالسجون وذلك راجع إلى فئات المسجونين الذين سيقيمون فيها ، وراجع أيضاً إلى تباين التأهيل المهنى من زراعى وصناعى... إلخ .

وهناك بعض التفصيلات التى لا تتسع لها هذه العجالة ، مثال ذلك إنشاء السجون فى المناطق التى تحتاج إلى الإصلاح الزراعى ، وتحويل الأرض البور إلى أراضى صالحة للزراعة ، وأن يختار لمثل هذه السجون فئة المسجونين الزراعيين .

كذلك فى الإمكان إنشاء بعض السجون فى أماكن تصلح لأن تكون مراكز للانتاج الصناعى ، على غرار ذلك الذى ذكرناه بشأن الإصلاح الزراعى ، ولابد أن يراعى بالطبع أن يكونه



سجينة تتعلم الموسيق

النزيل قريباً من مسقط رأسه بقدر الإمكان ، حتى تتيسر له وسائل رؤية أهله فى الزيارات ، أو على الدولة أن تسمح للزائرين بالسفر المجانى إذا كانوا بعيدين عن مكان السجن المختار لهم .

٣ — مشكلة الأخصائيين الاجتماعيين :

إن الحركة الاصلاحية الحديثة فى سجون العالم تعتمد إلى حد كبير على الاخصائيين الاجتماعيين ، وعلى مقدار فهمهم لرسالتهم والتطبيق العملى لها . ومعظم النتائج القيمة التى وصل إليها الجهاز العقابى فى بعض الدول المتقدمة كالسويد مثلاً يرجع الفضل الأكبر فيها إلى هؤلاء المشرفين الاجتماعيين ، ولهذا يرى قادة الحركة الإصلاحية فى العالم أن يثقف كل من يقومون بوظيفة ما فى السجون بشىء من الثقافة الاجتماعية على أقدار متفاوتة ، ولهذا السبب أيضاً رأى مؤتمر جنيف لبحث الجريمة أن عدم تخصص العسكريين وعدم إلمامهم إلماما كافيا بأصول الإشراف الاجتماعى مدعاة لإحلال المدنيين محلهم ، واتخذ المؤتمر قراراً بذلك اعترضت عليه مصر وشيلى وأبدتا بعض الأسباب لاعتراضهما . .

ودور الإخصائى الاجتماعى دور خطير ، لأنه هو ومن معه سوف يستقبل السجين ، ويدرس ميوله وإتجاهاته ، ويعلم الكثير عن جريمته وظروفها ، وبالطبع سوف يلم بملابساته المعيشية والعائلية والمسئولية الملقاة على عاتقه فى ماضى حياته وحاضرها ومستقبلها . .

وعمل المشرف الاجتماعى يعتبر جزءاً هاماً يضاف إلى عمل الطبيب النفسانى والطبيب البشرى والواعظ والمدرس ورئيس الورشة ومعاملة السجانين وما إلى ذلك ، لهذا وجب أن ينسجم وأن يتآزر الإشراف الاجتماعى مع غيره من النواحى الأخرى ، حتى لا يحدث ارتباك فى مجال العلاج والإصلاح ، لهذا كانت الرسالة الملقاة على عاتق الإخصائى الاجتماعى كبيرة ، ولهذا كان إلمامه بها ، وتقريره لأثرها البالغ أمر عظيم الأهمية .

فإلى أى درجة وصلت سجوننا المصرية فى مجال الإشراف الاجتماعى ؟

إن النشاط الاجتماعى فى السجون المصرية يرأسه واحد له وكيلان ، وهناك فى سجن القاهرة مشرف اجتماعى واحد ، وكذلك فى ليمان طره . . . أى أن الرسميين خمسة فقط ، وباقى السجون ينتدب لها إخصائى اجتماعى من وزارة التربية والتعليم وهذا بدوره يزور السجن لمدة ساعتين فى اليوم على أساس مرتين فى الأسبوع فقط ..

ولك أن تتصور كيف تكفى هذه الساعات الأربع كل أسبوع لدراسة حال المسجونين ومطالبهم وظروفهم والمناسب لهم من التصنيع والتأهيل فى السجن . . .

وهل فى إمكان إخصائى سجن القاهرة وليمان طرة كل على حدة

أن يقوم بما يتطلبه هذا العدد الضخم من السجناء من الرعاية والدراسة والوصول إلى نتائج مجدية حاسمة ؟؟ لا أظن ذلك إن الإشراف الاجتماعى فى مصر مازال قاصراً . . .

وعدد القائمين بأمره يثير الضحك والعجب فى نفس الوقت . .

ثم التأثير الفعلى للنشاط الاجتماعى هو الآخر مازال لا يساوى شيئاً داخل السجون . . إن المشرف الاجتماعى يجلس فى مكتبه ، وقد يجد كثيراً من التصرفات الإدارية التى تتعارض مع ما يفهم من أمور ، وتخالف ما يدعو إليه من إصلاح ، ومع ذلك يقف المشرف الاجتماعى جامداً ، ويربأ بنفسه أن يثير المشاكل ، ويصطدم بالإداريين . . .

وقليلا ما يغوص المشرف الاجتماعى فى السجون المصرية إلى أعماق حياة السجين والمشاكل اليومية التى تعترضه ، لأن المشرف لا يكاد يغادر عتبة مكتبه ، ويكتفى بالعمل على الحصول على بعض الإعانات المالية لذوى الحاجات والعوز من المفرج عنهم . .

* * *

وباختصار ، فإن العمل المنوط بالمشرف الاجتماعى يحتاج لمزيد من الاهتمام إن كنا جادين فعلا فيما نزعمه من إصلاح وعلاج لمشكلة الجريمة ومستقبل مرتكبها . .

٤ — مشكلة المخدرات :

إن قوانين المخدرات فى بلادنا صارمة ، بالنسبة لكل من التاجر والمتعاطى على السواء ، وصرامة القوانين الخاصة بالمخدرات لا أعزوها إلى قسوة فى بلادنا تغمر القلوب ، ولا أعزوها إلى تأخر فى نظرتنا للسجين ، لكن الواضح أن هذه الصرامة تحمل فى طياتها عزماً أكيداً وإصراراً حاسماً على القضاء على هذه السموم بمعاقبة كل من يتعاطاها أو يتجر فيها أو يهربها الى بلادنا ، وخاصة أن إسرائيل تلعب دوراً خطيراً فى تفاقم هذه المشكلة لغرض سياسى واقتصادى ، إذ لاشك أنها تكسب من وراء ذلك مبالغ طائلة جداً ، وفى نفس الوقت تعمل هذه السموم عملها فى نفوس المواطنين وفى أبدانهم وصحتهم العامة ، وفى إنتاجهم وإقبالهم على العمل كذلك ، فضلا عن أثرها فى خفض مستوى معيشة المدمن ، والخطورة واضحة أيضاً نظراً لزيادة عدد المدمنين فى بلادنا ، فكثيرون أولئك الذين يفلتون من رقابة القانون . . .

لكن هل صرامة القوانين قضت على مشكلة المخدرات ؟ ؟

هل ابتعد التاجر عن الاتجار فى هذه السموم الفتاكة ؟ ؟

هل شفى المدمن من إدمانه نتيجة العقاب القاسى الذى أصابه من جراء وضعه فى السجن ؟ ؟ ؟

أقول بصراحة . . . إن التاجر فى خارج السجن يظل تاجراً

أيضا داخل السجن سواء أكان تحت التحقيق أو حكم عليه فعلا ، وعجيب أمر ذلك التاجر المتحفظ عليه تحت التحقيق ، فلا يكاد يصبر على عدم الاتجار حتى يرى مامصيره . . .

والمدمن خارج السجن يظل مدمناً داخل السجن أيضاً ، أما المفرج عنه فتكون أولى حفلات الاستقبال التى يستقبل بها فى الخارج هى حفلة تتصاعد فى جوها أبخرة الحشيش الزرقاء . . .

فالمشكلة إذن مازالت موجودة رغم الصرامة والعزم الأكيد، ولقد ميز القانون بين التاجر والمتعاطى ، وهذا التمييز ضرورة لابد منها ، لكنها انصبت على تشديد العقوبة على التاجر وتخفيفها على المدمن أو المتعاطى ، وكنا نود أن التفرقة بين الاثنين — التاجر والمستهلك - تسير فى خط غير هذا الخط . ونقصد بذلك أن ننظر إلى المتعاطى نظرة فيهاشىء من العطف والرعاية كأن ننشىء المصحات الخاصة بمدمنى المخدرات لا أن نقذف بهم داخل السجن ، ولقد تبين لى أن السجن لا يمكن أن يكون علاجاً ناجعاً لمدمن الأفيون مثلا ، بل إن الانسان المسلوب الحرية يبحث عن شىء يعوضه عن هذه الحرية المفقودة فلا يجد أقرب إليه من أشباع نهمه ، والإقبال على هذه المادة المخدرة التى يحس أن فيها كثيراً من السلوى والعزاء ولا بأس أبداً أن ترغم الدولة المدمن على أن يدفع نفقات علاجه إذاكان ميسور الحال، ولا بأس أيضاأن تكون مصحات المخدرات

فى حالة وسط بين المصحة والسجن ، لأن مثل هذه المصحات تحتاج إلى التشديد والرقابة اليقظة حتى لا تتسرب هذه المخدرات إلى المرضى فتفسد علاجهم .

والطريقة المعترف بها علمياً بالنسبة لمدمنى المورفين والأفيون مثلا أن يوضع المريض (المدمن) فى المصحة وأن يسمح له فى بداية الأمر بكميات من المخدر ، ثم تتناقص هذه الكمية المسموح بها يوماً بعد يوم حتى تقطع فجأة ... وفى أثناء ذلك يعمل حساب الاضطرابات المختلفة التى تحدث للجسم عقب انقطاع المخدر عنه ، ولهذا يحرص الأطباء على إعطاء المريض المقويات العامة وعلاج بعض الاضطرابات العارضة كالامغاص والقيء والآلام المختلفة كالصداع والأرق وفقدان الشهية وما إلى ذلك . . .

ولابد من محاولة تقوية الإرادة لدى المدمن حتى ينجح فى معركته ، ويستعان على ذلك بشرح أضرار المخدرات وما تجلبه من خسائر مادية ومعنوية ، والقضاء على الأكاذيب والأوهام التى تثار حول المخدرات ومفعولها السحرى المزعوم . . .

* * *

وأساس البلاء كله ، ومصدر الرذيلة والوبال هم المهربون ، ولهذا يجب أن ينص على عقوبة الإعدام لهذه الطائفة من المغامرين ، وعشاق الثراء ، وعبيد المال ، دون نظر للاضرار التى تلحق بمواطنيهم ،

فالقضاء على المهربين ماهو إلا تحطيم لحلقة الاتصال التى تلتقى عندها مطامع المهربين والتجار . .

ولاشك أن التصدى للمهربين ومطاردتهم والتضييق عليهم مع القسوة فى معاملتهم سوف يوفر علينا الكثير من المتاعب والإجراءات داخل البلاد . . لقد كان الافيون وسيلة سافلة من وسائل الاستعمار الانجليزى فى الصين ، حيث استنزفت أموال الشعب وأقواته وطاقته هناك ، وكانت ثورة الأفيون — أو حرب الأفيون — الصينية من أبرز أحداث تاريخها الكفاحى ، وكان القضاء على هذا الوباء نصراً أى نصر . . .

أما صغار التجار وكبارهم فإن سجنهم ومصادرة أملاكهم التى حصلوا عليها من جراء الاتجار فانى أعتقد أن هذا فيه الكفاية . . . غير أن المهم فى الموضوع هو معاملة المدمن معاملة المريض الذى يتلمس الشفاء ، على خلاف المهربين والتجار ، وهذا مايجب أن يلتفت إليه المسئولون . .

وثمة شىء آخر . . .

لقد ثبت أن الخمر هى الأخرى لاتقل فى تأثيرها السيء على الجسم والنفس عن المخدرات ، وهذه حقيقة علمية ثابتة لا جدال فيها ، بل لعلها أشد فتكا ، وأخطر أثراً من الحشيش فتركها إذن حرة التداول أمر عجيب فعلا ، أم أن ما تدره من ضرائب

سيجعلنا نتردد ؟ ؟ وهل إباحتها فى شتى بلدان العالم ، وجريان ذلك مجرى العرف والتقاليد مانع لنا عن التصدى لها ؟ ؟ وهل وجود الأجانب بين ظهرانينا واستمساكهم بها يبعث على التمهل والتردد ؟؟؟

هذه أمور يجب البت فيها جنبا لجنب مع مشكلة المخدرات حتى يكون الحل متكاملا . .

٥ — الصحة العامة :

إن الأماكن العامة التى يحتشد فيها عدد كبير من الناس كالمدارس أو السجون مثلا فى مسيس الحاجة لمزيد من الرعاية الصحية والوقاية من الأمراض ، وخاصة المعدية منها ، وأول هذه الأماكن احتياجا إلى الرعاية الصحية السجون . . .

وهناك بعض الأوضاع غير الصحية ،وهى لاتخفى على أحد ممن يزورون السجون ، ومع ذلك فهى مازالت على وضعها السيء الضار ، دون أن تتناولها يد الإصلاح ، فمثلا إذا دخلت إحدى الحجرات الكبيرة التى يسكنها مايقرب من عشرين نزيلا فماذا تجد ؟ ؟

ستجد أن جردل الماء مشاعاً للجميع ، كل من شاء أن يشرب فما عليه إلا أن يطأطىء رأسه ، ويهوى بفمه على الجردل ويعب منه عبّاً بطريقة بدائية عجيبة ، وإذا تصادف وكان هناك كوبا للشرب من الصفيح أو غيره فإن الجميع يتداولونها ، وقد يكون فيهم من هو مصاب بالسل أو التهاب رئوى أو انفلونزا . . . أو . . . أو . . . الخ .أما إعداد الطعام ففيه كثير من الإهمال والفوضى ،

حتى المياه هى الأخرى ، ومازلنا قريبى العهد بحادث التسمم الذى تعرض له نزلاء ليمان طره لقذارة مياه الشرب ، وراح ضحية الحادث عدد من النزلاء . . .

يضاف إلى ذلك عدم كفاية الملبس والغطاء والمفرش ، وخاصة فى فصل الشتاء ، مما يجعل النزيل سهل الإصابة بأمراض الروماتزم والانفلوانزا ومضاعفاتها . . .

أما الثقافة الصحية بين النزلاء فهى منحطة جداً ، يدل على ذلك بصاقهم وتمخطهم فى الطرقات وفى الورش وفى الحجرة التى يعيشون فيها ، وإن صورة هذه القذارة لتزداد بشاعة إذا علمنا أن أغلبهم من الحفاة ، ثم أن عدد قطع الصابون التى توزع عليهم قليلة لا تكاد تكفيهم ، لهذا فإن الأمراض الجلدية منتشرة بينهم بصورة أكثر من الخارج . .

ولاشك أن الازدحام الناتج من جراء الزيادة المطردة فى عدد المسجونين مع بقاء السجون على ماهى عليه له هو الآخر آثاره الخطيرة . .

٦ — معدل التطور :

إن الايمان بالنظرية الإصلاحية الخاصة بالسجون أمر واجب يجب أن يملأ قلوبنا ونفوسنا ويدفعنا إلى العمل المتصل والكفاح المستمر ، ومما يثلج الصدر أن أغلب المهيمنين على شئون الجريمة

والسجون يكادون يجمعون على الإيمان بهذه النظرية الإصلاحية ، لكن هناك فرق كبير بين الإيمان بالشيء وتنفيذه ، بل إن الإيمان الذى لا يصحبه العمل هراء وادعاء .

ومما لاشك فيه أن العمل على الوصول إلى المستوى المنشود للسجون — يحتاج إلى تنسيق وتنظيم ، ويحتاج أيضا إلى مراعاة شتى الاعتبارات والظروف الخاصة بنهضتنا ، إذ يجب أن تسير حركة التطور فى السجون جنبا إلى جنب مع حركة الوعى التحررى والنمو الاقتصادى ، والتقدم السياسى .

أما روح العداء والانتقام والتشفى بالنسبة للسجون فتلك سياسة عتيقة عفا عليها الزمان ، وأصبحت مجرد فصل من فصول الماضى البغيض الملىء بالمآسى والأحزان . .

إننا على أبواب فجر مشرق وضىء ، بل إن أضواء هذا الفجر قد تسللت فعلا إلى نواحى عدة من حياتنا ، وليس من المعقول أن تحجب هذه الأضواء عن سكان السجون مهما كانت أسوارها سميكة ، ومهما كانت قضبانها قاسية ، ومهما كان وزر المجرم كبيرا.. أجل . . فالمجرم انسان . . . وسيظل إنسانا إذا ما اتسمت نظرتنا إليه بالعطف والحنان والثقة . . .

عدد المحكوم عليهم الذين وردوا للسجون عام ١٩٦٢
حسب المهن قبل الإيداع بالنسبة لكل جريمة

المهنـــة	عدد المجرمين فى مخلف الجرائم
تاجر	١٨٤٠
بائع	٣٠١٣
موظف حكومة	٣٠١
موظف أهلى	٢٥٧
طالب	٢٢٢
عامل صناعى	٩٦٦٢
عامل زراعى	٦٦٧٠
عامل خدمات	١١٫٨٦١
مزارع	١٨
صاحب أملاك	١٥
مجند	٢٩٧٣
عسكرى أو خفير	٢٤٧٢
مهن أخرى	٨٥٩
متقاعد	٣٠٩
عاطل	٢٧٠٤
أنثى غير مشتغلة	٢٩٥٩

تابع المحكوم عليهم الواردون للسجون خلال عام ١٩٦٣

الجرائم	أميون	يقرأون	مؤهل ابتدائي وإعدادي	مؤهل متوسط	مؤهل عالي
عاهة مستديمة	٦٢٥	٩٩	٣	—	—
غش ألبان	٤٠٣	٣٨	—	—	—
غش مأكولات	٣٩	٤	—	—	—
غش موازين	٦	١	—	—	—
فسق	٧١١	٤٨	١	—	—
فعل فاضح	٢٩	٥	٣	١	
فك أختام	٤	٤	—	—	١
قتل عمد	٤٤٣	٦٥	—	٢	٤
قتل خطأ	١٦٨	١٣٧	١	١	—
قمار	٣١٧	٥٣	—	—	—
مبادىء هدامة	—	٥	١	١٠	٧
مخالفة مراقبة	١٩٤٦	٣٨٤	٤	—	—
مخدرات اتجار	٨٨٢	٢٠٢	١	١	—
مخدرات تعاطى	١٨٣٧	٣٧٤	٢	٤	٢
مظاهرات	٤	٢	—	—	—
نصب	٦٣	٣٨	١	—	١
نفقة	٤٦٦	١٣٧	١	—	٦
هتك عرض	٩٧	٣٣	٣	—	—
هروب من الخدمة	٣١٩	٣٧٩	١٩	١٠	١
هروب من السجن	٥	٢	—	—	—
جنح أخرى	٢١٩٩	٢٨٢	٣	—	—
عدم حمل بطاقة شخصية	١٨	١٦	٢	—	٢
حبس بدل غرامة	٦٧	٩٤	٩	—	—
جنايات أخرى	٨٩٠	١٥٠	—	—	—

تابع المحكوم عليهم الواردون للسجون خلال عام ١٩٦٣

الجرائم	أميون	يقرأون	مؤهل ابتدائى وإعدادى	مؤهل متوسط	مؤهل عالى
تعدى ومقاومة	١٠٨	٣٣	—	—	—
تعذيب أشخاص	٢	—	—	—	—
تعطيل مواصلات	٢١	٩	—	—	—
تموين وتسعيرة	٦٤٢	٢٥٥	٣	—	—
تهديد	١٢	٧	١	—	—
تهريب أموال	٤٣	١٠	—	—	١
حريق باهمال	٥	٣	—	—	—
حريق عمد	٦	١	—	—	—
خطف	٢٩	—	—	—	—
دخول الأراضى المصرية	٦	٢	—	—	—
دخول منزل لجريمة	٩٨	١٨	١	١	—
دعارة	٣٤٧	٤٧	—	١	—
رشوة	٤٢	٩٣	—	١٢	٣
ركوب قطار بلا تذكرة	١٠٦	٤	—	—	—
زنا	١٧	٩	—	٢	—
سرقة جناية	٤٩٦	١٨١	٤	٤	١
سرقة جنحة	٤٩٥٣	١٩٣١	١٤	١١	٣
شروع فى سرقة جنحة	١٧١	٢٣	—	—	—
شروع فى سرقة جناية	١٦٤٩	٤٤٩	٢	٣	١
شروع فى قتل	٢٢٧	٤٤	—	—	—
شهادة زور	٢٢	١	—	—	—
شيك بدون رصيد	٢٤	٣٦	٢	—	—
ضرب أفضى للموت	٥٦٨	٢٩	١	—	—
ضرب جنحة	٦٢٥	٨٦	—	—	—

المحكوم عليهم الواردون للسجون خلال عام ١٩٦٣ موزعون حسب الحالة التعليمية فى كل جريمة

الجرائم	أميون	يقرأون	مؤهل ابتدائى وإعدادى	مؤهل متوسط	مؤهل عالى
اتفاق جنائى	٨	٢	—	—	—
إتلاف مزروعات	٢٣	٥	—	—	١
إتلاف منقول وعقار	٢٤	٩	—	—	—
احتيال	٣٩	٢٣	—	١	١
اختلاس	١٣٧	١٢٥	٦	١٦	٣
إحراز أسلحة	٧٢٩	١١١	١	١	—
إخفاء مسروقات	٢٩٧	٦٦	١	—	—
استعمال القوة	٤٦	٨	—	—	—
اشتباه وعود له	٣١٢	٥٤	—	—	—
إصابة خطأ	٩٠	٤٨	١	—	—
آداب (أخرى)	٦٦	٣٨	١	—	—
أمن خارجى	١	١	—	—	—
أمن داخلى	٥	١٦	—	—	٩
إهمال عساكر وخفر	١٣١٠	٨٧٣	٤	—	—
إهمال مجندين	١١١٨	٩٨١	٩	٥	—
بلاغ كاذب	٣	١	—	—	—
تبديد	٢٣٥٤	٣٧٧	٢	٣	٢
تزييف نقود	٩	١٥	—	—	—
تزوير جناية	١٠٥	٨١	٥	٦	٥
تزوير جنحة	٦٠	٣١	—	٤	٣
تسميم وقتل مواش	—	—	١	—	—
تسول	٨٣١٢	٥٧٣	١	—	—
تشرد	٢١	١	—	—	—

المحكوم عليهم الواردون للسجون خلال ١٩٦٣
حسب الحالة الزوجية

الحالة الزوجية	عدد المجرمين فى مختلف الجرائم
متزوج	٢١٢٦٤
لم يتزوج	٢٢٠٩٦
مطلق	١٤٣٨
أرمل	١٣١٩

المحكوم عليهم والواردون للسجون خلال ١٩٦٣
حسب عدد الأشخاص المعولين بالنسبة لهم

الأشخاص المعولين	عدد المجرمين على اختلافهم فى الجريمة
من يعولون شخصاً واحداً	٢٤٩٥
من يعولون شخصين	٣٢٩٣
من يعولون من ٣ — ٥ أشخاص	٦٧٥٨
من يعولون أكثر من خمسة أشخاص	٢١٢٠

عدد الواردين للسجون خلال ١٩٦٣
حسب سنهم وقت الإيداع

السن	عدد المجرمين
عشرون سنة فأقل	٨٠٠٩
من ٢١ — ٣٠ سنة	١٧٢٦٠
من ٣١ — ٤٠ سنة	٩٩٦٤
من ٤١ — ٥٠ سنة	٥٤٢٨
من ٥١ — ٦٠ سنة	٣٢٦٦
أكثر من ستين سنة	٢١٩٠

المحكوم عليهم الواردون خلال ١٩٦٣
حسب أنواع الأحكام

* إعـــدام	٢١
* أشغال شاقة	
ا مؤبدة	٢١٣
ب عشر سنوات فأكثر	٢٦٨
ج ٣ — ١٠ سنوات	١٨٩٦
* سجن وحبس	
ا أكثر من ثلاث سنوات	١٦٤٨
ب أكثر من سنة إلى ٣ سنوات	٨٧٨
ج أكثر من ½ سنة إلى سنة	٣١٦٢
د أكثر من ٣ — ٦ شهور	٥١٣٦
٣ شهور فأقل	٣١٨٤٧
بدل غرامة	١٠٤٨
الجملـــة	٤٦١١٧

للمؤلف

●روايات

١- الطريق الطويل رواية
٢- اليوم الموعود رواية
٣- في الظلام رواية
٤- عذراء القرية رواية
٥- نور الله(١) رواية
٦- نور الله(٢) رواية
٧- النداء الخالد رواية
٨- رأس الشيطان رواية
٩- أرض الأنبياء رواية
١٠- ليالي تركستان رواية
١١- عمالقة الشمال رواية
١٢- عذراء جاكرتا رواية
١٣- عمر يظهر في القدس رواية
١٤- دم لفطير صهيون رواية
١٥- حمامة سلام رواية
١٦- قاتل حمزة رواية
١٧- مواكب الأحرار رواية
١٨- طلائع الفجر رواية
١٩- ليل الخطايا. رواية
٢٠- رحلة إلى الله رواية
٢١- لقـاء عنـد زمـزم رواية
٢٢- على ابواب خيبر رواية
٢٣- الزبيع العاصف رواية
٢٤- الرايات السوداء رواية
٢٥- ليل العبيد رواية
٢٦- أميرة الجبل رواية
٢٧- الذين يحترقون رواية

●مجموعات قصص قصيرة

٢٨- موعدنا غدا قصص قصيرة
٢٩- العالم الضيق قصص قصيرة
٣٠- عند الرحيل قصص قصيرة
٣١- دموع الأمير قصص قصيرة
٣٢- فارس هوازن قصص قصيرة
٣٣ حكايات طبيب قصص قصيرة

●دراسات

٣٤- اقبال الشاعر الثائر دراسة
٣٥- شوقي في ركب الخالدين دراسة

٣٦ـ الطريق الى اتحاد إسلامي دراسة
٣٧ـ الاسلامية والمذاهب الأدبية دراسة
٣٨ـ الاسلام والقوى المضادة دراسة
٣٩ـ نحن والاسلام دراسة
٤٠ـ تحت راية الاسلام دراسة
٤١ـ حول الدين والدولة دراسة
٤٢ـ أعداء الاسلامية دراسة
٤٣ـ في رحاب الطب النبوي دراسة
٤٤ـ المجتمع المريض دراسة
٤٥ـ شعر اغاني الغرباء ديوان شعر
٤٦ـ عصر الشهداء ديوان شعر
٤٧ـ كيف ألقاك ديوان شعر
٤٨ـ نحو العلا ديوان شعر

●دراسات طبية

٤٩ـ الدواء سلاح ذو حدين صحة
٥٠ـ الصوم والصحة صحة
٥١ـ الدين والصحة صحة
٥٢ـ الغذاء والصحة صحة
٥٣ـ التيفوئيد صحة
٥٤ـ الدفتريا عدو الطفولة صحة
٥٥ـ مستقبل العالم في صحة الطفل صحة
٥٦ـ الجدري والجديري صحة
٥٧ـ التحصين وقاية لطفلك صحة
٥٨ـ احترس من ضغط الدم صحة
٥٩ـ على أسوار دمشق مسرحية